جليلي جليل

ترجمة: د. محمد عبدو النجاري

من تاريخ الإمارات في الإمبراطورية العثمانية

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

من تاريخ الامارات
في الامبراطورية العثمانية

الطبعة الأولى ٥٠٠٠/٦/١٩٨٧

حقوق الطبع محفوظة

تنفيذ
الأهالي
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق هـ ٤٢٠٢٢٩ ص . ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

جليلي جليل

من تاريخ الإمارات في الإمبراطورية العثمانية

المقدمة

يشغل القرن التاسع عشر مكانةً هامةً في تاريخ نضال الشعب الكردي التحرري، ومنذ منتصف القرن ظهرت في الافق الاتجاهات والصفات المميزة لتطور هذا النضال الى حركة كردية قومية.

تميزت مرحلة النصف الاول من القرن التاسع عشر، موضوع هذا الكتاب، بتطورات هامة في حياة الاكراد السياسية. فنتيجة للضعف الاقتصادي والعسكري والسياسي الذي آلت اليه السلطات التركية قامت الامارات الكردية بتعزيز نفوذها وتوسيع حدودها في كردستان.

ان الهدف الاساسي لهذا الكتاب، هو بحث العلاقات بين الامارات الكردية والحكومة المركزية التركية، وتاريخ اجهاضها من قبل القوات التركية، الذي ادى الى ظهور النضال التحرري لاكراد صوران وهاكاري وبهدينان ومناطق اخرى في انحاء كردستان. لقد اعطى المؤلف اهتماماً خاصاً للنظام القانوني الداخلي للامارات الكردية، وللنشاط الاجتماعي والسياسي للحكام الاكراد المشهورين أمثال: مير محمد في رواندوز وبدرخان بيك في جزيرة بوطان. أن لهذه المسألة حسب رأينا ـ بالغ الاهمية، من حيث تقويم الاحداث السياسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر في كردستان، وكذلك الانتفاضة الشعبية التي قادها يزدانشير في مرحلة حرب القرم ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦. ان الترتيب الزمني لدراسة الاحداث متعلق بالمرحلة الاولى من نضال الشعب الكردي في سبيل استقلاله. * كما ان دراسة مرحلة القرن التاسع عشر (الاعوام من ١٨٢٠ ـ ١٨٨٠)، كفترة زمنية معينة في نضال الشعب الكردي من اجل استقلاله يتطلب تقسيمها الى ثلاث مراحل أساسية:

---

* ان التسلسل الزمني لتاريخ الاكراد في القرن التاسع عشر، لم يدرس بعد دراسة دقيقة من قبل علم التاريخ. إذ أن الادبيات الصادرة في المائة عام الاخيرة (باستثناء أعمال العالمين السوفيتيين ـ ن. آ. خالفين وم. س. لازاريف) تبحث تاريخ الاكراد في القرن التاسع عشر بحثاً مجزءاً وخاصة على ضوء النزاعات التي حصلت بين الحكومات، ودون الاهتمام بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. (انظر أعمال ف. ن. مينورسكي (٥٤) ب. ي. افريانوف (١٥) كارتسوف (٣٩). عزيز يامولك (١٤٩) وس. غافان (٩٨) وغيرها.

المرحلة الأولى: من سنة ١٨٢٠ ـ ١٨٤٠، وهي أعوام النزاعات العاصفة بين القوات التركية والامارات المستقلة.

المرحلة الثانية: الخمسينات وهي مرحلة الأزمة الشرقية التي شملت كل كردستان تركيا.

المرحلة الثالثة: الثمانينات وهي أعوام تطور الحركة التحررية لاكراد كردستان تركيا وايران إلى نضال جماهيري عام.

ومع توسع مجال الانتفاضات الكردية، وانخراط أوسع الفئات الشعبية الكردستانية فيها، يتغير طابع الحركة بذاتها، فإذا كان قادة النضال ضد السلطات التركية في السنوات ١٨٢٠ ـ ١٨٤٠، بعضاً من الزعماء الأكراد الاقطاعيين الذين كانوا يطمحون إلى الحفاظ على استقلالية امارتهم وتوحيد الأراضي الكردية في اطار دولة اقطاعية كردية، ففي الخمسينات اتخذت الانتفاضة الكردية طابعاً شعبياً (على الرغم من أنها لم تكن تتعدى الحدود التركية) وكانت موجهة لاحباط النير العثماني، وقد حظيت الانتفاضة بدعم السكان العرب والارمن والآشوريين واليونانيين في شرق وشمال شرقي الامبراطورية العثمانية. أما في الثمانينات فإن الحركة من أجل الاستقلال اكتسبت صفة تنظيمية أكثر تطوراً وبرنامجاً ايجابياً ينظر في تحرير جميع الاكراد وتوحيدهم في اطار دولة مستقلة.

* * *

لقد كتب هذا العمل على أساس دراسة ومقارنة مصادر مختلفة على أن المواد التي شغلت المكانة الأولى هي: مواد أرشيف سياسة روسيا الخارجية. والأرشيف الحكومي المركزي العسكري والأرشيف الحكومي المركزي التاريخي في لينينغراد، والأرشيف الحكومي المركزي التاريخي في جورجيا السوفيتية.

إن وثائق أرشيف سياسة روسيا الخارجية تبحث أساساً المسائل المتعلقة بسياسة روسيا في الشرق الأوسط وصراعات الدول الأوربية من أجل توسيع نفوذها في هذه المنطقة، وكذلك تبحث الأوضاع الداخلية في تركيا، ومن ضمن هذه المواد التي كانت لها أهمية خاصة بالنسبة لنا مراسلات وتقارير القائم بأعمال القنصل العام

في تبريز «تيتوف» ومستشار البلاط «ن. بيزاك» إلى وزير خارجية روسيا «ك. ف. نيسلرود». واعتمدنا في المراجع على عدد من المواد المأخوذة من تقارير القنصل العام في تبريز «كودينتس» المرسلة إلى وزير الامبراطورية الروسية المفوض في ايران اللواء الكونت «ي. و. سيمونتش». ومن بين المواد الهامة خاصة لدراسة جغرافية كردستان واقتصادها وكذلك أصل الأكراد، هي وثائق الأرشيف المركزي الحكومي العسكري الروسي، حيث احتوت على مخطوطة ممتعة باللغة الفرنسية (مؤرخة في ١٨ نيسان عام ١٨٣٠) ذكر فيها باختصار تاريخ الاكراد، وأصلهم وصفاتهم وعاداتهم وتقاليدهم الخ. . . . (٧). ويشغل تصوير الحياة الاقتصادية للمناطق الكردية قسماً كبيراً من هذه المخطوطة. ولقد جمعت المواد بشكل يساعد على وضع تقرير عن الدور السياسي والاقتصادي للاكراد في الشرق الأوسط، على أساس المعلومات المجمعة لصالح الخبراء الروس العسكريين في القفقاز. هذا وتحتوى المخطوطة على معلومات هامة عن العلاقات التجارية في كردستان. ومن ضمن المواد التي اعتمدنا عليها من الارشيفات وثائق الارشيف الحكومي المركزي التاريخي في جورجيا السوفيتية، إذ تعتبر هذه الوثائق نسخة طبق الأصل عن رسائل وتقارير ممثلي روسيا العسكريين والديبلوماسيين في وزارة الخارجية، كما أنها ذات قيمة كبيرة لأن معظم النسخ الأصلية قد ضاعت من أرشيفات موسكو. وقد نشر قسم من هذه الوثائق في بداية القرن العشرين في مجلدات عدة (من المحاضر) جمعتها اللجنة الجغرافية الأثرية تحت اشراف «بيارجيه» وطبعت بمبادرة الادارات الحربية في القفقاز، إذ أنها كانت شديدة الاهتمام بدراسة مسائل تغلغل روسيا في القفقاز، وعلاقة شعوبها بروسيا، وكذلك تاريخ العلاقات الدبلوماسية الروسية مع تركيا وايران في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولهذا فإن هذه المحاضر تحتوي على مواد غنية عن الأكراد وخاصة عن مساهمتهم في الحرب الروسية التركية والروسية الايرانية، كما أن هذه المواد تعطي وصفاً عن أوضاع الاكراد القريبين من الحدود الروسية.

وقد استفدنا من بعض الوثائق الملحقة بكتاب ب. أ. افيريانوف المأخوذة من أرشيف مقر المنطقة العسكرية في القفقاز من «المحاضر» (١٥).

تبحث هذه الوثائق في مسائل كثيرة، لأنها جمعت بهدف تبيان وضع الأكراد

السياسي، ومساهمتهم في الحرب الروسية التركية والروسية الايرانية، وكذلك علاقة الاكراد بالاتراك والايرانيين والروس.

وفي عداد المصادر لابد من ذكر مخطوطة المؤرخ الكردي من القرن التاسع عشر ميرزا محمود «ماليحا» المكتوبة شعراً باللغة الفارسية، وقد كتبت المخطوطة بأمر من مير محمد، وتحتوي على تصوير مفصل لنشاطه. والمخطوطة «ماليحا» لم تنشر بعد كاملة كوثيقة، إلا أن المؤرخ والمتنور والشخصية الاجتماعية الكردية حسين حزني موكرياني* اظهر كل محتوى المخطوطة تقريبا في كتابه «تاريخ حكام صوران» (١٤٥). ويظل هذا الكتاب مصدراً هاماً ووحيداً عن نشاط مير محمد، إذ يشرح بالتفصيل اداراته الاهلية، والتدابير التي اتخذها في مجال بناء القلاع والجسور والمنشآت الأخرى.

أما حول الأحداث في كردستان وخاصة نشاط بدر خان بيك، فقد كتب أحمد لطفي المؤرخ التركي من القرن التاسع عشر** مجلداته الثمانية «التاريخ» عن المرحلة الممتدة من عام ١٨٢٥ حتى ١٨٤٤ (١٥١). وقد كان أحمد لطفي يعيش في قصر السلطان لذلك فإن الاحداث المطروحة في «التاريخ» والتي عايشها المؤرخ تعبر عن وجهة نظر الناس المحيطين به. ولم تصدر الاجزاء الثمانية من «التاريخ» اثناء حياة أحمد لطفي، إنما تم صدورها فيما بعد بفضل جهود الكاتب التركي المؤرخ عبد

---

* حسين حزني موكرياني (١٨٩٣ - ١٩٤٧) واحد من أولئك المتنورين الاكراد الذين ادركوا تأخر شعبهم في مجال التنوير وضرورة احداث تغيرات جدية في مجال الحياة الاجتماعية. كان علامة وخبيراً بلغات كثيرة، سافر إلى العديد من دول اوروبا وآسيا واشترى بأمواله الخاصة مطبعة صغيرة، وأسس لأول مرة في حلب عام ١٩١٥ مطبعة كردية.

** ولد أحمد لطفي في استامبول عام ١٨١٥ في اسرة حرفية. وتلقى العلم والمعرفة سنة ١٨٦٤ قام بمهام محرر «تقويم وقائع» كان عضوا في مجلس الدولة وشغل مناصب هامة أخرى، كتب «التاريخ» في نهاية حياته في قصره الخاص في البوسفور، ألف العديد من الأعمال العلمية والادبية الاخرى. مارس الترجمة أيضا. توفي عام ١٩٠٧. هذه المعطيات عن تاريخ حياة المؤرخ التركي احمد لطفي، وكذلك مقتطفات عن الاكراد اخذناها من ترجمة ا. سافراستيان في قسم الاستشراق حالياً «معهد الاستشراق» التابع لأكاديمية العلوم في أرمينيا السوفيتية وقد زودنا بها بكل طيبة خاطر غ. سانتورجان وذلك بعد وفاة ا. سافراتسيان.

الرحمن شريف (١٥١). ويضم هذا المجلد جزأين: المدونات التاريخية والوثائق الملحقة. ان المعلومات عن بدرخان بيك بالنسبة الينا لها قيمة خاصة، لأنها تصور، بشكل أساسي مرحلة حياة بدرخان بيك، بعد اعتقاله ونفيه، المرحلة التي سكتت عنها جميع المصادر الأخرى المعروفة لدينا تقريبا، كما يحتوي الملحق على بعض رسائل سفراء وقناصل فرنسا وانكلترا في تركيا، وتتحدث أيضا عن نشاط بدرخان بيك واعتقاله، والمذكرات التي أخذت مكانتها الأولى في كتابنا، هي يوميات السفر والصور الجغرافية، والمعلومات العلمية للجغرافيين وممثلي البعثات والادارات الحربية والدبلوماسية.

إن اهتمام روسيا والدول الاوروبية السياسي بدول الشرق الأوسط أثار رغبة العلماء الملحة في دراسة خصائص حياة شعوب هذه البلدان. أما دراسة تاريخ شعوب هذه المنطقة ولغتها وأصلها، فلم يمارسها العلماء وحسب بل والعاملون في السفارات والبعثات الدبلوماسية أيضا. ونتيجة لذلك فقد تمكنت أوروبا في أواسط القرن التاسع عشر، أن تكوّن صورة أكثر وضوحاً عن الأكراد، وكما يؤكد المستشرق الروسي «ب. ليرخ» في عمله عن الاكراد أن «الادبيات» المعاصرة غنية بأخبارها عن القبائل الكردية، فالعملاء الدبلوماسيون للدول الغربية في تركيا وبلاد فارس وعلماء الآثار المرسلين من قبل حكوماتهم لدراسة الحضارة البابلية والآشورية والفارسية القديمة، وعلماء الطبيعة والمبشرون المندفعون بروح الدين إلى نشر المسيحية ـ كل هؤلاء اعاروا انتباههم إلى هذا الشعب وأثاروا اهتمام الآخرين به (١٤٧).

كانت روسيا هي السباقة إلى دراسة معيشة الاكراد وتقاليدهم ولغتهم. فمنذ أواسط القرن التاسع عشر اطلع قسم كبير من القراء على العديد من الكتب والمقالات الممتعة والمكرسة للاكراد (انظر ٢٤).

كانت أكاديمية علوم روسيا القيصرية تهتم إلى حد كبير بدراسة تاريخ شعوب الشرق، وغالباً ماكانت تبعث علماءها في مهمات إلى تركيا وإيران وافغانستان إذ كانت ابحاث هؤلاء العلماء ويوميات سفرهم تلقي الضوء على جوانب عدة من حياة سكان المنطقة، غير أن هذه المعلومات التي لم تكن سوى محاولات أولية لدراسة عميقة لحياة شعوب الشرق وثقافتهم كانت سطحية للغاية، وليس مصادفة ان تنشر في مجلات مثل «مكتبة من أجل المطالعة» المخصصة للقراء عامة.

بعثت جامعة قازان عام ١٨٤٢ العالمين المستشرقين ي. ن. بيريزين وف. ف. ديستل بمهمة سياحية إلى ايران وتركيا الآسيوية، إذ كان عليهما أن يدرسا لغة الشعوب القاطنة وآدابها ودياناتها وآثارها التاريخية، عملا بإرشادات كاظم بك الاخصائي الكبير بشؤون الشرق «من بلاد فارس حتى مصر، وفي طريق العودة من مصر حتى القرم ضمناً» (١٨). وبما أن طريقهما كان يمر عبر المناطق الكردية فقد استرعى الاكراد اهتمام الباحثين فكتبا - فيما بعد - مقالات وتقارير ممتعة تحتوي على مواد استخدمت في هذا الكتاب (انظر ٢٤).

كما دونت يوميات ممثلي لجنة الدول الأربعة المكلفة بتثبيت الحدود الايرانية التركية، والتي عملت من ١٨٤٩ إلى سنة ١٨٥٢. وهنا لابد من الاشادة بخدمات سكرتير اللجنة الروسية م. اغامازوف الذي هيأ لاصدار يوميات ممثل الوفد الروسي ي. ي. تشيريكوف، وممثلي الوفد التركي خورشيد افندي، والايراني ميرزا جعفر. إن الملاحظات الدقيقة والتعليقات والمناقشات العلمية اعطت اليوميات قيمة كبيرة، فخط الحدود بين ايران وتركيا كان يمر عبر كردستان ولذلك فقد اعطت اليوميات صورة واضحة لجغرافية كردستان ومعيشة العشائر الكردية وعاداتها ومواقعها الخ....

إن كتابات سكرتير المندوب التركي خورشيد أفندي، المكلف بتخطيط الحدود، تتجاوز حدود اليوميات العادية، وتعتبر عملاً ذا قيمة كبيرة يدرس البنية الاجتماعية الاقتصادية للمجتمعات الكردية. ومن هنا يمكننا الاستفادة من المواد المتوفرة عن النظام الضريبي ونظام استثمار الاراضي وغيرها. (٨٢). ان مواد خورشيد افندي تهتم وبشكل اساسي باكراد ايالات: (بغداد وشهريزور والموصل ووان وبيازيد) وقد ألحق بالكتاب قسماً يحتوي على نسخة من تقرير المندوب الايراني عن رحلته على الحدود التركية الايرانية، وبعض المعلومات من التقرير تتعلق بالمناطق الكردية في ايران.

إن كتب المؤلفين الارمن أمثال باروناك وفيروخان في «رحلة الى بابل عبر ارمينيا عام ١٨٤٧» (١٤١)، وأفتيس بربريان «تاريخ الارمن» (١٣٨) وسيروفيا كاريتس «رحلة من بغداد إلى ايتشميازين» (١٣٧) تحتوي على معطيات قيمة.

ومن بين المصادر الارمنية حول تاريخ آسيا الصغرى وارمينيا وكردستان في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لابد من الاشارة إلى عمل المؤرخ غ. انجيجيان «الجغرافية العامة» الذي يحتوي على مواد غنية عن الوضع السياسي للمناطق الكردية في المرحلة التي ندرسها، ولقد استخدمنا هذا العمل كمصدر أساسي اثناء وصفنا توزيع القبائل الكردية السكاني في النصف الأول من القرن التاسع عشر (١٣٤).

من خلال سرد تاريخ تأسيس الامارات الكردية. استفدنا من مواد «شرف نامه» للمؤرخ الكردي شرف خان بدليسي من القرن السادس عشر (٨٥) ان الكثير مما كُتب عن وصف رحلات إلى كردستان وارمينيا والمشرق العربي يعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر كتبها اوروبيون من ممثلي البعثات الدبلوماسية والعسكرية والسماسرة التجار والمبشرون وعلماء الآثار وغيرهم. وكانت هذه المرحلة مرحلة نشاط الدول الاوربية بدافع الرغبة في تحويل الشرق الادنى إلى سوق للبضائع الصناعية ومستعمرة ورأس جسر في المستقبل للهجوم المقبل على الشرق الاوسط. ولهذا الهدف تدفق منذ بداية القرن التاسع عشر سيل هائل من الاوروبيين بمختلف الاختصاصات والوظائف الى الشرق الاوسط. وكان الهدف الاساسي من ذلك وصف الاراضي الواقعة في طريقهم ودراسة الشعوب، التي سوف تواجههم في المستقبل. ومن بين الشخصيات التي زارت حينذاك الشرق الاوسط، وتركت مذكراتها وملاحظاتها، كانت شخصيات انكليزية وفرنسية وألمانية وغيرها. وحاز الكثير من المستشرقين (أمثال غ. روبنسون (١١٣)، أ. ليارد (١٠٤، ١٠٥) ود. فريزر (٩٧) وغيرهم) على شهرة عالمية واسعة في مجال الاستشراق.

بالاضافة إلى أعمال المؤلفين المذكورة أعلاه نجد ابحاثاً اخرى لها أهمية خاصة مثل ك. سانجينكسي (١١٩)، غ. ب. بيدجر (٩٠) ج. برانت (٩١) ج. م. كنسير (١٠٣) ك. ريتر (١١٦) وغيرها. إن هذه الابحاث كلها هي نتائج مراقبات شخصية، وتحتوي على مواد هامة حول وصف المنطقة، ولكنها تولي الحياة السياسية اهتماماً أقل.

إن تغلغل الأوربيين النشيط في المناطق الجبلية الوعرة في كردستان (بشكل أساسي في السنوات ٣٠ ـ ٤٠ في القرن التاسع عشر) يتوافق مع المرحلة التي قامت

بها سلطات الامبراطورية العثمانية بالحملات التأديبية للقضاء على الامارات الكردية الذاتية والمستقلة، وبهذا الصدد فإن ليوميات سفر عدد من المؤلفين الاوروبيين واعمالهم التي أفسحت المجال لمتابعة تحركات القوات التركية في كردستان أهمية خاصة بالنسبة إلينا. فلم يكن بعضهم أمثال ب. بوجولا (١١٢) ف. ف. اينسفوت (٨٧) غ. مولتكي (١٠٨)، شهود عيان فحسب بل ساهموا بشكل مباشر في الاحداث، الشيء الذي يعطي لشهادتهم قيمة أكبر. ان غيلمون مولتكي مراقب قوات حافظ باشا، التي حاربت الاكراد، حاول في «رسائله» ان يبرر وحشية القوات التركية تجاه السكان الاكراد، غير أنه صوّر بإعجاب مقاومة السكان البطولية وطموحهم إلى الاستقلال. إن رسائل غ. مولتكي مليئة بالشواهد على الاعمال اللاانسانية والقساوة والارهاب من جانب القوات العثمانية.

ومن بين أعمال المؤلفين الاوروبيين لابد من الاشارة إلى أن كتاب مندوب «شركة الهند الشرقية» في بغداد في بداية القرن التاسع عشر ك. ج. ريتش «مذكرات المندوب في كردستان» (١١٥) يعتبر مصدراً هاماً لبحثه عن موضوعات ميدانية غنية حول الاكراد في المناطق الشرقية من كردستان.

وعموماً فإن جميع المصادر الاوروبية، على الرغم من تحيزها في تقويم احداث معينة، تعتبر مواداً ممتعة بحد ذاتها... كما واستفدنا من بعض المعلومات عن الصحافة الارمنية، مثل جريدة «ارشالويس اراراتيان» (١٦١)، «القفقاز» (١٦٢) وغيرها من الصحف التركية التي نشرت بعض الاخبار عن انتفاضة الاكراد ضد ظلم السلطان.

إن الكتب التي تبحث في فترة أطول من تاريخ الأكراد، أي الأعمال الكاملة، تحتل مكاناً هاماً. والاسباب التي دعت إلى اصدار مثل هذه الكتب في روسيا هي الاهتمام السياسي بالاكراد. وكان على تلك الكتب ان تجيب بالدرجة الأولى على التساؤلات التي كانت تهم الادارات السياسية والعسكرية والدبلوماسية في القفقاز.

كما وقد استفدنا في اثناء كتابة هذا العمل، من نتاجات المؤلفين الروس ما قبل الثورة امثال: كارتسوف (٣٩) ف. ف مينورسكي (٥٤) ب. ي افيريانوف (١٥)، وغيرهم.

يحتوي كتاب ب. ي افيريانوف على مراجع هامة كثيرة مأخوذة من الأرشيف الروسي العسكري والدبلوماسي. وقد اختار المؤلف موضوعاته بشكل يؤهله لحل المسألة التي يبحث فيها، أي مسألة العلاقات الروسية الكردية المتبادلة. بيد ان دراسة هذه المراجع دراسة نقدية سمحت بالقاء الأضواء على عدد من المسائل الهامة، مثل مساهمة الاكراد في الحرب الروسية التركية والروسية الايرانية، وكذلك انتفاضة الاكراد بقيادة: يزدانشير في عامي ١٨٥٤ - ١٨٥٥.

تتسم بداية القرن العشرين بنهوض عاصف للنشاط الثوري للشعوب الواقعة تحت سيطرة الامبراطورية العثمانية. فبعد سقوط نظام السلطان عبد الحميد الثاني استغل الزعماء الأكراد والأرمن الانفراج السياسي في البلاد من أجل تعزيز الصداقة بين الشعبين، وفي عام ١٩١١ اصدر شاهبازيان في استامبول كتاباً تحت عنوان طريف: «التاريخ الكردي والأرمني» (١٣٧). وإلى هذه الفترة ايضاً يعود اصدار كراس «بدر خانلي» باللغة التركية (٤٣).

يحتوي كتاب «التاريخ الكردي والارمني» على مواد تكشف العلاقات المتبادلة بين الشعبين، وبهذا الصدد فقد اعار المؤلف انتباهه إلى انتفاضة بدرخان بيك، وموقف الارمن من هذه الانتفاضة، غير ان الكتاب يفتقر إلى المناقشة العلمية للمشكلة، وإلى المعلومات العملية، ويحتاج إلى الكثير من التدقيق، ويتطلب موقفاً نقدياً.

واسترعى كتاب العالم الأرمني أ. البوياجيان «حدود ارمينيا القديمة» اهتماماً معيناً لدينا (١٣١) حيث خصص منه جزءاً مستقلاً للامارات الكردية. أما مصادر هذا الموضوع فكانت الأدبيات المكتوبة باللغة الأرمنية.

واستفدنا من الأعمال المكتوبة باللغات الشرقية. فلقد كتب عن تاريخ الأكراد، وعن وضعهم السياسي ونضالهم التحرري كل من شاكر خصباك (١٤٦) وبله ج شيركو (١٤٤) وامين زكي (١٥٢ - ١٥٤) وصديق الدملوجي (١٤٨) وصالح قفتان (١٤٧) وغيرهم.

وفي مجال دراسة تاريخ الشعب الكردي في القرون الوسطى والعصر الحديث، تمتاز اعمال العالم الكردي امين زكي بأهمية عالية فهي نتيجة ابحاث سنوات عدة. وتستند إلى مصادر وادبيات شرقية واوربية واسعة، هذه الأعمال هي (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) (١٥٢) و«تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي»

(١٥٣) و«مشاهير الكرد وكردستان» (١٥٤) و«تاريخ السليمانية» (١٥٤). كما واعتمدنا ايضاً على كتاب انور المائي «الاكراد في بهدينان» (١٤٢). كمصدر اساسي يحتوي على مواد ميدانية حيوية كثيرة.

ومن ضمن اعمال المؤلفين الاكراد التي صدرت منذ وقت قريب لا بد من ذكر كتاب صالح قفتان «تاريخ الشعب الكردي منذ القديم وحتى يومنا هذا» (١٤٧)، حيث يكرس أجزاءاً مستقلة لتاريخ الامارات الكردية المستقلة، وتستند موضوعاته بشكل اساسي على الادبيات المعروفة في اللغتين العربية والكردية.

أما في مسألة دراسة تاريخ تغلغل الدول الاوروبية في الشرق وخاصة في الشرق الأوسط فقد ساعدتنا كثيراً اعمال العلماء الغربيين، إذ استطعنا، من خلال كتاب اندرسن ان نكتشف مسائل معينة في تاريخ التبشير في كردستان وفي تحديد وضع التبشير ودوره في الحياة السياسية لكردستان. وقد استفدنا ايضاً من مؤلف العالم الامريكي ج. جوزيف (١٠١)، المستند على مراجع عملية واسعة. أما وصف النشاط التبشيري في الشرق فلا يختلف في كتاب جوزيف عن التفسيرات البرجوازية المعروفة حتى الآن في الغرب، إلا أن المؤلف لايخفي شجبه «لدعاة المسيحية» في انكلترا وامريكا، ودورهم في الدسائس واشعال الحروب الداخلية بين الشعوب المتجاورة وخاصة، بين الاكراد والاشوريين. ان التحليل العلمي لتاريخ الشعب الكردي ليس كاملا ووافياً في الاستشراق وفي علم تدوين التاريخ الشرقي والغربي على السواء. . . .

وبهذه المناسبة يجدر التذكير بنجاحات الدراسات السوفيتية عن الاكراد. إذ تأسست في السنوات العشرة الاخيرة أقسام ومجموعات لدراسة الاكراد في مختلف مراكز الاستشراق السوفيتية. وظهرت نتيجة لهذا الاهتمام بحوث في التاريخ وعلم الاجناس والفولكلور وعلم اللغة ومجالات أخرى من حياة الشعب الكردي.

وقد اصدر المستشرقون السكوفيون أمثال ن. ا. خالفين، وم. س. لازاريف (٨٠، ٤٦) ابحاثاً هامة، فقد درس ن. ا. خالفين تاريخ الاكراد في القرن التاسع عشر، وخاصة من الناحية الدولية، وناقش أحداث القرن التاسع عشر كمرحلة معينة هامة من تاريخ الشعب الكردي وقد درس هذه المرحلة بالاستناد إلى مراجع جديدة واسعة، وطرح في كتابه مسألة أساسية هي كشف الجانب

السياسي الخارجي للحركة التحررية للقبائل الكردية، بمعنى آخر «الاهمية العالمية للقضية الكردية» على مدى حقبة طويلة من القرن التاسع عشر (وحتى تحول الرأسمالية الصناعية «الحرة» إلى الامبريالية في تسعينات القرن الماضي) (٨٠). ويعتبر كتاب ن. ا. خالفين مرجعاً كبيراً وهاماً لبحث مسألة تغلغل انكلترا وروسيا ودول أوروبية أخرى في كردستان في النصف الأول من القرن التاسع عشر ولوصف سياسة هذه الدول وتقويمها في الشرق الأوسط.

ويمكن اعتبار بحث م. س. لازاريف امتداداً لعمل خالفين، إذ يتابع دراسة المسألة المطروحة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (٤٦) ويتناول في المقدمة بعضاً من جوانب تاريخ الاكراد في تلك المرحلة التي تهمنا.

الفصل الأول

التوزيع السكاني للقبائل الكردية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

الشعب الكردي واحد من أقدم شعوب الشرق الأوسط، وهو شعب حرم، على مدى قرون عديدة، من الحرية تعرض ويتعرض للعبودية ورغم ذلك فقد استطاع الحفاظ على تراثه وعاداته وعلى طموحه الراسخ للحرية، وتمكن من أن يلعب دوراً لايستهان به في احداث منطقة الشرق الأوسط السياسية.

ـ كردستان ـ مهد الاكراد القديم ـ منطقة جبلية تقع عند ملتقى الجبال الأرمنية الايرانية. كانت منذ القديم ـ بمساحتها الواسعة، وبفضل موقعها الجغرافي ـ مركزاً استراتيجياً هاماً بين دول الشرق الاوسط، وكذلك جسراً حيوياً للعلاقات الاقتصادية والسياسية بين الشرق والغرب.

ان الاراضي التي يشغلها الاكراد ليست متشابهة:

فمن جهة نرى جبالاً شاهقة تفصلها شعاب ومضائق جبلية عميقة، ومن جهة هضابا تتحول تدريجياً إلى سهول.

وكان لابد أن يؤثر كل هذا في حياة الشعب الاقتصادية. ففي المناطق المرتفعة والغنية بمروجها الجبلية عمل الاكراد في تربية المواشي، أما في السهول الخصبة فقد مارسوا الزراعة والبستنة. ومن الصعب تمييز مناطق معينة تسود فيها الزراعة أو تربية الماشية فقط، إذ أن هاتين العمليتين كانتا دائماً متجاورتين ومتزامنتين، ونظرا لاتساع المناطق الجبلية فإن الدور الهام في العملية الاقتصادية كان دائماً لتربية المواشي.

وكان قسم كبير من السكان الاكراد يعيشون حياة الحضر ويمارسون الرعي معا ولم يخل الامر من وجود بعض القبائل الكردية التقليدية.

في بداية القرن السادس عشر تم تقسيم كردستان بين الدولتين العظميين في ذلك الحين، الامبراطوريتين العثمانية والفارسية، فبعد معركة جالديران سنة ١٥١٤ أصبح القسم الاكبر من الاكراد تضمهم الامبراطورية العثمانية والقسم الآخر ايران، وبدأ الصراع من أجل السيادة على هذه المناطق منذ أيام السلطان التركي سليم الأول، والشاه الايراني اسماعيل الاول وقد استمر حتى القرن التاسع عشر.

شهدت نهاية القرن التاسع عشر افول الامبراطورية العثمانية إذ أن انحطاط الدولة العسكرية الاقطاعية ـ المحتم تاريخياً ـ خلال القرون الماضية أدى إلى تفكك وحدة الامبراطورية العثمانية، ومن ثم الى تبعيتها السياسية والاقتصادية للدول الاوروبية. إن ظروف الحياة السياسية والاقتصادية التركية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر قد شجعت إلى، حد كبير، الحركات التحررية لكافة الشعوب الخاضعة لسيطرتها للنهوض من تحت نيرها.

إن البنية الاجتماعية للسكان الاكراد في الامبراطورية العثمانية وخارج حدودها كانت تتسم بحفاظها على رواسب العلاقات العشائرية والتي لم تنحصر فقط في السكان الرحل وشبه الرحل فحسب بل والسكان الحضر وفي مناطق محددة أيضا وبالتالي فإن مصطلح «عشيرة» يجب فهمه هنا بمعنى أكثر شمولاً. كان تواجد العشيرة وتركيبها يتغير غالباً تبعاً للاحداث السياسية، وديمومة سلطة جماعة على اخرى، إن انقسام العشائر وظهور عشائر جديدة، كانت ظاهرة تتكرر في المرحلة المذكورة آنفاً.

ومن أجل تحديد وحدة العشيرة استُخدمت مصطلحات عدة منها العشيرة، والقبيلة، الطائفة، وبار، وخيل وغيرها، وفي بداية القرن التاسع عشر، إلى جانب المعنى الدارج للعشيرة، كان المصطلح العربي «القبيلة» يعبر عن مفهوم جديد لاتحاد أكثر من عشيرة.

كان أصل تسمية العشيرة الكردية يختلف من مكان إلى آخر، ففي حالات خاصة كانت العشائر الساكنة في المناطق الجبلية في وسط وجنوب كردستان تسمى بأسماء المناطق الجغرافية. وفي حالات أخرى بأسماء مؤسسي السلالة أو العشيرة، والحالات الاخيرة تعود إلى العشائر التي تشكلت في وقت متأخر.

إن التحليل الاشتقاقي لتسميات العشائر الكردية باستطاعته، دون شك، الإجابة على أسئلة كثيرة من تاريخ الشعب الكردي ودراسة أثنوغرافية هذا الشعب وعلاقاته.

شغل السكان الاكراد ـ الأراضي الواقعة في جنوب وجنوب شرقي تركيا في إيالات: شهريزور ـ هكاري ـ موصل ـ ديار بكر* ـ وكانت إيالة شهريزور تشغل مساحة واسعة، أي عملياً معظم المناطق الكردية في كردستان العراق حالياً، وكان يحدها من الشمال الموصل وهكاري، ومن الجنوب بغداد، ومن الغرب نهر دجلة، ومن الشرق المناطق الايرانية، وكانت تدخل ضمن إيالة شهريزور (سناجق) كركوك، أربيل، كويسنجق، سليمانية، راوندوز، حرير. وكانت تقع تحت حكم الباشا البغدادي، أما مركز إيالة شهريزور فكانت مدينة كركوك (٨٣ ـ ص ٤٥٧).

ومن أهم الجماعات العشائرية في هذه الايالات كان اتحاد الجافيين. كان الجافيون يعيشون في المناطق الواقعة ـ بشكل أساسي ـ على خط الحدود التركية الايرانية، وفي الصيف كانوا يصعدون إلى المراعي الجبلية بالقرب من مدينة سنندج في كردستان ايران. أما في الشتاء فكانوا يقيمون في قرى منطقة شير وان على طول نهر ديالي في تركيا.

وكان بإمكان الجافيين، حسب شهادة ك. ريتش، أن يجهزوا ٢٠٠٠ خيّال و٤٠٠٠ من المشاة.

إن تكاتف الجافيين العسكري وتنظيمهم، كان ضماناً أكيداً لتسوية الحياة الاقتصادية والسياسية لأعضاء القبيلة، وكان سبباً مباشراً لانضمام عشائر صغيرة باعداد كبيرة ومجموعات منقسمة إلى عشيرة الجافيين. كان ك. ريتش يحصي عدد الجافيين الاصليين ويقدرهم بـ ٦٠٠ أسرة فقط، بينما كان القسم الباقي يمثل مختلف العشائر في كردستان ايران.

---

* في أواسط القرن التاسع عشر تم حل الايالات وتشكلت منها وحدات ادارية جديدة: فايالة هكاري: ضمت (لواء ماردين، وان والجزيرة)، إيالة كردستان: (دير سيم، موشى، ديار بكر)، ايالة الموصل: (لواء موصل وراوندوز)، إياله بغداد: (لواء بغداد، السليمانية، البصرة)، وبهذا الشكل قضي عمليا على ولاية شهريزور.

شيخ اسماعيلي	:	٥٠٠ أسرة	صوفيه وند	:	٤٠ ـ ٥٠ أسرة
كلهر	:	٢٠٠ أسرة	كيروي	:	٦٠ أسرة
مندمي	:	٣٠٠ أسرة	لينشيلي	:	٤٠ أسرة
كولياري	:	٢٥٠ أسرة	زنكنه	:	٤٠٠ أسرة
مير زينك	:	٨٠ ـ ٩٠ أسرة	زيند	:	٦٠ أسرة
تيله كو	:	١٠٠ أسرة	لور	:	٦٠ أسرة
كوماسي	:	٦٠ أسرة	ساداني	:	١٠٠ أسرة
هماوند	:	٢٠٠ أسرة	غرزي	:	١٠٠ أسرة

(١١٥، الجزء الأول، ص ٢٨١)

في النصف الأول من القرن التاسع عشر حدثت بعض التغيرات في اتحاد الجافيين، مما أدى إلى إضعاف قوتهم السابقة، ومن هذه التغيرات التأثير التركي في المنطقة التي يشغلها الجافيون، وكذلك محاولة تثبيت وضع الحدود التركية الايرانية مما ارغم قسماً كبيراً من الجافيين على التحصن في مناطق معينة وتحديد المراعي الصيفية ضمن مناطقهم، وانقسم بذلك الجافيون إلى مجموعتين اساسيتين.

في منتصف القرن التاسع عشر كتب سكرتير اللجنة التركية المكلف بوضع الحدود بين تركيا وايران في يوميات سفره عن جافيي زاخو والسليمانية، وقدر عددهم في زاخو بنحو ١٠٠٠ أسرة، وكتب خورشيد أفندي بأنهم أغنى وأيسر العوائل في زاخو (٢٨٢ ص ٢١٧). وجافيّو زاخو هم: بوراكي، ضياء الدين، يندري، زيرودي، وتاوكوزي وغيرهم. وبعد تعيين الحدود بين ايران وتركيا أصبح سنجق زاخو تحت سلطة شاه ايران وظلت مجموعة جافي السليمانية أكبر مجموعة (قرابة ٤١٠٠ أسرة)، فقد كانوا يشكلون أكثرية سكان السليمانية تقريباً، ويقودهم ثلاثة بكوات: محمد بيك كيخسروف بيك ومحمد بيك قادر بك ومحمد بيك أحمد بيك وكان أكثر الجافيين يخضعون للبيك الأول. ويشير خورشيد أفندي إلى الطوائف التالية: لجافيّ السليمانية: شاطيري، روخزاي، ساداني، ميكائيلي، دوروني، هاروني، بزدان باخشي، كمالي، آمالا، نجم الدين، بلباس، بيلازكولكوني، باشكي، موريد

ناصري، تكليكو، شيخ اسماعيلي، صوفيه وند، كاداكري، غازان، فيري، كيلخور، لور، دوراجي، وزيردوي (٨٢، ص ٢١٧).

كان اقتصاد الجافين يعتمد على تلبية الحاجات الشخصية من الطبيعة. وكان جافيو السليمانية وبقية العشائر هناك يمارسون الترحال على مرحلتين تبعاً لمواسمهم - فعشيرة ايل ريفاواري مثلاً كانت تتجه، ربيعاً، نحو المراعي التي تحيط بساوجبلاخ (مهاباد حالياً) وتتوقف في الطريق لفترات محددة في مناطق سورناشي، بارزان، كورداغ، حيث كانت تعمل في الارض، وفي اثناء العودة كانت تتابع العمل في الأرض، بعدها كانت تعود شتاءاً إلى مناطق عسكر، كاليه، سيوكه، سيرتشينا، جمجمال...

كان اكراد عشيرتي سيكر ونور الدين في منطقة بيد شير شمال السليمانية يخضعون لباشا السليمانية، وكانوا يشكلون حوالي ١٠٠ قرية. كان بإمكانهم تجهيز ١٠٠٠ مقاتل. وبجوارهم كانت عشائر ستينكي (٢٠٠ أسرة) وجلالي (١٥٠ أسرة) في مناطق تحمل الاسماء ذاتها. ويشير ريتش إلى فقر هؤلاء الاكراد وتبعيتهم لحاكم «بابان».

وقد أثرت في الحياة السياسية لسنجق السليمانية عشيرة بلباس التي كانت تشغل الاراضي الواقعة شرقي السليمانية. وكان غ. رولنسون يقسم أكراد بيلباس إلى ثلاث مجموعات قبلية أساسية: بيران، مانغور وماماش. أما ريتش فيقسم البلباسيين إلى سبع عشائر.

في الجنوب تمتد الحدود بين سلسلة القبائل الكردية في مناطق مندلي وخانقين في إيالة بغداد. كانت خانقين مدينة حيوية فيها الكثير من الحرفيين والتجار الصغار. وقبل ضم منطقة زهاب إلى ايران كانت خانقين تابعة لسنجق زهاب. وبعد تثبيت الحدود انفصلت خانقين وضمت الى إيالة بغداد. وإلى الشمال من سنجق السليمانية كانت مقاطعة كويسنجق التي تحدها من الشمال والشمال الغربي أربيل وراوندوز ومن الشرق مناطق سردشت ولاخيجان وراوندوز وجبال قنديل العالية التي تغطي قممها الثلوج على مدار السنة.

كان القسم الاكبر من سكان كويسنجق من الحضر يعمل في الزراعة. وقد ترك نمط الحياة الحضرية آثاره على كل المنطقة، حيث ظهر بوضوح تأثير الادارة التركية. أن اكراد كويسنجق، على الرغم من تخليهم عن نمط الحياة القبلية، يعرفون أسماء

عشائرهم السابقة، الاسماء التي اصبحت مصدراً اساسياً للتسميات الجغرافية للأماكن التي كانوا يشغلونها. وكان الاكراد المنتمين سابقاً إلى عشيرة «آكو» يسكنون في «مافال»، ويؤلفون بجملتهم ٤٣ قرية. أما سكان مافال خوشناو فقد كانوا ينتمون إلى عشيرة خوشناو.

أما في كويسنجق وخاصة في مناطق «خوشناو ودير بند» فقد كان يعيش أحد افخاذ عشيرة بلباس، وكان القسم الأكبر يعيش في المناطق المجاورة لايران. أما طائفتا بلباس سين وريميك فقد كانتا تشغلان في تركيا فقط ١٥ قرية في منطقة بيتوني. وكانت بعض عشائر كويسنجق الساكنة في القرى الواقعة في الشعاب العميقة ترحل في الصيف مع قطعانها إلى جبالها، وبذلك كانت تتجنب البحث عن المراعي. أما في سنجق راوندوز فقد كانت تسكن عشائر شيخيزوري، بير يسيني وروندوك (٨٢، ص ٢٤٩).

بالاضافة إلى الافخاذ المذكورة في قبيلة رواند كانت افخاذ من عشائر أخرى مثل شيخاب، ماليباس، نوريك، هناره ي، خيلاني، كاسان، شيخ محمودي، باماهي، دريجكي، سي كوي، هير بوري، شيكولي، منديك، بيراجي، بايهار.

وفي حرير المجاورة لراندوز كانت تعيش العشائر التالية: سورتشي، خيركي، كوري، بيريكي، ايسبيديرة، خيلاتي باليكي، بارزان، زيراري، هاروني، فيروزي، بافياتي (٨٢، ص ٢٤٩).

كان سكان سنجق حرير كما في راوندوز يعيشون حياة الحضر ويعملون بشكل أساسي في الزراعة والبستنة. وأهم مزروعاتهم كانت القمح والشعير والتبغ والعنب وغيرها.

وفي جنوب غربي راوندوز وعلى قمم جبال زيبار كانت ثمة عشيرة تحمل نفس الاسم (١٠٤، ج١) وبين مدينتي السليمانية والعمادية كانت تعيش عشيرة خوشناو المؤلفة من ثلاثة بطون: ميرماخمولي - مير يوسف - بشيدري كان البطن الأول يعيش في عداء داخلي مع الاخرين، إلا أن هذا لم يمنع ترددهم إلى مسجد واحد. ويشهد ك. ريتش أن زعماء البطون الثلاثة في قرى خوشناو كانوا يعقدون باستمرار المجالس لحل المسائل المتعلقة بالعشيرة (١١٥، ج ١ ص ١٠١).

وفي المناطق الشمالية الشرقية من الامبراطورية العثمانية، أي في أرمينيا الغربية، إلى جانب السكان الارمن الاصليين، كانت عشائر كردية كبيرة تمارس تربية المواشي. ويؤكد المؤرخ الارمني أنيجيجيان أن هؤلاء الاكراد ينقسمون إلى مجموعتين كبيرتين، إذ أن اكراد موشي وبدليسي وساسون والمناطق المجاورة كانوا يعرفون باسم روشكيين، لأنهم كانوا يشغلون المنطقة المعروفة باسم روشكان، أما الاكراد القاطنون في شمال كردستان (بيازيد، الاشكيرت ديادين وغيرها) فقد كانوا يعرفون باسم (سليفاتي) كما في منطقة سليفان (١٣٤، ص ٢٥٢، ١٣٠ ص ٣٥٥).

يصعب علينا تحديد ظهور تسميات هذه الجماعات من الناحية القبلية أو الجغرافية، غير أنها تستخدم حتى يومنا هذا وهو مانلاحظه في الدراسات السلالية والفلكلورية وسط أكراد المناطق المذكورة.

وإلى جانب هذه العشائر كانت تعيش عشيرة (دونبولي) التي كانت تعود، بعد قضاء أربعة أشهر من الصيف من منطقة (داواب) إلى سهولها، لتعمل في حراثة الأرض في اقضية: زاريكي، وبابيكي في باشيك، وإن (قضاء وان وأرجيس وعاد لجيفاز، وأخلات وكاواش وموسك وفوستان ونوروز، ساشاك) وكانت تعيش عشائر كردية كبيرة هي: حيدراني، شيفيلي، ليديلي، ميلياني، شيكاك، وكانت أكبر هذه العشائر عشيرة حيدران التي كانت تشغل أراضي مناطق أرجيس وعاد ولجيفاز.

كان باشليك (وان) يشغل مساحة شاسعة، غير أن سلطة الباشا على كل الباشليك لم تكن سوى سلطة شكلية موجودة في عدة مناطق حول مدينة وان وبشكل نسبي على سكان القرى الواقعة في السهول وبعض المدن.

كتب المراقب العسكري الانكليزي شبيل في اثناء جولته عام ١٨٣٦ في مناطق وان، وبيدليسي وسيرت ـ واربيل والسليمانية مايلي:

«في شمال» باشليك وان «وإلى جانب العشيرة الكردية الكبيرة حيدران (١٥٠٠ خيمة) كانت تعيش عشائر كردية مثل «سبيكي (١٠٠٠ خيمة) شولو (٢٠٠ خيمة)، حمزة ـ باغي (٢٠٠ خيمة) والعشيرة الاخيرة كانت مشهورة ببسالة فرسانها (١٢١، ص ٦٦).

وفي المناطق المجاورة لـ «وان» كانت تعيش عشيرة شيفيلي وفي جوارها كانت تعيش العشائر الكردية ليديلي وميلينلي وشكاك. وإن عشيرة شكاك، وهي البطن المنشق من عشيرة كبيرة تحمل الاسم نفسه، كانت تعيش في ايران وعلى طول الحدود الايرانية التركية*.

إلى الجنوب من «وان» كانت تمتد سهول «خوباسور» وبعد ذلك تمتد جبال «هرتوشي» التي كانت تشمل قضاء المحمودية (مركزها خوشاب)، حيث كانت تعيش العشيرة الكردية الكبيرة «خارتوش» (١٢١، ص ٦٧). وفي حديثه عن العشائر الكردية في موشي والسناجق المجاورة لها والقبائل التي كانت أفرادها شبه رحل في نهاية القرن الثامن عشر، يرى انيجيجيان العشائر التالية: بان ـ جنباري، سيناتي، باتيكي، شاتكي، سبيكي، خاسين، برازي، ميماني، اومري، شيخبازين تتوزع على مرتفعات جبال المنطقة كلها (١٣٤، ص ٥٢).

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر، كما تشير معلومات خورشيد أفندي، كانت عشائر ماميكي، مانلي، باديكانلي، سيدانلي، وبيلكي، جبرانلي، تعيش في مناطق تحمل الأسماء نفسها. وفي الربيع عند انتقالها إلى مصايفها الطبيعية كانت تلحق الضرر بالسكان الحضر. ومنذ عام ١٨٤٦ ارتبط القسم الاعظم من هذه القبائل بالارض الامر الذي قلل من الترحال الجماعي في الصيف. وفي جنوب موشي في المناطق الجبلية الصعبة البلوغ لساسون كان يعيش اقوام من الارمن والاكراد دون أن يعترفوا بسيطرة الاتراك عليهم. وقد تصدوا أكثر من مرة سوية للقوات التركية التي كانت تحاول السيطرة على هذه البلاد الجبلية المنيعة.

إن الرحالة والعالم الانكليزي د. تيللور ينسب إلى العشائر الكردية الساكنة في جبال ساسون «عشائر موسى، سارامي، ساسون، باليكي»، كما يطلعنا على معلومات عن العشيرة الاخيرة فيقول: «تسكن في مناطق ساسون الجبلية عشيرة كردية مستقلة حرة ومحاربة تسمى «بياليكي». إنك لاتفهم ديانتهم، مسيحية هي أم اسلامية أم كيزيلباشية، فهم يحترمون الجامع والكنيسة معاً (٧٤، ص ٤٤).

---

* إن الاكراد الشكاكيين في ايران كانوا يحتلون المسافة مابين ميرغاور، وبرادوست وسوماي والطوائف التي كانت تتألف منها عشيرة الشكاك هي أودوي، هناري، كاردار، شارا، بوطا، كوزيكي ـ كافاتا.

إن شهادة د. تيللور تؤكد أن الارمن واكراد ساسون ماكانوا يظهرون لبعضهم أية كراهية دينية وقد تعايشوا في صداقة وسلام ووئام.

في إحدى مناطق ساسون الجبلية عاش اكراد عشيرتي «ساماني وموكري»، وكان تعدادهم العام (٢٠٠٠ نسمة). وحسب تأكيدات المعاصرين فإن هاتين العشيرتين كانتا قد شكلتا امارة صغيرة مستقلة باسم «بالانج». وتحيث الجبال باكراد تلك المنطقة من كل ناحية، وعلى الرغم من أنهم كانوا منعزلين عن العالم إلا أنهم كانوا يزرعون الارض، واشتهروا ببسالتهم وذكائهم.

كتب مؤلف مجهول في وثيقة تاريخية عن هؤلاء الاكراد، أنهم كانوا يملكون على قمم الجبال الصعبة البلوغ قلعة يمر عند سفحها راقد نهر دجلة ويمارسون زراعة التبغ والفاكهة، وصناعة الخمر والنبيذ بحرية (٧، ص ٨٥٠).

أما ولاية ديار بكر فإنها تقع جنوب غربي بحيرة وان. كان سكانها ينتمون إلى قوميات متعددة مثل الاكراد والارمن والآشوريين وغيرهم. وفي عام ١٧٥٧ عم الجفاف منطقة ديار بكر، وحصلت على أثره مجاعة عامة، استمرت سنوات عدة، أدت إلى تخفيض عدد السكان بنسبة كبيرة، واستمرت حتى سنة ١٧٧١، مما سبب كثرة في الوفيات والهجرة. وكانت ديار بكر مركزاً هاماً للطرق التجارية، الواصلة بينها وبين دمشق وحلب وموصل واضنة وبغداد وارزروم وترابزون وتبريز.

على الرغم من أن ديار بكر كانت مركزاً ادارياً هاماً وقوياً في شرق الامبراطورية العثمانية إلا أن سلطة المندوبين الاتراك كانت محدودة جداً، ويعود ذلك إلى أن السلطة في كل هذه الولايات كانت بيد البكوات الأكراد.

كانت هنا ثمانية سناجق، بعضها كان للبكوات الاكراد، وبعضها كان تابعاً للحكومة.*

---

* كانت السلطة تنشىء وراثة للسلالات المحلية من الأمراء مقابل خدماتهم للباب العالي وكانت اسماء الأراضي التي تمنحها الحكومة لعدد من الناس اعترافاً منها بخدماتهم العسكرية تسمى أوجاخليك أو يونلوك. وكانت هذه الأراضي تتحول، على مرور الزمن إلى ملك يتوارثه الابناء.

ويشير انيجيجان إلى أن باقي السناجق كانت في حوزة المنتفضين. فسكان سنجق ميغراني قاموا مثلاً بانتفاضة منذ القرن الثامن عشر، وفي عام ١٧١٧، حينما هاجم اوزون عبد الله باشا هذه المنطقة بجيش قوامه (٣٠) ألف مقاتل محاولاً اخضاعها للادارة العثمانية، قاومه الاهالي والقبائل وسدوا جميع الممرات الجبلية واحاطوا جيشه وحطموه شر تحطيم (١٣٤، ص ٢٢٣).

وفي نهاية القرن الثامن عشر دخل في عداد إيالة ديار بكر - على حد زعم أنجيجيان - سنجق اميد، تيرجيل، ميفاركين، اتاغ - ايكيل، جابانجور، بالو، جير سانجاك، جيمشكيزك، سيفربل، سافور سيرت، خازو، خيسنيكي وغيرها. كانت تقع في سنجق سيفربل قرية كبيرة للعشيرة الكردية ميللي - ميلليساري، التي تعد واحدة من أقوى العشائر الكردية، ففي الصيف كانت تصعد إلى جبال «قره جا - داغ» حيث كانت تنصب آلاف الخيام وتمتلك قلاعاً خاصة بها كقلاع «تيلكوران، تيلجيزير، جيلاب، أبنتسلي» وغيرها (٣٤، ص ٢٢٩). كان رئيس العشيرة تيمور حائزاً على لقب الباشا، وتخضع لسلطته ٤٠ ألف عائلة كردية. أما فصائل تيمور العسكرية فكانت تتألف من الخيالة، وعددهم ٧٠ ألف فارس معظمهم من الاكراد اليزيديين، وكان يحظى بشهرة كبيرة لدى السلطان، الامر الذي ساعده على جمع الضرائب دون مصاعب من كل المناطق المجاورة له، وقد حاول حاكم ديار بكر أكثر من مرة أن يقضي على الباشا الكردي المستقل وفي كل مرة كان يهزم. وذكر بعض الرحالة أنه إلى جانب الرجال في عشيرة ميللي كانت النساء تحارب بسالة أيضاً.

وقريباً من «آميد» كانت تقع منطقة (ايسبان) أو (ايسكيان) وكان سكانها من عشيرة يانوك الكردية، وكانت أسماؤهم عادة مستوحاة من الاراضي التي يشغلونها.

عاش اكراد يانوك مدة طويلة في صراع مع حاكم ديار بكر، وفي عام ١٧٨٢ قام الحاكم التركي وبالتعاون مع باشوات آخرين وعلى رأس جيش مؤلف من (٤٥) ألف مقاتل بالهجوم على عشيرة يانوك، ولم تحقق معركة الايام الثمانية النصر للاتراك. فهاجموهم مرة ثانية عام ١٧٨٥ وبجيش جديد ولم يفلحوا في المرة الثانية، وفي عام ١٧٨٩، استطاع الحاكم التركي عن طريق الخداع استدراج الزعيم الكردي إليه

وقتله، ثم عينوا ابن زعيم العشيرة، ولم يكن هذا على حنكة وقوة والده واستطاع الاتراك أن يعززوا مواقعهم إلى حد كبير في هذه المنطقة.

في شمال شرقي الامبراطورية العثمانية كانت تمتد إيالة ارزروم التي باتت منذ بداية القرن التاسع عشر منطقة حدود بين تركيا وايران وروسيا. وكانت باشليك بيازيد تقع مباشرة على حدود روسيا، والحاكم المطلق هو الباشا الكردي الذي كان يقيم في قلعة مدينة بيازيد المحصنة (١٣٥، ص ١٥١).

إن باشليك بيازيد، ومنذ اتحاد الممتلكات القفقازية مع روسيا وخاصة ارمينيا الشرقية، اكتسبت أهمية استراتيجية وسياسية، وبذلك أصبحت العشائر الكردية في المنطقة المذكورة تلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية للباشليكات.

قبل اتحاد ارمينيا الشرقية مع روسيا كانت العشائر الكردية في بيازيد تقع تحت سيطرة الحاكم اليريفاني المعين من قبل الشاه الايراني، على الرغم من أن مناطق هذه العشائر كانت محصورة ضمن الاراضي التركية.

وكما يؤكد المعاصرون فإن سلطة الاتراك على الاكراد الواقعين تحت سيطرتهم كانت ضعيفة الى درجة أنها «حملت طابع الاتحاد وليس التسلط» (١٠، ، ١).

كانت العشيرة الكردية المتنفذة (زيلان) غالباً ماتقدم قواتها لمساعدة ايران وبالمقابل فإن الحاكم اليريفاني كان يسمح لهذه العشيرة بالاستفادة من المراعي الغنية لوديان أرارات (١٠ ص ١٠).

في بداية القرن التاسع عشر، ومع ظهور المناوشات على الحدود بين تركيا وايران وروسيا، كان الاكراد في بحثهم الدائم عن المراعي الخصبة يجبرون على تجاوز حدود تلك الدول، مما كان يلحق الضرر الكبير بالزراعة، وعلى أثر اتخاذ السلطات المحلية تدابير تحافظ على مصالح سكان المنطقة، وتعيق في الوقت نفسه انتقال العشائر من دولة إلى أخرى، فقد انقسمت بعض العشائر إلى اثنتين أو ثلاث عشائر، وهذا ماحدث مثلاً في عشيرة جلالي الكردية الكبيرة في أربعينات القرن التاسع عشر (انظر الجدول):

انفصال وحدة قبيلة جلالي

روسيا	ايران	تركيا	المجموع	العشيرة المنفصلة
٤٠	٢٦٠	٢٥٠	٥٥٠	خـاليكـانـي
٥٠	٢٠٠	٢٣٠	٤٨٠	سـاكيانلي
١٦٠	١٥٠	٢٥٠	٥٦٠	بانيكيانلي
٢٠	١١٠	٠٣٠	١٦٠	ميسير كانلي وبانوك
٠٠٠	٠٠٠	٢٠٠	٢٠٠	جوديكـانكي
٣٠	٠١٠	٢٠٠	٢٤٠	حسـان سـورانلي
٠٠٠	١٥٠	٠٤٠	١٩٠	كيـزيلباشوخلي

(١٨٢، ص ٣١٦)

ويتضـح من هذا الجـدول أن عشـيرة جلالي كانت تعيش بشكل أساسي على حدود تركيـا و٣٠٠ أسـرة منهم في روسيـا. ان الاكـراد الجـلاليـين في ايـران وتركيا لم يكونوا يهتمـون بالحكـومـة والسـلطـة وغـالبـاً ماكانوا يعبر ون الحدود مستخدمين مراعي هذه الدولة او تلك.

وفي بيازيد كانت العشائر: حيدرانلي سيبكي وزيلان تعد من العشائر الكبيرة عددا والمتنفـذة وكـانت عشـيرة حيـدرانـلي تتألف من طائفـة ادامـانـلي ومـارخـوري حمديكانلي اكوبي، شيخ حساناز، دور توري ـ خيليكي ومجموعهم ١١٥٠ بيتا. وكان المقر الشتوي لهذه العشيرة يقع على أراضي بيازيد ووان.

كانت عشـيرة سيبكي تعتنق ديـانـات مختلفة كالاسلامية واليزيدية (٤٧، ص ٧٢). لاشك أن جميع أكراد عشيرة سيبكي كانوا في مأمن من أنصار الديانة اليزيدية.

ومن بين عشـائـر سيبكي المعتنقـة للديـانـة اليـزيـديـة ميكائلي، ايساديزانلي، بوطيانلي، شيمسيكي، كيلير ي ـ جيلاني، حسيني، ميرانكي، ستيوركي، بوخالي أمـا عشـائـر سيبكي المسلمـة فكـانت بيرمي، مانغـالي، مامـا زيـدي، بيرنجـال، ديربجيكي، خال، حسيني ـ بيزيباد.

وكانت عشيرة زيلان الساكنة في الاراضي المجاورة لروسيا تعتبر أيضا قوية وكثيرة العدد وكانت هذه العشيرة تتألف من الكثير من البطون المتوزعة على سفوح جبال منطقة ارزروم.

إن البطون الداخلة في قبيلة زيلان المعترفة بزعامة القائد المعروف باسم قاسم خان كانت: اريديكي، ايلبانلي، اولانلي، ديلخيرانلي، كورديكانلي، كيلتورانلي، شيخ بيزني، جمالدينلي - بيزكانلي، سغيدانلي - بير وكانلي، كاراجورلي، مللیوان، عزيزي - جيكيمانلي، موتانلي - سالانلي، كاراخاجيليار، خيركيانلي (مجموعهم ١٥٠٠ عائلة).

كانت سلطة قاسم خان، كما يشهد المعاصرون تمتد حتى على الطوائف الواقعة ضمن حدود روسيا، وايران (٨٢، ص ٣٢١).

كان الكثير من العشائر الكردية يعيش في السفوح الجبلية لارارات، فالعالم الالماني م. فانغر، الذي جاب سفوح جبال أرارات، يشهد على الوضع المزري لاكراد تلك المناطق (١٤٠، ص ١٣).

ويعطي ي. شومبين (٨٦) كذلك تصويراً مفصلاً عن وضع العشائر الكردية في المناطق المجاورة لروسيا، الساكنة ضمن حدود الامبراطورية الروسية في النصف الاول من القرن التاسع عشر.

تخصص المصادر التاريخية عن الاكراد، مكانا هاما للاكراد اليزيديين الذين جذبوا اهتمام الباحثين العلماء، ويفسر اهتمام العلماء بالاكراد اليزيديين بأن هذا القسم قد احتفظ في أصل عقيدته بالوثنية والتعاليم الزراداشتية، واستطاع أن يصون عقيدته، وأن يحتفل بعقائده ومراسمه، على الرغم من الملاحظات والمضايقات المتكررة له. وكان المركز الديني للاكراد اليزيديين هو منطقة سنجار الجبلية شمال الموصل، وكان يتبع، اداريا، لديار بكر.

كان اكراد سنجار، بحكم وجودهم في المنطقة الجبلية المعزولة، لايرضخون لتأثير السلطة التركية ويتمتعون بالادارة الذاتية المتمثلة في الشخصيات الدينية والاجتماعية.

وقد كتب انجيجيان عن اليزيديين قائلا: «اليزيديون شعب باسل وجسور ومقاتل، وكذلك جاهل، يتألف جيشه من الخيالة ويضم حملة الرماح الشجعان».

ويعتبر انيجيجيان، معتمداً على الوثائق الكردية، أن عدد العوائل اليزيدية في جبال سنجار يقدر بمائة ألف عائلة وفي تركيا بـ ٢٠٠ ألف عائلة (١٣٤، ص ٣٤٥). ويعتبر بعض المؤلفين أن عدد اليزيديين يناهز المليون (٤٢، ص ٢٠٤).

عاش اليزيديون حياة حضر وكانت أغلب قراهم في مناطق العمادية وزاخو والموصل وموشي وبيازيد وخوشاب وغيرها. وكانت أعمالهم الاساسية البستنة وتربية المواشي. أما تربية المواشي فكان يقوم بها يزيديو المناطق الشمالية.

في عهد حكم السلطان محمود الثاني قام حاكم بغداد سليمان باشا بجيش تعداده ١٥٠ الف مقاتل بمحاولة لاحتلال سنجار، ونظرا للمقاومة الباسلة تحطمت قوات سليمان باشا.

كان السنجاريون يقيمون علاقات صداقة مع حكام بهدينان في مركزهم في العمادية، التي كانت مزودة بكل المرافق والبيوت الكبيرة والحمامات الحضرية، ويشير ا. ليارد إلى وجود مراكز قديمة تشير إلى [illegible] تاريخ هذه المدينة الرائعة.

كانت قرى سنجار تقع في أسفل الجبال والبيوت متدرجة فوق بعضها على شكل شرفات، وكان أهالي القرية يزرعون حولها أشجار التين والزيتون، التي كانت تعتبر من المواد الاساسية للتصدير، وكانت المحاصيل وفيرة لأن الارض لم تكن بحاجة إلى سقاية اصطناعية.

كان اليزيديون - مثل الاكراد المسلمين - ينقسمون إلى عشائر وإلى سلالات. وحسب زعم ا. ليارد فإن قسماً من اليزيديين كان يسمى بأسماء المناطق التي يشغلها.

كان المركز الديني الهام للاكراد هو قرى ياآدري، باشكا، سيميل. وكان مقر الزعيم السياسي والديني لليزيدية يقع في قرية ياآدري الواقعة شرقي مدينة دهوك عند سفح الهضاب العالية، وفي ثلاثينات القرن التاسع عشر كان الشيخ ناصر وحسين بك يعتبران الزعيمين لهذه العشائر. وكانت مدينة رودوان مع المناطق المجاورة لها تعتبر مركزاً للاكراد اليزيديين في منطقة سيرت، حيث تقع على الضفة اليسرى لنهر ارزين - سو - وحسب شهادات الكثير من الرحالة فإن اليزيديين كانوا يملكون قوة كبيرة، وتأثيراً هاماً في حياة المنطقة السياسية. ولقد كتب د. تيلور عنهم مايلي:

«إن اكراد هذا المركز والمناطق المجاورة له ينتمون باكثريتهم إلى الطائفة اليزيدية، ويتميزون في الوقت نفسه بروح دائمة التمرد» (٧٤، ص ٤٩).

كان الكثير من اليزيديين يعيشون في «وان» من ناحية ابان الواقعة على مرتفعات جبال الاداغا الجنوبية. كان اليزيديون المحليون يحرثون الارض ويرتبطون بعلاقات وثيقة مع قراهم، وبهدف حماية أنفسهم بنى الاكراد اليزيديون عددا من القلاع المحصنة كقلاع دير غيزين وغاله ـ رش وغاله سبي وآل ـ كيله وكوشكيه ـ شيخا (٨٢، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١).

وعند بداية القرن التاسع عشر أرغم الاكراد اليزيديون بالتدريج على ان يتخلوا عن مواقعهم للعشائر الرحل في جبال أباغا. ويؤكد تيلور: في إيالة سيفاس، وخاصة في قضاء ينبداغ كانت تعيش العشائر الكردية التالية:

إيبو، بالولير، سارلير، سيفولير، توروزانلي، لاشنيلير، وفي قضاء جين عشيرة جيفي، وفي قضاء كاراكول قبيلة كومبرسكي، وقضاء كورتشاي عشيرة زيريكانلي وقضاء شوشا عشيرة بوناملي وزازلار (٧٥، ص ٢١ و٢٢). أما المجموعة الثانية فهي مجموعة أكراد ديرسيم* المعروفين بـ «كيزيلباشي» (وتعني الرؤوس الحمراء)، ويختلف أكراد ديرسيم عن غيرهم بانهم يتكلمون اللغة الكردية، لكن باللهجة الظاظية الخاصة بهم.

ويذكر مؤلف مجهول الاسم عاش في أواسط القرن التاسع عشر أن عدد أكراد ديرسيم بلغ قرابة ١٤٠ مائة وأربعين ألف نسمة (٣١، ص ٧). أما اندرانيك فيؤكد أنهم كانوا في ثمانينات القرن الماضي نحو ٢٠٠ ألف في ديرسيم (١٣٢، ص ١٥٧). وحسب شهادة اندرانيك نفسه فإن أكراد (الكيزلباشين) في مناطق ديرسيم «خوت وتوجيك» كانوا زهو ١٠٠ ألف. وكان أكراد ديرسيم أيضا ينقسمون إلى قبائل ويسمون في منطقة كوزيجان الجبلية بـ باسيان، وفي توجيك بـ شيخ حسان (١٣٤، ص ١١٠ ـ ١١١). ويقسم مؤلف مجهول أكراد ديرسيم الساكنين في القرى الى خمس سلالات: ديرسيملي، بالابانلي، شاركلي، شيخ حساني، وكوريشلي. وقد سكن ديرسيم الأرمن أيضا، حيث كان للاكراد معهم علاقات صداقة، واحترموا معتقداتهم الدينية.

---

* ديرسيم يعني الباب الفضي باللغة الكردية.

آنذاك كانت ديرسيم تعبر عن مفهوم جغرافي أكثر مما هو اداري. فقد كانت أراضي ديرسيم مطوقة بروافد نهر الفرات، التي تلتقي في منطقة كابان ـ ماديك. وكانت ديرسيم تتألف من منطقتين جغرافيتين ـ جبلية وسهلية. وكان أكراد المناطق السهلية تابعين الى حد كبير للادارات التركية، ، واحتفظت ديرسيم حتى أواسط القرن التاسع عشر تقريباً باستقلالها الذاتي، فالمنحدرات الجبلية الشديدة والشعاب العميقة جعلت من هذه المناطق اماكن يصعب على القوات التركية بلوغها. وكان الأغوات يحكمون القرى الواقعة في الجبال. ويشير أحد المراقبين إلى أن «صعوبة الاتصال كانت من أحد الاسباب التي لم تسمح لأي آغا التأثير على آغا آخر» (٣١، ص ٨). ويؤكد المرجع نفسه: في منطقة كوزيجان كان الآغا شاه حسين اوغلي من عشيرة شاركلي، وزعيم عشيرة آلافير جوشاك يحظى بسمعة وشهرة واسعتين.

ان التوزيع السكاني لأهم العشائر الكردية الكبيرة يعطينا صورة عن تلك المساحة الشاسعة التي كانت تشغلها العشائر. وحافظ بعض هذه العشائر الكبيرة من شبه الرحل على التقاليد العشائرية والقوة الحربية وأثرت بشكل فعال في الحياة السياسية والاقتصادية لمنطقتها. وكانت العلاقات القبلية تزول اثناء الانتقال إلى حياة الحضر. وكانت واضحة أكثر في مناطق الامارات الكردية. بينما حافظ الاتحاد القبلي على ثباته بين اكراد المناطق الشمالية من ارمينيا الغربية.

ان وجود العلاقات العشائرية كان ضماناً للحفاظ على سيطرتهم العسكرية والاقتصادية على سكان المناطق المجاورة. وعلى الحدود الايرانية التركية كان ارتباط العشائر الكردية بالارض ضعيفا بسبب الحرب السياسية ـ الاقتصادية التي تشنها حكومات ايران وتركيا لأنها كانت تستفيد من تنقلات هذه العشائر بحثاً عن الكلأ.

* * *

الفصل الثاني

علاقات الأكراد الاجتماعية والاقتصادية في النصف الأول من القرن التاسع عشر

حافظت تركيا العثمانية في العقد الأول من القرن التاسع عشر على التقسيمات الادارية، التي قام بها السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥)، أي أن البلاد كانت منقسمة إلى ٢٦ إيالة، والايالة بدورها مقسمة إلى ١٦٣ لواء. وكان عدد الالوية يقارب ١٨٠٠ وظل هذا التقسيم ثابتاً إلى عام ١٨٣٤، وبعدها واثناء مرحلة التنظيمات أجريت أكثر من مرة اصلاحات ادارية، وفي عام ١٨٦٤ تم دمج بعض الايالات في وحدات ادارية أكبر وهي الولاية. وكان الباب العالي يطمح إلى تعزيز وتقوية المراكز التابعة، ليتسنى له ادارتها بشكل فعال. ولكن على الرغم من كل المحاولات التي بذلها الباب العالي، فقد ظل التقسيم الاداري مشروطاً برغبة الاقطاعيين إن مؤلف كتاب «الامبراطورية العثمانية»، الذي كرّس كتابه لدراسة التقسيمات الادارية لسكان تركيا، كان يرى «ان تركيا كانت ماتزال تنتمي إلى تلك الدول التي لاتملك معلومات ثابتة لا عن مساحتها ولا عن عدد سكانها. لم يدرس جغرافية شعوب تركيا وأصولها حتى الآن إلّا العلماء الاجانب فقط، أو الدبلوماسيون أو حتى الرحالة البسطاء» (٧٧ ص ١٨٠). . . . في مثل تلك الظروف كانت الاصلاحات المتكررة تسيء إلى الوضع. لكن كان من مصلحة الحكام تعديل حدود الوحدات الادارية باستمرار حسب رغباتهم. ويرى كاتب «الامبراطورية العثمانية»، أن الوحدات الادارية كانت تتغير باستمرار تغيراً جذرياً تابعاً للحاكم الجديد الذي يعينه الباشا ومدى تأثيره في الباب العالي أو في القصر» (٧٧، ص ١٨٠). . . وفي مناطق معينة كانت السلطة تتوزع بين ممثلي الحكومة المركزية ووجهاء الاقطاعيين المحليين.

إن الاعباء المضاعفة على الفلاحين الفقراء كانت قاسية للغاية في ظروف الفوضى العامة، عندما كان كل شيء يتقرر بإرادة وقوة الاقطاعيين الاكراد. ان الشكل الاقطاعي العسكري للملكية الاراضي، يعني أن منح الاراضي المزروعة لقاء الخدمات الحربية قد انتهى في نهاية القرن الثامن عشر. وتحولت الارض عملياً إلى ملكية خاصة للملاكين انصاف الاقطاعيين. وفي بداية القرن التاسع عشر تم القضاء، مدعما بالقانون، على نظام التملك الاقطاعي العسكري ووضع انتاج هذه الاراضي في أيدي ملاكين جدد. . . .

لقد عزز الامراء الاقطاعيون حقوقهم في وراثة الاراضي مستفيدين من الحقوق الاقطاعية في امتلاك قطع محددة من الأراضي منحت لهم لقاء اعترافهم بحكم السلطان. وطمحوا إلى توسيع رقعة الارض والممتلكات الاخرى في ظل الظروف الناشئة، للعيش بصورة أكثر استقلالية واستقرارا. وباتت سلطة السلطان شكلية، إذ تجلت فقط في الهدايا التي كان على الامراء الاكراد تقديمها للوجهاء في البلاط أو تقديم بعض الفصائل أحياناً للحملات التركية.

يشير ب. ي. افيريانوف، في أثناء حديثه عن سلطة تركيا وايران على الاكراد، إلى أن «الاكراد استطاعوا، مع مرور الزمن، أن يتحرروا إلى درجة كبيرة من سلطة الفرس والاتراك على الاخص. وفي بداية القرن التاسع عشر كان القسم الاساسي من كردستان يتمتع تقريباً بالاستقلال التام: وكان يقدم لحكومات تركيا وايران الاتاوات القليلة والفصائل المسلحة أحياناً بالقوة». (١٥ ص ٣).

ويشير العالم الروسي ب. ليرخ، وفي أثناء دراسته لتاريخ الشعب الكردي وفولكلوره واثنوغرافيته، إلى وضعهم شبه المستقل عن جيرانهم في الشرق والغرب على السواء وعن الدول الاسلامية الكبيرة في الشرق في النصف الأول من القرن التاسع عشر (٤٧، ص ٢٤). . . لقد زاد من تشتت الاكراد النزاع الداخلي بين القبائل. وعملت السلطات العثمانية، مستفيدة من هذا الوضع، إلى تأجيج روح العداء بين القبائل الكردية. وبهذه الوسيلة فقط استطاع الباب العالي فرض سيطرته الشكلية على الاكراد. اما المناطق التي سيطر عليها الاقطاعيون الاكراد سيطرة مطلقة فقد كانت لها انظمتها القانونية في ادارتها ونظامها الضرائبي الخاص بها، بخلاف المناطق التي كانت السلطات التركية ماتزال قوية فيها. وكانت كل منطقة، تبعاً لنزوات حاكمها، تملك قوانينها وانظمتها الخاصة. ولذلك لابد، في اثناء دراسة

للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية في مناطق تركيا الشرقية من النظر إلى كل منطقة على حدة وفي فترة زمنية محددة.

عند التعرف الأولي على اقتصاد المناطق الشرقية في تركيا تظهر للعيان ميزات خاصة هي غياب القيادة السليمة للعمليات الاقتصادية. . ففي المرحلة التي تهمنا كانت الفوضى الشاملة تسود تلك المناطق وكذلك تفسخ الجهاز الاداري الخاضع لارادة الاقطاعيين المحليين والموظفين واستبدادهم. كان الاقطاعيون يبدلون قوانين الحكومية المركزية ويطبقونها بما يتلاءم مع توسيع سلطتهم وتعزيزها. وفي حالات أخرى كانوا يبدلونها بقوانينهم وأنظمة ادارتهم الخاصة. وقد كتب ي. ن. بيريزين: «في الماضي، أي في ثلاثينات القرن التاسع عشر كان الملاكون الاقطاعيون يحكمون آسيا الصغرى حيث كانوا يتصرفون في مناطقهم باستقلالية وحرية» (٢١ ص ٣٩٧). وتشهد يوميات سفر كل الرحالة الاوربيين وملاحظاتهم على بداية زوال الامبراطورية العثمانية. ففي ديرسيم مثلاً والمناطق المتاخمة لها أحصى ا. أوبيتشتي آلاف القرى التي خرجت من سيطرة الباب العالي. وكان العديد من (البكوات) يقودون قوات مسلحة خاصة بهم «دون أن يعيروا فرمانات السلطان أي اهتمام» (٧٨ ص ٧١). وامتنع هؤلاء عن دفع الضرائب لحكومة السلطان. غير أن البكوات كانوا يجمون الضرائب بانتظام من السكان القاطنين في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم، ويحتفظون بها لانفسهم. وعن هؤلاء البكوات «ناكري جميل» الباب العالي كتب خورشيد افندي قائلاً: «لقد اعتادوا أخيراً على اعتبار القرى الواقعة تحت سيطرتهم من ممتلكاتهم الشخصية وتوارثوها أبا عن جد مثل بقية الاراضي والممتلكات» (٨٢، ص ٢١٠)...

وفي بداية القرن التاسع عشر بات واضحاً تحول زعيم العشيرة الكردية الى اقطاعي يملك أراضي خاصةً به السبب الذي أدى إلى انتقال العشائر الكردية شبه الرحل من تربية المواشي إلى ممارسة الزراعة. وتطورت هذه العملية خاصة في الثلاثينات، عندما تم القضاء نهائيا على الممتلكات الاقطاعية العسكرية. وظهر بدلا من الاقطاعي العسكري مالك الارض المنتزعة من الفلاحين أومن الملاكين والاقطاعيين الصغار. إن هذا التغيير لم يمس أبداً شكل نظام استثمار الاقطاعيين للفلاحين بل، واكثر من ذلك، ثبت، قانوناً، أشكال امتلاك الاراضي السابقة....

بعد الاصلاحات المعروفة باسم «تنظيمات» المتخذة في اواسط القرن التاسع عشر اتجهت السلطات التركية إلى تنظيم استملاك الاراضي باشكال قانونية: ملك (الامتلاك الشخصي للأرض). ميري - (املاك الدولة). وقف - (الاراضي التابعة للمؤسسات الدينية). متروكة - (أراضي الاستثمار الجماعي). موات (أراضي خالية).*

وكان السلطان التركي يُعتبر حسب الشريعة الدينية، المالك الأول لكل الأراضي. ولذلك كان لابد من سيادة قانون الامتلاك الاميري (الاراضي الحكومية)، حيث لاتباع الارض ولايمكن التصرف بها حتى كهدايا. أما الاراضي التي استولى عليها الموظفون أو زعماء الاكراد الاقطاعيين فقد استمرت كملكية خاصة وتمتع العديد من الاقطاعيين الاكراد بحق التملك وبصفة قانونية، متعهدين للسلطان بتقديم الفصائل المسلحة له عند الطلب. وينوه خورشيد أفندي بهذا الصدد، أن عدداً من قرى زاهو وكير يند مُنحت للبكوات الاكراد كملكية متوارثة. «أعطيت هذه القرى للبكوات الاكراد أمثال سليمان بيك وغيره ليستثمروها مدى الحياة بصفة (الملكية). شريطة أن يقدم هؤلاء، البكوات أثناء حملة البصرة مع عشيرتي ليكسيك وكيلخورسيك، ٥٠ خيالا ليحاربوا تحت قيادة الوزير العظيم والقائد العام للقوات العثمانية» (٨٢، ص ١٣٩).

ازداد في المرحلة، التي نبحث فيها، الشكل القانوني الآخر (الوقف) فلقد اعطى رجال الدين هذه الاراضي بالاجرة وانتقلوا إلى المدينة لتشغيل هذه الأموال بروؤس أموال ثابتة (بيوت - فنادق.. الخ). وتحولوا الى مستغلين في المدينة، وفي الوقت نفسه ازدادت مواردهم من القرية، ولم تختلف هذه الفئة عن الاقطاعيين المدنيين بوسائل استثمار الفلاحين. اضافة إلى أنه كان بوسعها في كل لحظة استغلال جهل الفلاحين ومشاعرهم الدينية. وبالمقارنة مع الملكيات الاقطاعية كانت أراضي الوقف تشغل مساحة شاسعة من الاراضي. في ناحية خالص (إيالة بغداد). كان

---

* قبل الاصلاحات التي جرت في الثلاثينات من القرن الماضي كانت ثمة صفة قانونية أخرى لامتلاك الاراضي هي: تيماوي وزيامي: أي تلك الاراضي التي كان يمنحها السلطان للاشخاص لقاء خدماتهم العسكرية، إلا أنها تحولت في القرن التاسع عشر إلى ملكية خاصة بالوراثة.

هناك ثلاثة أشكال للملكية الارض - (املاك دولة) ووقف، وملك. اما الدخل الاجمالي لمجموعة سكان قرى خالص فلم يكن يتعدى ٦٣٠,٠٠٠ قرش (٨٢، ص ١٥٤). في حين أن دخل الاوقاف (مؤسسة امتلاك أراضي الوقف) فقط فقد كان ٨٠,٠٠٠ ألف قرش وكانت مؤسسة الاوقاف تأخذ تقريباً ٤/٣ ايرادات الاراضي الموهوبة للجوامع. أما الربع الباقي فكان يعطى لصاحب الارض. (٨٢، ص ١٥٥).

لم يتوقف طموح رجال الدين إلى الثروة، على أراضي الوقف بل راحوا يوسعون سلطتهم على مساحات واسعة من أراضي الملكيات الخاصة، ومارسوا مختلف أنواع الحيل والدهاء واستغلال المشاعر وحاجة المالكين الصغار، الذين كانوا عاجزين عن تجنب سيطرة الاقطاعيين الكبار، وبذلك ارغموا على الاحتماء بسلطتهم. ومن الممارسات الاخرى اتفاق الشخصيات اصحاب الممتلكات الخاصة مع رجال الدين على منحهم أراضي الوقف لأهداف خيرية، غير أن رجال الدين كانوا يؤجرون هذه الاراضي لاصحابها أنفسهم بعشر قيمتها، وفي حال وفاة المستأجر كانت الارض تصبح ملكية رجال الدين (٧٧، ص ٢٥١). وكان يمكن شراء حق الايجار بأسعار زهيدة من رجال الدين أنفسهم. كانت هذه العملية مربحة جداً لرجال الدين وأيضا للاشخاص المتبرعين، فرجل الدين يحصل على دخل جديد، والمتبرع يتحرر من الضرائب والواجبات التي يقدمها للسلطان. وازدادت أشكال السيطرة حتى باتت تشكل خطراً حقيقياً، حينها ارغم السلطان محمود الثاني على أن يعير الموضوع اهتماماً خاصاً وان يصادر تلك الاراضي ويحولها إلى املاك دولة. ولكن تأثير رجال الدين كان كبيراً جداً بحيث أعاد السلطان النظر في الموضوع فيما بعد وشكل (مراقبة أوقاف وزيري) ليتم مراقبة اراضي الوقف بوساطة موظفي الحكومة. إلا أن هذه التدابير لم تسفر عن نتائج ملموسة.

وعزم السلطان محمود الثاني على القيام باصلاحات في محاولات اوسع ولكنه لم يتمكن من تحقيق اصلاحاته في المرحلة التي حكمها، وقد حققها ابنه عبد المجيد بعد مماته بإصداره فرمانا سلطانيا.

دخلت هذه الوثيقة «الفرمان» في التاريخ تحت اسم «خط - شريف» (٣ تشرين ثاني ١٨٣٩) حيث ورد فيها واضحاً، من خلال الاسطر الأولى، أسباب وضرورة نشر هذا الاصلاح ومن بين ماجاء فيها: «في المائة والخمسين سنة الأخيرة وتحت تأثير أسباب وظروف مختلفة راح الناس يخالفون القوانين المقدسة ومايصدر عنها من قواعد،

وتحولت القوة والثراء إلى ضعف وعوز، لأن الدولة تفقد صلابتها عندما تكف عن التمسك بالقوانين». (٧٩، ص ٢٠٣).

يهدف المرسوم الصادر عن السلطان إلى تقوية الدولة ويتطلع إلى التغيير الجذري للمؤسسات الادارية والاهلية. وكانت المبادىء الاساسية لهذا الاصلاح تتألف من النقاط التالية:

١ ـ التأمين على حياة الرعايا ومعيشتهم وممتلكاتهم.

٢ ـ الطريق الصحيح لدفع الضرائب وتوزيعها.

٣ ـ الاختيار الصحيح للجنود وتحديد مدة خدمتهم.

كان المبدأ الثاني من الاصلاح يعتبر حاسماً في نظام الالتزام بدفع الضرائب. إن السلطان عبد الحميد اتهم الملتزمين بالضرائب وطلب «ان يفرض في المستقبل على كل مواطن عثماني ضريبة محددة تتناسب وملكيته». (٧٩، ص ٢٠٣).

إلا أن وثيقة «الخط الشريف» المليئة بالوعود والآمال بقيت حبراً على ورق. لأنها لم تكن تملك عملياً أي قوة في أغلب المناطق. أما المناطق التي جرت فيها محاولة القيام بالاصلاحات فقد كانت الوثيقة تفسر تفسيراً ناقصاً ومشوهاً.

وقد اعترفت حكومة السلطان في مذكرة فؤاد باشا بتاريخ ١٥ أيار ١٨٦٧ أن وثيقة «خط شريف» لم تكن سوى نية طيبة ولم تنفذ عملياً والنقطة الوحيدة في الوثيقة التي نفذت هي القاضية بأن على كل سكان الامبراطورية غير المسلمين أن يتحملوا جميع الفرائض ويدفعوا الضرائب (وبدلا من الخراج فرض على السكان المسيحيين لقاء إعفائهم من الخدمة العسكرية ـ ضرائب جديدة تسمى «بدل»).

على أثر هذه المرحلة ساد الاستبداد في البلاد وغاب الأمن والاستقرار وحماية أرواح السكان وممتلكاتهم وأعراضهم. أشار الدبلوماسيون الأوروبيون والمراقبون والرحالة الذين زاروا الامبراطورية العثمانية بعد اقرار وثيقة «خط ـ شريف» إلى غياب حقوق المواطنين في المناطق الشرقية من تركيا. وينوه ا. د. نوفيتسوف إلى أن كل الوعود الرسمية ظلت بحق حبراً على ورق، والدليل على ذلك حقيقة بسيطة هي انه بعد مضي ١٧ سنة على وضع القانون الأول أعيدت صياغة هذا القانون من جديد تحت اسم «خط ـ ي همايون» وجاء فيه أن الحقوق الموعود بها عام ١٨٣٩ «تترسخ وتتعزز» (٦٣، ص ٣٤).

لقد اعاقت العلاقات الاقطاعية في تركيا التطور الاقتصادي للبلاد. وأضيف إلى ذلك، في أواسط القرن التاسع عشر، نير الدول الرأسمالية التي كانت مهتمة جداً بضعف الاقتصاد التركي وتأخره.

وكانت المساحات الصغيرة من الارض هي الشكل السائد للملكية الاقطاعية في تركيا. ويلاحظ في النصف الأول من القرن التاسع عشر بروز اتجاه تعزيز ملكية الارض. إن زيادة الاراضي المزروعة كانت تجري على حساب توسيع الاقطاعات وتوريثها وشراء أراضي الدولة واضطهاد الشعوب المجاورة غير الاسلامية وترحيلها واستغلال الضعفاء وصغار الملاكين بالقوة. إلا أن المساحات الزراعية الواسعة تجزأت من جديد إلى ملكيات صغيرة واستثمرت بوسائل اقطاعية غارقة في التخلف. ومن أجل استثمار الارض لم يستخدموا العمل المأجور، وإنما جلبوا الفلاحين المحرومين من الارض وأصحاب الملكيات الصغيرة مع معداتهم بشروط الايجار العبودي وشبه الاقطاعي. ولوجود قطاع واسع من الفلاحين المحرومين من كل ملكية، فإن نظام المحاصصة كان الشكل الاكثر انتشاراً والافضل لاستغلال جماهير الفلاحين الواسعة.

وبهذه الطريقة في الاستغلال كان هناك فريقان: الاقطاعي مالك الارض والمستأجر الذي كان يعمل في الارض، اما العلاقة القانونية بينهما فكانت تتحدد تبعاً لحصة المساهمة في زراعة الأرض. يقول ماركس: «ان الفريق الذي يستخدم عمله أو عمل غيره، يطمح إلى كمية معينة من الانتاج، ليس لأنه عامل، بل لأنه مالك لقسم من وسائل العمل أي رأسمالي من أجل ذاته، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن مالك الاراضي يطمح إلى حصته، ليس فقط بحكم امتلاك الأرض، بل كشخص سلّف رأس مال». (١، ص ٣٦٧). وقد أطلق لينين على هذا الشكل من استثمار الارض بالشكل «الصيني القديم» أو «التركي» حيث يرغم الاقطاعي الفلاح «كما كان قبل مائة بل ثلاثمائة وحتى خمسمائة عام مضى ـ أن يستخدم أحصنته ومعداته في حراثة أرض الاقطاعي» (٤، ص ٢٧٥).

كان نظام استثمار الاراضي في تركيا يجري بطرق مختلفة، غير أن نظام الاستثمار بالمحاصصة كان هو الشكل السائد. إذ كان يتم توزيع المحصول على خمس حصص: المالك ـ الماء ـ البذار ـ حيوانات العمل ـ قوة العمل ـ وكان هذا النظام هو

الشكل الاساسي لاستثمار الارض من قبل الفلاحين. فقد كان هذا الشكل يسود في أراضي الاقطاعيين واملاك الدولة والوقف والمتروكة. وضمن هذه الظروف كانت المساحات الواسعة تقسم إلى أجزاء صغيرة ويتم تأجيرها على دفعات عديدة، وكانت الدولة وملاكو الاراضي يؤجرون هذه الاراضي بموجب نظام الضرائب، وكان المستأجرون، يقسمون الارض بدورهم ويعطونها لمستأجرين آخرين. ومع ازدياد عدد المستأجرين كان وضع الفلاحين يسير نحو الأسوأ ويتضاءل نصيب العاملين في الارض. وكان جشع المؤجرين فظيعاً إلى درجة انهم رفضوا أكثر من مرة أن يدفعوا للحكومة. ويشير ي. ن. بيرزين: «أن هؤلاء المؤجرين كانوا يثرون بشكل عجيب، ينهبون ويظلمون ويستبدون بالشعب في الوقت الذي تفقد الدولة القسم الاكبر من دخلها» (٢١، ص ٤٠٨) لقد أثار ربح هذه الفئة الفاحش رغبة الكثيرين في امتلاك هذا الحق، مما أدى إلى الصراع الواضح بينهم. في حين كان العاملون على تأجير الاراضي الحكومية من العملاء المتمرسين بالرشاوي والفساد، ولم يكونوا أهلا للثقة التي منحتهم اياها الحكومة العثمانية، ان اعباء الاستئجار وانخفاض انتاجية العمل كانتا متشابهتين في الملكيات الخاصة وفي املاك الدولة والاوقاف. وفي كل الاحوال كان الموظفون من مختلف الرتب يأخذون قسما من المحصول. ويصور خورشيد افندي تقسيم المحصول من فدان واحد في منطقة خانقين وبشيء من التفصيل على الشكل التالي: «عندما يصبح المحصول جاهزاً وبعد اقتطاع قسم البذار يوزع على الشكل التالي: يعطي للحلاق وللنجار ولساقي الاراضي وباني الجسور ومراقب المياه ١٨/ تنكة من الشعير و٩ تنكات من القمح، وللمالك ٢٥/١ من القمح و١/٣٠ من الشعير والحبوب الاخرى، أما الباقي فيقسم إلى خمس حصص ثلاث منها لمالك الارض أو للدولة أو للوقف أو بشكل عام للشخصيات أو المؤسسات التي تؤجر الارض للزراعة. والحصتان الباقيتان للفلاح». (٨٢، ص ١٢٥).

كانت الظاهرة المميزة للنظام الاجتماعي الاقتصادي في كردستان هي الانتقال من نمط حياة شبه البداوة إلى حياة الزراعة، مما أدى إلى تفسخ التنظيم القبلي بالتدريج.

ويعود أسباب تفسخ التنظيم البطريركي القبلي للعشائر الكردية شبه الرحل إلى التحولات الاجتماعية والاقتصادية في بنيتها. لقد كان زعيم العشيرة المحاط بافراد عائلته يستثمر بلا رحمة باقي أفراد العشيرة، ولم يكن الزعيم ليخفي ظلمه الاجتماعي واضطهاده الاقتصادي عن أحد. وقد كتب خورشيد افندي مايلي: «كان البيك يجمع، بأساليب مختلفة، الضرائب حتى غرامة التكفير عن الذنب، وكان يرهق الناس بابتزازه. وفي حال خروج احدى العشائر عن طاعته والتمرد عليه كان يهاجمها بمساعدة عشائر أخرى، ثم يقوم بغزو العشيرة المتمردة وتهجيرها، بالاستيلاء على أموالها وممتلكاتها. . . .

وفي ظروف تدهور الاحوال المعاشية المستمر للفلاحين انخفض الانتاج الزراعي إلى درجة كبيرة وكان ذلك واضحاً حتى في مختلف الاراضي الخصبة، وتقلصت المساحات المزروعة. وقد كان للاستغلال الاقطاعي في كردستان سمات فريدة يتميز بها شعب، جمع بين نمط الحياة الحضرية وشبه البداوة والقبلية. كان الانتقال إلى حياة الحضر والزراعة عند الاكراد شبه الرحل والعاملين في تربية المواشي يتم في ظروف صعبة. وكان التعاون بين هؤلاء وثيقاً. ففي عشيرة الجافيين مثلاً في أيالة شهريزور كان كل فخذ من العشيرة يتصرف بثلاثة أماكن من الأراضي:

١ ـ مشتى في منطقة السليمانية.

٢ ـ مرابع في ممتلكات ايران في منطقة ساني.

٣ ـ قطعة من الارض في سهول شهريزور بين الأولى والثانية لاستخدامها اثناء الانتقال.

وفي بداية نوروز، اثناء التوجه إلى المراعي، كان الجافيون يتوقفون في تلك القطعة مدة شهر تقريباً لزراعة الأرض، ومن ثم كانوا يتابعون سيرهم. وفي أواخر الخريف، أثناء العودة، كانوا يتوقفون ثانية بغية جمع المحصول. وقد استقر الجافيون أخيراً في تلك الأرض في ثلاثينات واربعينات القرن التاسع عشر.

وعموماً، مارس الاكراد الزراعة وتربية الماشية معاً. كانوا، في حال وجود الاراضي البور، يتحررون من الضرائب. غير أن تلك الاراضي كانت قليلة جداً، مما يرتب عليهم الاستئجار وتحمل الضرائب والواجبات. أما السلطات الايرانية فقد كانت تهتم بالأراضي التي يسكنها الجافيون من أكراد تركيا. وكانت تسمح لهم باستثمار

الاراضي دون أية قيود أو فروض. وكانت امتيازات أكراد تركيا واضحة في ايران إلى درجة أن السلطات الايرانية ماعادت تطلب منهم دفع المبلغ التقليدي لقاء المرابع (٨٢، ص ٢٢١). ويشير خورشيد أفندي الذي كان يتابع سياسة السلطات الايرانية إزاء تلك الامتيازات قائلاً: «على الرغم من حاجة هذه القبائل إلى مرابع من الجانب الايراني، إلا أنها كانت تطمح إلى أكثر من ذلك، لأن هذه القبائل بإمكانها أن تعثر على مرابع صيفية لمواشيها في جانبنا التركي، لكن من الصعب جداً البحث عن مراعي شتوية في الجانب الايراني». (٨٢، ص ٢٢١). ان الامتيازات التي كانت تتمتع بها بعض العشائر الكردية كانت ناشئة عن ان تركيا وايران تقومان بسياسة المراهنة على تلك العشائر صاحبة النفوذ السياسي والقوة العسكرية الكبيرة، والتي بإمكانها عند الحاجة إن تلحق الضرر بهذه الدولة أو تلك.

وكانت العشائر تستفيد من مواقعها الاستراتيجية على الحدود حيث تمتنع عن دفع أية أتاوة. فعشيرة بلباس مثلاً (حوالي ٤ آلاف خيمة) ماكانت تعترف لا بالسلطات التركية ولا بالايرانية. وكتب ي. ب. تشير يكوف عن هذه العشيرة: «كانوا يدفعون الأتاوى للفرس عندما يخطر للفرس ان يوجهوا القوات ضدهم. وكذلك كانوا يدفعون للاتراك لقاء المراعي عندما كانوا يرغمونهم على ذلك بالقوة». (٨٣، ص ٤٥٧). في حين كانت بعض العشائر الكردية الصغيرة تعيش في ظروف قاسية مثل «شيفزوري، بيرسيني، رواندوزي، صوركي، خير بكي وغيرها». لقد عاشت هذه القبائل في تركيا، ولكنها كانت ترحل الى المراعي الصيفية في ايران، وكانت، في هذه الحالة تدفع الضرائب للدولتين لقاء استخدام المراعي وغيرها.

وفي مثل هذه الظروف ظهر طموح الاكراد إلى حياة الحضر وممارسة الزراعة والاستقرار وكانت الزراعة في البداية تتطابق مع متطلبات تربية المواشي.....

وبالتدريج فقد اقتصاد الاكراد ازدواجيته، إذ أزاحت الزراعة الرعي وتربية الحيوانات، فتحول الناس إما إلى مالكي أراضٍ وإما إلى فلاحين محرومين من الأرض، وفي الوقت ذاته كانت حراثة الارض تمنع الاكراد من امكانية الصعود إلى المراعي وذلك بسبب حاجة القرى إلى الايدي العاملة. على أن ضعف الانتاج الزراعي ارغم العائلات الكردية على التعاون في العمل الزراعي والاستعانة برعاة المواشي طيلة الصيف.

وكنتيجة لهذا الانتقال فقد ظهر تنظيم «OBA» والذي يُقيّم من قبل العلماء السوفييت على أنه بداية للوسائل الرأسمالية للانتاج (٨٤، ٢٦)، وسنشير إلى أنه لو كان هذا التنظيم موجوداً عند الاكراد منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر كما يشهد غ. دروفيل (انظر، ٣٧) فمن الممكن الموافقة على رأي العلماء السوفييت بحيث يمكن لهذا التنظيم أن يظهر كنتيجة لتطور العلاقات الرأسمالية (وحتى العلاقات الضعيفة منها). إلا أنه وجد قبل ذلك بكثير، أي أنه عموماً رافق مرحلة الانتقال من الرعي إلى الزراعة، وفي مرحلة متأخرة من القرون الوسطى. . . .

وفي مرحلة ظهور العلاقات الرأسمالية في الشرق سرعان ماتكيف هذا التنظيم مع الظروف الجديدة، حينها اكتسبت البنية الاقتصادية صفة جديدة في تنظيم «OBA» وتجلت في الايجار، ان العلاقات السلعية سرّعت بدورها هذه العملية، وباتت الارستقراطية القبلية تعمل كمالكة للارض مهمتها تحويل الانتاج الحاصل من الايجارات إلى بضائع عن طريق السماسرة الذين لهم علاقة بالسوق.

وفي بعض المناطق الواقعة على طريق القوافل، كان يتم تبادل الانتاج من المحاصيل مع البضائع. فالقسم الاكبر من مواد البذار في منطقة بيازيد كان يقايض بواسطة التجار والمسافرين مع القوافل عبر بيازيد في تيابزون. ويؤكد م. ليخوتين أن الدراهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن قد استخدمت بشكل واسع، وانحسر تواجد أصحاب الأموال الكثيرة. أما صناعات حرفيي المنطقة من الفرو واللباد والاجواخ السميكة والاجبان والتبغ والاواني الفخارية والاطباق فكانت تذهب فقط للاسواق المحلية (٤٩، ص ٤٠٩).

ومع زيادة نشاط الدول الغربية السياسي وخاصة انكلترا، يلاحظ حيوية التغلغل التجاري والمالي في تركيا. . . «منذ بداية الثلاثينات والاربعينات اصبحت تركيا، التي كانت تعتمد في اقتصادها على الخامات الطبيعية تدور في فلك الرأسمال التجاري الغربي في البداية ثم في الرأسمال الصناعي» (٦٩، ص ٥).

واعتمدت تجارة تركيا في البداية على توريد المواد الزراعية والصناعات المحلية، وفي أواسط القرن التاسع عشر ومع التطور المتسارع للصناعة الانكليزية وبحثها عن أسواق التصريف، أصبحت انكلترا تهتم بالدرجة الأولى بتركيا كبلد مستورد أساسي للمواد الصناعية. وقد كتب ل. رايمان بهذا الصدد مايلي: «ان اوروبا تفكر حالياً

باستغلال قوتها وتطورها العلمي، بل حتى واخلاقياتها لتؤثر على سير الاحداث في آسيا. إنها تحيط الامبراطورية التركية باهتمام عظيم، منقبة في جسمها الكبير عن أي شيء بوسعه اعطاء الامل للتغلب على الموت» (٧٠، ص٧٠).

منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر كانت تركيا تستورد المواد الصناعية الانكليزية الى شرق تركيا عن طريق مرفأ ترابزون على البحر الاسود وعن طريق موانيء البحر الابيض المتوسط في سورية واصبحت ترابزون مركزاً لنزاعات حادة بين مصالح انكلترا وروسيا. إذ يعتبر هذا المرفأ ذا أهمية اقتصادية هائلة للانكليز، كحلقة وصل للعلاقات التجارية مع الهند. وقد انتبه كل من ماركس وانجلس في مقالاتهما المكرسة للمسألة الشرقية إلى نقاط الخلاف هذه وقد كتب انجلس: «تعتبر القسطنطينيةُ ترابزون في تركيا الآسيوية مركزاً اساسياً للقوافل التجارية من داخل آسيا ومن سهول دجلة والفرات ومن بلاد فارس وتركستان (٢، ص ١٢).

لقد ازاحت انكلترا روسيا عن المنافسة على سوق الشرق الاوسط وتدفقت البضائع الصناعية الانكليزية الى تركيا وتحول العديد من مدن الاناضول الواقعة على طرق القوافل التجارية إلى مراكز مرور حيوية، وانهار سوق المصنوعات اليدوية شيئا فشيئا لأنها لم تصمد أمام منافسة البضاعة الاوروبية. فتراجعت صناعة النسيج في حلب تراجعاً كبيراً. وتوقفت انقرة، المدينة التجارية المشهورة بانتاج الاجواخ والحرير، عن الانتاج تماماً. (٦٩، ص ٦). وبالمقابل فقد ارتفعت كمية تصدير الخام الجيدة مثل الحرير والقطن. . . . الخ، وقد كتب ي. انجلفارد في نهاية القرن مايلي: «ان تركيا المحرومة من صناعتها الخاصة، كانت مرغمة على استيراد البضائع الغربية وكانت تدفع مقابلها موادها الزراعية بنقود ضئيلة فقدت قيمتها باستمرار وأثرت بالنتيجة على دخل الدولة» (٩٤، ص ٥٤). ونتيجة لذلك تضررت صناعة النسيج الكردية. وفي مقال «صناعة النسيج الكردي» الذي نشره المتحف الشرقي في فيينا سنة ١٨٧٦، يتوقف المؤلف عند وصف الصناعات النسيجية الكردية مشيراً إلى سعرها المنخفض. فالبساط الذي كانت نساء عشيرة ميللي في منطقة أورفي تحيكه بمساحة (٨ م٢) كان لايكاد يساوي ٢٤٠ قرشاً (١١٤، ص ١٢٦).

وقد أوقف طلب الاوربيين الكبير للحرير تطور صناعة النسيج المحلية التي تقلصت وتراجعت أمام الصناعة الاوربية.

لقد باتت السوق الآسيوية مصدراً هاماً لثراء التجار الاوربيين المتواطئين مع الحكام المحليين. كان الاغتناء السريع جداً هو حلم السادة الجشعين.

كانت كردستان خزاناً هائلاً للثروات وكان من الممكن استخدامها من أجل تطوير الصناعة المحلية. إلا أن الادارة السلطانية لم تعرها أي انتباه بل حولتها إلى منطقة منسية لاتملك سوى وسائل انتاج بدائية. وفي أحسن الاحوال كانت الثروات الطبيعية (الحالات التي تقع فيها المكامن على سطح الارض مباشرة ولم تتطلب استخراجها أية وسائل اضافية) تستخدم من قبل أصحاب المشاريع المحليين لتلبية حاجة السوق المحلية فقط. وفي خانقين ـ مندلي (المعروفة كواحدة من أشهر منابع النفط في الشرق الاوسط، كان النفط يطفو على سطح الأرض ويجري في النهر السطحي القريب من مدينة مندلي والمسمى آنذاك بـ (النهر النفطي).

كانت هذه الأراضي تؤجر للناس. وكان هؤلاء الناس يبيعون النفط للسكان من أجل إنارة البيوت (٨٢، ص ١٠٩).

أما منطقة بيازيد فقد كانت مشهورة بمناجم الملح الضخمة. وفي شعاب لاداغ كان الملح يستخرج بوسائل بدائية وبكميات محدودة عجزت عن تطوير الحياة الاقتصادية في المنطقة (٤٩، ص ٤٨).

يظهر من هذين المثالين، الحالة المزرية للصناعة المحلية في المناطق التي وجه الاوربيون الصناعيون وأصحاب البنوك ومختلف العملاء أنظارهم اليها.

كانت الدول الاوربية تستورد من كردستان المواد الأولية التي تفتقر إليها، كالمواد الزراعية والحرير وغيرها. وكانت تجارة كردستان تركيا مع بقية قرى الامبراطورية العثمانية تقدر بـ (١٤١٢٨١٧) روبلاً. وكانت تصدر بضائع بما قيمته (٨٩٧٢١٨) روبلاً، وتستورد منها بما قيمته (٥١٥٥٩٩) روبلاً.

كانت الموصل تعد مركزاً تجارياً هاماً حتى اربعينيات القرن التاسع عشر قبل فتح الطريق المباشر بين حلب وبغداد، وكان معظم سكانها من الحرفيين وتجار الجملة والمفرق، وكانت لهذه المدينة علاقاتها مع بقية المراكز التجارية عن طريق بغداد وبواسطة الانهار التي تصب في دجلة (٢٠، ص ١٨٤).

كان فرع الصناعات الورقية والحريرية التركية في مدينة ديار بكر ينتج كل سنة مايقدر بـ ٦٠٠ ألف روبل. وكان انتاجه يصدر إلى بغداد والموصل والقرى الشمالية

لتركيا. أما في ديار بكر فكانت صناعات «السختيان» من جلد الماعز والغنم تصدر إلى حلب وكذلك من ماردين إلى سيرت وخاربوت وارزروم وترابزون (٦٦، ص ٢٨).

وفي كردستان كانت تنتشر زراعة الـ /لزارين/ للحصول منه على الصبغ بمقدار ٣٧٥٠ بود سنوياً وكان قسم منه يصدر إلى بدليس وقارص وارزروم وأما القسم الاخر فكان يستخدم من أجل صباغة الاقمشة. وكان فرع انتاج زيت الزيتون والسمسم يعتبر فرعاً هاماً في كردستان وكان معظم هذا الزيت يذهب للتصدير (٦٦، ص ٢٦ - ٢٧).

وكانت كردستان تعتبر من أكبر الموردين للثروة الحيوانية. وكان السماسرة يتوجهون إليها كل شتاء وربيع لشراء المواشي. هذا وكان الاكراد يصدرون بأنفسهم المواشي باعداد كبيرة إلى استامبول ومصر ومناطق اخرى.

أما التجارة الداخلية في كردستان فكانت تقدر بشكل تقريبي بـ ٢,١ مليون روبل. وكانت المواد الاساسية للتجارة الداخلية هي الحبوب. الا أن الضرائب كانت تعيق نمو التداول البضائعي في المناطق الكردية. إضافة إلى أن سيادة الفوضى وغياب الامن على حياة الناس وممتلكاتهم كانا يحدان من إمكانية التجارة الحرة. ان نهب قوافل التجار أو الفلاحين الذين كانوا ينقلون بضائعهم إلى الاسواق كان غالباً مايحصل بتحريض من ممثلي السلطة الذين كانوا يملكون علاقات سرية مع قطاع الطرق.

لقد سببت الضرائب الكبيرة للحكومة فقراً مدقعاً للسكان الاكراد في مناطق حكم السلطات العثمانية. وكانت اقسى ضريبة هي: «خرجي خاني» أي ضريبة العقارات السكنية. وكان يقوم على جباية الضرائب أشخاص متمرسون يستولون على قسم من الضرائب ويحددون طرق الجباية بموجب قواعدهم المستهترة (٨٢، ص ٢٢٠). أما حكام المناطق والنواحي فكانوا يعتبرون أنفسهم المالكين الحقيقيين، حيث يحددون لانفسهم الاشكال التي يرونها لجباية الضرائب. وكانت الضريبة نفسها تتصف بأسماء مختلفة وأساليب جباية متعددة في كل منطقة. ان طريقة جباية الضرائب تعطي صورة كاملة عن عيوب موظفي الدولة والاقطاعيين المحليين والأعباء الضريبية المرهقة.

لقد تمرد شعب كردستان على هذا النير أكثر من مرة. ويشير ي. ن. بيريزن إلى مساوىء نظام الضرائب والتعسف الناجم عن جبايتها وعن انتفاضة السكان وانتقام السلطات الدموي منهم (٢١، ص ٤٠٨).

كان النضال لالغاء الاضطهاد الاجتماعي يقترن دوماً بنضال الشعب الكردي التحرري ضد السيطرة التركية. ولذلك كانت مساهمة اكراد المدن نشيطة جداً في هذا المجال. ويشهد م. ليخوتين على أن: «أغلبية سكان كردستان كانت تمارس الزراعة وأما البقية فكانت تعيش ضمن تجمعات من الرحل صغيرة وهذا ماأعطى الحكومة التركية أكثر من وسيلة لمطالبة الزراعيين بتنفيذ الفرائض السلطانية. ولذلك فإن السكان المستقرين زراعياً كانوا ينتفضون ويكافحون ضد القوات التركية أكثر من تجمعات الرحل الصغيرة» (٤٩، ص ١٥٠).

* * *

الفصل الثالث

الوضع السياسي في كردستان
في بداية القرن التاسع عشر

كان القسم الاعظم من أراضي الامبراطورية العثمانية الشرقية يخضع، من الناحية السياسية (الشكلية) لحكم السلطان. ففي كردستان، وبفضل الظروف الناشئة، قامت الامارات الكردية المتواجدة منذ مئات السنين بتعزيز مواقعها. ان اعتراف الامارات الكردية الاقطاعية بحكم السلطان كان اعترافاً شكلياً كما أن الحقوق المشروعة للحكام الاكراد في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم كانت محفوظة.

في بداية القرن التاسع عشر كانت هناك عدة إمارات قوية في كردستان: في الجنوب وضمن حدود مناطق السليمانية وزاخو كانت امارة بابان، وإلى شمالها امارة صوران، وغرب صوران كانت امارة بهدينان أو امارة العمادية (تسمى احياناً باسم عاصمتها).

وإلى شمال امارة صوران كانت البلاد الجبلية وامارة هكاري أو شامبو وإلى غرب هكاري وبهدينان كانت الامارة المعروفة من قديم الزمان بإمارة بوطان مع مركزها الجزيرة (٩٨، ص ٣ - ٤).

وينسب الايطالي غارزوني الذي عاش في كردستان حوالي ١٨ سنة، (في النصف الثاني من القرن الثامن عشر،) بدليس أيضا الى الامارات الكردية (٩٨، ص ٤).

في المناطق الاخرى، وخاصة على أراضي ارمينيا الغربية، كانت الحكومات والاقطاعات والبشاليك والدربيليك والتي كانت اعباء سلطتها المرهقة تقع على اكتاف السكان الآمنين. فكان الامراء الاكراد ومن الباشوات أو الدربيليك يؤثرون

تأثيراً سلبياً على اقتصاد تلك المناطق اذ كانوا يحكمون بقوة السلاح ويكرسون سلطتهم لتنفيذ أوامر السلطان.

ان بير اميدي جوبر الوكيل السياسي لنابليون بونابرت في الشرق الاوسط كان يعرّف السنجق أو المناطق بأنها تلك المناطق التي يلقب الحاكم فيها بلقب الباشا مثل: بيازيد، وموشي، ووان، جولاميرك، وبهدينان، والسليمانية، وقره جان. (٣٨، ص١٧٧). وكما يشير جوبر فإن امراء المناطق المذكورة كانوا ينتخبون من الاكراد وكانت سلطتهم تنتقل بالوراثة، باستثناء «وان» إذ كان الحاكم يعين من قبل السلطان، إلا أن السلطة كانت شكلية لأن العشائر الكردية كانت تعيش حياة حرة وكانت سلطة الباشا محصورة في مدينة «وان» وضواحيها فقط.

وفي بداية القرن التاسع عشر عندما عُين حسان باشا نائباً لبغداد، حدثت بعض التغيرات على الحياة السياسية لهذه المنطقة، ومن أجل تعزيز السلطة حطم حسان باشا القوات الانكشارية واخضعها لنفسه ومارس الديكتاتورية على قبائل المناطق العربية التي كانت تزدري حكم السلطان. وقد حظيت تدابير حسان باشا من أجل تقوية حكم السلطان في المناطق الجنوبية الشرقية للامبراطورية بالتأكيد الكامل في العاصمة، وقد كان الباب العالي يحتاج إلى وجود ولاية قوية في الحدود المواجهة لايران.

ومن أجل تحقيق مهمة هذه الولاية وتقويتها كان لابد من حل للمسألة الكردية وتحديد موقف الامارات الكردية من سلطة النائب البغدادي. ووضع لذلك حسان باشا مشروعاً ضم نظماً قانونية وادارية وحقوقية قديمة وارسله إلى الباب العالي للتصديق عليه. كان المشروع ينوه إلى ضرورة الحصول على موافقة السلطان على اعتبار جميع الامارات الكردية المستقلة خاضعة لنائب بغداد (١٦، ص ٣٨٧). وبالفعل تم التصديق سريعاً على طلب حسان باشا، وضم كامل جنوب كردستان مع منطقة ماردين إلى باشليك بغداد.

وإذ يصور روسو بالتفصيل باشليك بغداد في بداية القرن التاسع عشر، يشير إلى خمسة سناجق ـ قره تشان، وزاخو وسليمانية وكويسنجق، والعمادية، حيث يحمل حكامها لقب الباشا ويتم بتعيينهم من بغداد. وتجلت تبعية الحكام الاكراد لباشا بغداد، حتى بداية القرن التاسع عشر في ضرورة تقديم المساعدات العسكرية

الضرورية للباشا، وتمويل قواته بالمؤونة والعلف أثناء الحملات الحربية. وبذلك كان هؤلاء الحكام يحررون أنفسهم من بقية الضرائب الحكومية. (١١٨، ص ١٠٠).

امارة بابان

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر كانت امارة بابان الكردية تلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية لمناطق جنوب شرق الامبراطورية العثمانية وبالذات في باشليك بغداد. ان أهمية بابان الحيوية تأتي من موقعها الجغرافي فهي تقع عند ملتقى الحدود الايرانية التركية وكذلك بسبب التحولات السياسية والاجتماعية الهامة التي حدثت في باشليك بغداد في هذه المرحلة وبسبب الشهرة التي نالها أمير بابان وقوته العسكرية المنظمة. وقد كتب المؤرخ الكردي شرف خان بدليسي في نهاية القرن السادس عشر مايلي: «لقد اشتهر حكام بابان بين جميع حكام كردستان بكثرة وحداتهم المدنية وأنصارهم» (٨٥، ص ٣٣٠).

لقد ساهم امراء بابان إلى درجة كبيرة في تعزيز نفوذ حكام بغداد، إذ ضمنوا النجاح للباشا المعين في نضاله المرير للحفاظ على حق الوراثة. ومن الطبيعي أن هذه الظروف دفعت حكام بغداد إلى السعي من أجل كسب تأييد امراء بابان. ولذلك فعندما كان حكام بابان يعطون الأفضلية لشاه ايران يدعمون الاتجاه السياسي لجيرانهم الشرقيين كانت النزاعات العسكرية بين الجارتين تقع بكل تأكيد.

كانت امارة بابان موجودة حسب مصادر المؤرخين منذ أكثر من ٣٠٠ سنة، وكانت تشغل منطقة كردستان الواقعة جنوب امارة صوران، والتي تتطابق واراضي لواء السليمانية الحالي في العراق وقسماً من كردستان ايران (١٤٧، ص ٣٠٣). كانت حدود امارة بابان ـ نتيجة الحروب المستمرة بين الاقطاعيين الاكراد، والنزاعات الحربية بين القوات الايرانية والتركية غالباً ماتتصف بعدم الثبات والوضوح. وثمة معلومات طريفة عن تأسيس الامارة، تركها شرف خان ـ بدليسي. وهي أن أحد أقوى حكام بابان هو ابن عفدالي بير ـ بوداغ ـ بيك، استطاع أن يوسع ويعزز إلى درجة كبيرة سلطة البابانيين، اذ ضم إلى حدود امارته مناطق لاخيجان (التابعة لقبيلة زازا)، وسيفي وماستيبا غرد من صوران وصولدوز من الفرس وشهر باجر من امراء

اردبيلان في ايران، وفي الغرب كركوك وغيرها من المناطق التابعة لباشليك بغداد (٨٥، ص ٣٣٠).

يرى ج. ادموندس أن تاريخ منطقة السليمانية المعاصر يبدأ من بابا سليمان، من النصف الثاني للقرن السابع عشر (١٦٦٣ - ١٦٧٥) (٩٣، ص ٥٢). ويعتبر ك. ريتش ان تسمية «بابان» مصدرها من اسم بابا سليمان (١١٥، ج ١، ص ٨١ - ٩٣، ص ٥٢). ويكتب «في عام ١٦٧٨ سافر بابا سليمان إلى القسطنطينية، اما جماعته فمنذ ذلك الحين اصبحت تلقب بالبابانيين» (١١٥، جزء ١، ص ٨١) ويؤيد ريتش في هذا الرأي كذلك. ج، ادموندس (٩٣، ص ٥٢١).

إن تاريخ سلالة بابان الملكية المكتوب في «شرف نامه» وتصوير الحوادث حتى القرن السادس عشر، ينفي بحد ذاته ان يكون أصل كلمة بابان من اسم بابا سليمان. في حين ان ماكتبه ك. ريتش وج. ادمونس عن بابا سليمان يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر. وقد كتب شرف خان بدليسي أن أحدهم واسمه بير بوداع مؤسس السلالة الملكية كان يسعى بـ بير بوداع بابا أي أنه كان من بابان. وتجدر الاشارة إلى أن الرأي الخاطيء بتحديد كلمة بابان واعتبارها مستقاة من اسم مؤسس بابان نصادفه حتى اليوم في أعمال المؤلفين الاكراد في العراق. على أنه كان من الاصح البحث عن اشتقاق هذه الكلمة في التسميات الجغرافية وفي عادات الشعب الكردي السلالية. وكما يؤكد كتاب شرف نامه فقد انحدرت من عشيرة بابان، على حد قول بعض الروايات، عشائر روزاكي وهكاري (٨٥، ص ٣٣٧).

وكانت عشيرة بابان - كما يشير ك ريتش - تعيش في بداية القرن التاسع عشر، بشكل أساسي في منطقة بيسدير Pesder (١١٥، ص ٨١).

ضمّت الأراضي التي كانت تشغلها بابان إلى جانب المناطق المجاورة، منطقة شهريزور بعاصمتها القديمة قره تشولان، وانتقلت العاصمة - فيما بعد الى مدينة كركوك. في عام ١٧٨٤ قام ابراهيم باشا بابان الذي عينه سليمان باشا عام ١٧٨٣ حاكماً على سكان منطقة مالاكاند - ببناء مدينة، وتكريما لسيده سليمان باشا سمى المدينة بـ سليمانية، وقد انتقل مركز امراء بابان فيما بعد من قره تشولان إليها (١٤٧، ص ٣١٢ و١٥٣ ص ٤٢٠). وعدت السليمانية مركزاً ادارياً للمنطقة، بنيت فيها المؤسسات الاجتماعية والادارية والحمامات والمشافي والمساجد وغيرها. وبعد مرور ١٠

ـ ١٥ سنة أضحت سليمانية مدينة شرقية كبيرة. وقد كتب الارمني الانكليزي الاصل «سير وب كارنتيسي» في أثناء مروره عام ١٨١٢ في السليمانية انها تحتوي على ٤ آلاف نسمة (معظمهم أكراد). (وكانت هناك بعض البيوت الأرضية والنسطورية).

كانت بيوت المدينة طينية ذات سقوف مسطحة، على خلاف مدن القرون الوسطى، محاطة بالاسوار وخالية من البوابات. ويصور سير وب كارنتيسي باعجاب قصر حاكم السليمانية (١٣٩، ص ٩٧).

لقد باتت السليمانية ـ في النصف الأول من القرن التاسع عشر واحدة من المدن الكردية الشهيرة. وقد احتوت يوميات سفر الطبيب الارمني بارونك ـ بيك فير وخان الذي خدم في الجيش التركي على المعلومات التالية حول عدد سكان مدينة السليمانية عام ١٨٤٧: كانت المدينة تضم قرابة ٢,٥ ألف بيت و١٥ ألف نسمة منهم ١٤,٥ ألف نسمة من الاكراد. (١٤١، ص ١٢٨). وكان مركز المدينة التجاري نشيطاً جداً وقد بنوا فيه ثكنتين: كان عدد الجنود المشاة في الأولى ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف، وفي الثانية ١٠٠٠. كانت الثكنة الثانية تقع بالقرب من قصر الحاكم تضم الحراس المسلحين لامراء بابان. وقد كتب فير وخان: «كان كل بيت محاطاً بحديقة خضراء تفصله عن البيوت الاخرى وكانت المدينة فسيحة يصعب عبورها في أقل من ساعتين. وعلى الرغم من ان مياه الشرب كانت تستخرج من الآبار. إلا أن كانت عذبة وباردة وغزيرة، وسطحية اينما حفرت (١٤١، ص ١٢٦).

إن تاريخ إمارة بابان ـ وخاصة في القرن الثامن عشر، مليء بالنزاعات الداخلية والصدامات العسكرية بين باشا بغداد ونائب كرمنشاه، فبعد الاتفاقية التركية الايرانية سنة ١٦٣٩ انقسمت أراضي امارة بابان عملياً بين تركيا وإيران مما أرغم امراء بابان إلى اللجوء تارة إلى الحماية التركية واخرى إلى الحماية الايرانية، الامر الذي كان يحتم نشوب نزاعات حربية، ونتيجة للحروب الداخلية المستمرة والحملات العسكرية تعرضت امارة بابان للفقر والهجرة، وضعفت سلطة الامراء فيها، مما اعطى للموظفين الاتراك والايرانيين فرصة التدخل النشيط في شؤون الامارة الكردية وفقد الامراء والبابانيون بالنتيجة استقلاليتهم.

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر باتت سلطة باشا بغداد مطلقة الصلاحية، مما أثار غضب السلطان، وبلغت هذه السلطة ذروتها في مرحلة الباشا

بووك سليمان الذي تمكن بالحيلة والقسوة من القضاء على كل أعدائه واستطاع بواسطة الدسائس وحسن التخطيط . اضعاف سلطة الحكام الاكراد وخاصة في امارة بابان . ويشهد روسو على ذلك في بداية القرن التاسع عشر إذ يقول : «بما أن زعماء الاكراد في هذه المناطق كانوا متمردون لايعرفون الخضوع فقد لاحظ سليمان باشا أنه من الخطر ابقاء هؤلاء الاكراد في السلطة طويلاً . ولذلك كان يزيحهم باستمرار مطالباً اياهم باقربائهم كرهائن لديه» . (١١٨ ، ص ١٠١) . وغالباً ماكان امير بابان ابراهيم باشا يُرغم على ترك مقره في مدينة السليمانية والهرب إلى بغداد طالباً حماية بووك سليمان .

أما عثمان باشا ، الذي حكم الامارة بدلاً من ابراهيم باشا الملاحق فقد عقد اتفاقية سرية في عام ١٧٨٨ مع متصرف البصرة الكردي مصطفى بيك ، تنص على الهجوم المشترك ضد نائب بغداد ، واستطاعا ان يجذبا إلى جانبهما الأمير أحمد زعيم إحدى القبائل العربية (١٦ ، ص ٣٣٨) .

غير أن التحالف قد انكشف ، وهاجم بووك سليمان المتمردين على رأس جيش كبير وحطمهم عند قرية ارجي على ضفاف الفرات ، فهرب مصطفى بك إلى الكويت وعين مكانه متصرف جديد من ماردين .

وفي عام ١٧٨٩ وبعد مؤامرة فاشلة قام بها أخو عثمان باشا أصبح عبد الرحمن باشا ابن محمد باشا زعيماً لامارة بابان . وظلت الامارة حتى عام ١٨٠٣ بقيادة ابراهيم باشا نائب بغداد وعبد الرحمن باشا . ثم مات ابراهيم باشا عام ١٨٠٣ في مدينة الموصل في أثناء الحملة التي قام بها علي باشا الذي خلف بووك سليمان ، ضد أهالي سنجار من الاكراد اليزيديين (١١٥ ، جزء ١ ، ص ٣٨٤)

شارك عبد الرحمن باشا ، الذي كان يبحث عن الحماية لدى نائب بغداد ، في حملة علي باشا . وبعد انتهاء الحملة (سنة ١٨٠٤) ظهر خلاف بين نائب بغداد وعبد الرحمن باشا تطور الى مناوشات عسكرية . ويرى المؤلفون الاكراد ان سبب هذا الخلاف يعود إلى أنه في طريق العودة من الحملة ، ابدى نائب بغداد عدم رضاه عن عبد الرحمن وأهانه . حينها ترك المهان عبد الرحمن باشا مع قواته نائب بغداد (١٤٧ ، ص ٣١٣) واستغل أعداء عبد الرحمن باشا ذلك واتحدوا ضده .

وقام عبد الرحمن باشا، بعد أن عزز سلطته في السليمانية، بالقضاء على محمد باشا والي كويسنجق. ويقال أن أمير بابان اراد بذلك أن يثأر لمقتل والده من محمد باشا، الذي كان يميل إلى جانب الاتراك ويعيقه في توحيد المناطق الكردية واعلان الاستقلال. واغتاظ علي باشا من تجاسر هذا الامير الكردي فاقصاه من الامارة وعين بدلاً عنه قريبا له هو خالد باشا الوفي للاتراك الذي كان آنذاك حاكماً في اربيل (١٥٦، ١٩). فقام خالد باشا على رأس جيش كبير قدمه له علي باشا وهاجم عبد الرحمن باشا بهدف طرده من السليمانية. والتقى الجيشان على نهر زاب عند جسر النون كوبري بين كركوك واربيل. وبعد معركة عنيفة انتصر عبد الرحمن باشا (١١٥، جزء ١، ص ٣٨٤ و١٤٧، ص ٣١٣). وفي عام ١٨٠٥ قرر علي باشا القضاء النهائي على الامير العاصي فقام على رأس جيش كبير العدة والعدد بالهجوم على السليمانية، ولم يستطع عبد الرحمن باشا هذه المرة الصمود أمام الهجوم فترك المدينة برفقة ٧٠٠ خيال إلى جبل آفاغيرد إلى الغرب من مدينة كويسنجق (١٥٦، ص ٣٠).

لقي عبد الرحمن باشا الهارب من امارة بابان ومدينة السليمانية الحماية في ايران وسط اكراد قبيلة بلباس، ولكنه لايحصل منهم على مساعدات عسكرية، فتوجه إلى طهران إلى فاتح علي - شاه (١١٨، ص ١٠٤) ولم يتمكن الشاه الذي كان مشغولا بالحرب مع الروس من تقديم مساعدات عسكرية فورية للزعيم الكردي. ولكنه قدم له الرعاية والحماية. وتوجه الشاه أكثر من مرة برسائل إلى حاكم بغداد يطلب منه الصلح مع عبد الرحمن باشا وتعيينه حاكماً في السليمانية. إلا أن علي باشا رفض رفضا باتا مطالب الشاه وطلب من الشاه أن يسلمه عبد الرحمن باشا. ونتيجة لهذه الظروف توترت الاجواء على الحدود بين الدولتين. فقام باشا بغداد بالاستعداد للهجوم على ايران، وذلك بحشد قوات كبيرة على الحدود في خانقين. وأرغم فاتح باشا على اتخاذ تدابير مضادة. ولم يكن الشاه راضياً على اعمال الجنرال محافظ كرمنشاه السلبية في مجال تعبئة القوات المحلية ضد القوات التركية، فقام بتعيين ابنه محمد علي مير زا مكانه (١٦، ص ٤٠٢).

تابعت الاوساط الدبلوماسية والعسكرية الروسية باهتمام توتر العلاقات بين

تركيا وايران، وذلك لأن روسيا كانت على وشك القيام بحرب ضد تركيا (وسرعان مابدأت الحرب في كانون الأول ١٨٠٦).

وفي أثناء بدء المناوشات بين قوات نائب كرمنشاه محمد علي مير زا والزعيم الكردي عبد الرحمن باشا من جهة وقوات علي باشا حاكم بغداد من جهة أخرى لم تحقق أي من الجهتين تقدماً ملحوظاً، فقام الشاه بتعبئة قوات جديدة ضد علي باشا. . . .

وقد قام ي. ف. غودافيتش حاكم القفقاز بتاريخ ١٢ آب (اغسطس) ١٨٠٦ بابلاغ وزير خارجية روسيا ا. ي. بوديبرغ مايلي: «دخل البغدادي يوسف علي باشا معركة حقيقية مع الزعيم الكبير بابا خانوف الابن، الذي كان قد حطمه سابقاً. ويقوم الجانبان بالتحضير لعمليات قادمة.» (١٧، جزء ٣، ص ٥١٩).

كما قام علي باشا، إضافة إلى قواته، بحشد قوات من مناطق أخرى بغرض توجيه الضرب القاضية اليهم، وفي بداية آب ١٨٠٦ توجه برسالة إلى الحاكم جعفر كولي خان يبلغه فيها عن النزاع بين تركيا وايران ويعرض عليه الانضمام الى قوات السلطان. وقد جاء في الرسالة «أنه أي علي باشا ـ قد تسلم أمراً من السلطان التركي بحشد القوات ليس فقط ضد الفرس. ولذلك فقد قام على رأس جيش مؤلف من ٨٠ ألف من المشاة والخيالة في مواجهة القوات الفارسية التي تتألف من ٣٠ ثلاثين ألفاً تحت قيادة بابا خانوف بن مامد علي خان.» ويبدو أنه كان بين قادة الطرفين أمر انتهى لصالح الباشا المذكور. . . .». (١٧ جزء ٣، ص ٥٢٠).

لقد أثار قلق الباب العالي توتر العلاقات بين تركيا وايران، وكذلك خطر اندلاع الحرب بينهما، فامر السلطان بأن يتراجع علي باشا مع قواته على الفور. وحالما انسحبت القوات التركية من خانقين هاجم عبد الرحمن باشا مع فصائله المسلحة تركيا وتوجه نحو السليمانية فأرسل نائب بغداد من جديد قوات ضد الكردي الثائر، ولاحقته حتى بحيرة زيربار عند مير وان «ايران» (١٤٧، ص ٣١٤). إلا أنها لقيت هناك مقاومة عنيفة، وأرغمت فصائل والي بغداد على الهرب تحت ضرب الاهالي والقوات الكردية، تاركة في الأسر، لدى أكراد بابان، قائدها سليمان باشا (١١٥، جزء ١، ص ٣٨٤).

إن الاحداث الاخيرة وخاصة محاولات الباب العالي ايقاف العمليات الحربية ضد ايران، ارغمت علي باشا على الاعتراف بعبد الرحمن باشا الذي كان آنذاك في السليمانية وكان يمسك بيده عمليا مقاليد السلطة في الامارة، ثم أصبح وبالوراثة حاكماً لبابان.

في عام ١٨٠٨ أي بعد مضي عامين على مقتل علي باشا تم تعيين سليمان باشا الملقب بـ (كوتشوك سليمان) نائباً جديدا على بغداد بعد عودته من منفاه. إن تعيين الباشا المذكور في هذا المنصب لم يتم دون تدخل الدبلوماسية الفرنسية، اذ أن سفير نابليون بونابرت في استامبول سيباستيان استغل عطف السلطان الخاص تجاه نابليون وتجاهه شخصياً، ورشح سليمان باشا على الرغم من معارضة شخصيات تركية متنفذة. كان هذا الامر يهم نابليون جداً وذلك لأن جميع الطرق الحيوية إلى الهند تقع تحت سيطرة هذا النائب الجديد.

بعد أن أصبح سليمان باشا نائباً على بغداد قرر الانتقام من قبيلة بابان لأسرها اياه في عام ١٨٠٦ في ايران. لاسيما وان عبد الرحمن باشا كان قد عزز سلطته في السليمانية واستمر في عدائه لنائب بغداد.

وفي بداية عام ١٨٠٨ قام كوتشوك سليمان بحملة ضد عبد الرحمن باشا. اما هذا الاخير فقد حصن كل الممرات الجبلية إلى السليمانية (ديربندى باسترا، وسيفر، ديربندى بازيان) كما قام بتشييد اسوار حصينة عند ممر ديربندي بازيان منتظراً الهجوم من هناك. ووضع على قمم الجبال العالية المدافع لحماية المسافة القريبة من الممرات. وبدت التحصينات متينة بشهادة كل المعاصرين: «كانت كل هجمات سليمان باشا عديمة الجدوى». وكان من الصعوبة الاستيلاء على هذه المنطقة لولا خيانة ابن خالد باشا محمود بيك (١١٥، جزء ١، ص ٥٩). إذ أن محمود بيك، الذي كان يعرف بعض الممرات القليلة غير المحصنة، قاد فصائل الاعداء إلى هذه الممرات. وظهرت قوات نائب بغداد فجأة فوق اعالي التلال وهاجمت فصائل عبد الرحمن باشا التي تراجعت بعد أن تكبدت خسائر فادحة، إلى ايران مما حدا بالكثير من زعماء الاكراد الى التخلي عن عبد الرحمن باشا والالتجاء إلى العدو كوتشوك سليمان (١٤٧، ص ٣١٤)، وهدم كوتشوك سليمان كل الاسوار التي بناها عبد الرحمن باشا كي لايستخدمها الاكراد في المستقبل كقلاع حصينة (١١٥، جزء ١، ص ٥٩).

وبدلا من عبد الرحمن باشا عين ابن عمه سليمان باشا حاكماً على السليمانية وهو ابن ابراهيم باشا مؤسس السليمانية . لقد أراد كوتشوك سليمان بهذا التعيين أن يعمق الشقاق في قبيلة بابان . وان ينال من الهارب بتعيين خلف موثوق به . لكن لم تكن في نية عبد الرحمن باشا التخلي عن طموحاته في امارة بابان . فبعد خروج قوات حاكم بغداد من المناطق الكردية تمكن عبد الرحمن باشا من العودة بسهولة ١٨٠٩ وتثبيت سلطته في السليمانية . بعد مضي ردح من الزمن استغل كوتشوك سليمان تدهور العلاقات بين عبد الرحمن باشا والنائب الايراني حاكم كرمنشاه محمد علي مير زا، للتآمر على معاقبة الامير الكردي «الخارج عن الطاعة» وكانت النتيجة أن اتفق الطرفان (كوتشوك سليمان ومحمد مير زا) على تنظيم هجوم مشترك على بابان .

وتحت ضغط اتحاد القوات التركية الايرانية أجبر عبد الرحمن باشا على ترك السليمانية والتحصن في الشمال في كويسنجق حيث باغتته الفصائل الايرانية . وما أن حاصرت هذه الفصائل قلعة المدينة حتى تلقت أمراً من نائب كرمنشاه، برفع الحصار والعودة (١١٥، جزء ١، ص ٣٨٤) .

فاستغل عبد الرحمن باشا طموحات نائب بغداد وشكاه إلى السلطان محمود الثاني متهماً اياه بالتآمر مع الفرس والطموح إلى الاستقلال، وكان علي باشا والي بغداد السابق قد اثار حفيظة السلطان بوضعه المستقل وقوته، وبات الطموح إلى الاستقلال لدى سليمان كوتشوك جلياً أكثر من أي وقت آخر . وحسب شهادة معاصري تلك الفترة فإن كوتشوك سليمان استقبل رسل السلطان استقبال الند للند، الامر الذي اعطى الحجة لاعدائه بالشكوى والوشاية لدى السلطان . ومن الطبيعي أن اتهامات عبد الرحمن باشا لقيت آذاناً صاغية . فوصل إلى بغداد في آب ١٨١٠ ممثل محمود الثاني خالد افندي ومعه الصلاحيات المطلقة لتقصي الحقائق وتهدئة الاوضاع . وبعد وصوله الى الموصل وتأكده من صحة الاتهامات ابلغ خالد افندي كوتشوك سليمان بصدور حكم الاعدام بحقه وحاول والي بغداد تغيير القرار بالقوة . إلا أن خالد افندي توجه الى السلطات المحلية وخاصة عبد الرحمن باشا طالباً تنفيذ فرمان السلطان بالقوة، فحطمت قوات امير بابان، (تعدادها ٢٠ الف مشاة وخيال) وفصائل قوات خالد افندي، المنضمة إليها عند مدينة كركوك، قوات كوتشوك سليمان في ضواحي بغداد والحقت الهزيمة بجيشه ثم قتلته .

في فترة غياب الخلف القوى لمنصب والي بغداد ازدادت شهرة عبد الرحمن باشا وتأثيره وحسب تأكيدات بعض المؤلفين الاكراد كانت عشيرة بابان تمسك بزمام السلطة في ولاية بغداد، حتى انه طرح امام الباب العالي مسألة تعيين عبد الرحمن باشا واليا على بغداد، إلا أن خالد افندي لم يخف عدم ارتياحه لزيادة شهرة العشيرة البابانية وعبر عن عدم موافقته على ترشيح الامير الكردي (١٤٧، ص ٣١٥).

على الرغم من ذلك لعب البابانيون دوراً هاماً في انتخاب امين الصندوق السابق عبد الله باشا والياً جديدا «حيث ان عبد الله كان دائما على اتصال سري مع المتمرد عبد الرحمن البابانى، وقدم له في تلك الفترة خدمات كثيرة» (١٦، ص٤٠٩). وقد اعترف بالمقابل عبد الله باشا لعبد الرحمن باشا بالباشوية على السليمانية وقدم له مساعدات شتى، اعترافاً منه بالجميل.

في عام ١٨١٢ تم عقد سلم بوخارست الذي انهى الحرب الروسية التركية ١٨٠٦ - ١٨١٢ - أما فاتح علي فلم يكن راضيا عن اتفاقية السلام التي عقدها السلطان محمود الثاني مع دولة مازالت حالة الحرب قائمة بينها وبين ايران واعتبر اتفاقية السلام موجهة ضده.

لقد أثر توتر العلاقات الدبلوماسية بين تركيا وايران في الحياة السياسية في مناطق الحدود، فقد كانت الظروف مهيأة لتصرف حاكم كرمنشاه محمد علي مير زا، الذي كان يرى أن من واجبه الآن حل مسألة تعيين المرشح لمنصب حاكم مدينة السليمانية وبما أن العلاقات كانت جيدة بين عبد الرحمن باشا ووالي بغداد فقد رشح محمد علي مير زا خالد باشا لهذا المنصب، وعبد الرحمن باشا لحريروكويسنجق. لكن عبد الرحمن باشا الذي ضمن عون والي بغداد تصالح بسرعة مع الفرس وسوى الخلافات لصالحه، وعندما شعر عبد الرحمن باشا بالاستقلالية قليلاً قام بالسيطرة على الاراضي المجاورة له، واستولى على مدينة اربيل مع المناطق المجاورة لها. وأما في الغرب فقد وصلت حدود إمارته حتى مدينة كركوك.

إن ميل الامير الكردي تجاه الوالي الايراني وكذلك طموحه في توسيع نفوذه على مناطق كردية جديدة قد أساء إلى العلاقة بينه وبين عبد الله باشا. وسرعان ماقرر والي بغداد معاقبة عبد الرحمن باشا.

وفي بداية سنة ١٨١٣ تحطمت قوات الامير الكردي في أول صدام لها مع قوات عبد الله باشا عند «كيفري» وهرب الامير ذاته إلى كرمنشاه وبعد ان حصل على الدعم من (شاه زاد) عاد على رأس قوة كبيرة، ودخل السليمانية منتصراً ومثبتاً سلطته.

لقد خففت وفاة عبد الرحمن باشا المفاجئة من توتر الاجواء. ووفقا للتقاليد فقد ورث ابنه الاكبر محمود باشا السلطة وكان قد امضى سنوات طويلة من عمره رهينة في قصر والي كرمنشاه شاه زاد محمد علي مير زا الذي ساهم في تعيينه.

وضعفت استقلالية امارة بابان بشكل ملحوظ في ايام الابن وازداد تدخل الموظفين الايرانيين والاتراك في شؤون ادارة الامارة.

كانت الصدامات الدائمة بين قوات والي بغداد ووريث كرمنشاه غالباً ماتحصل تحت تأثير بريطانيا العظمى، وقد استغل عملاء شركة «الهند الشرقية»* هذا الوضع بسرعة لتوسيع مجال تأثيرهم. وقد حقق نجاحا خاصا في ذلك الوكيل السياسي في بغداد ك. ريتش. ولايخفي ك. ريتش في مذكراته عن رحلته في الشرق الاوسط الدور الذي لعبه في النزاع الكردي في منطقة السليمانية.

وفي سنة ١٨٢١ وبعد أن قضى نائب بغداد الجديد داوود باشا (١٨١٧ - ١٨٣١) على الوهابيين في الجنوب، توجه لمجابهة مسألة السليمانية، إلا أن ايران كانت قد استغلت في هذه الفترة ضعف اهتمام بغداد بمنطقة السليمانية لانشغالها بصراع عنيف من أجل السلطة، وأخذت المنطقة كلها تحت مراقبتها.

لقد باءت محاولات داوود باشا الاولى، بإزاحة محمود باشا وتعيين اخيه بدلا عنه، بالفشل بسبب تدخل ك. ريتش، الذي كان موجوداً اثناء الحملة ضد البابانيين عند محمود باشا. وساءت العلاقات بين شركة «الهند الشرقية» «اوست اندیسكي» وبين داوود باشا حتى ان الاخير راح يضايق التجار المحليين ذوي العلاقات التجارية مع الشركة الانجليزية، وقد أدت تدخلات ك. ريتش وتدابيره المضادة الى النزاع المسلح، حيث وضع ك. ريتش قواته على أهبة الاستعداد للقتال، وامر بانزال مراكبه الحربية في نهر دجلة لصد هجوم داوود باشا المفاجيء. أما داوود باشا فلم يغامر

---

* «الهند الشرقية» شركة انكليزية معروفة أسسها عدد من التجار البريطانيين في عام ١٦٠٠ بهدف تعزيز روابط أوربا مع الهند وجنوب شرق اسيا والصين.

باحداث صعوبات حربية، لاسيما وان ذلك كان يمكن ان يلحق به الكثير من الضرر من جهة السلطان، بل بدأ بالمساومة، إذ سمح لـ ك. ريتش وعملائه العاملين في الشركة بمغادرة البلاد (١٦، ص ٤١٥). أما تيلور، خلف ك. ريتش، فقد انتقل من البصرة الى بغداد بعد ان تعهد داوود باشا شكلياً بالاعتراف للشخصيات الانكليزية الواقعة تحت رعاية بريطانيا العظمى بكل الحقوق والافضليات المثبتة لهم بشروط الامتيازات واعادة ثمن جميع البضائع المصادرة والاموال المنهوبة لمستخدمي شركة «الهند الشرقية».

قام داوود باشا، بعد ابعاد ك. ريتش، بحملة ضد محمود باشا إلا أن قواته بقيادة وزيره مامد باشا انهزمت عند (كيزيل رابات) أمام الجيش الكردي الايراني الموحد. (١١٥، جزء ٢، ص ١٨٤).

وفي أثناء الحملة الجديدة عام ١٨٢٢ للقوات التركية بقيادة مامد باشا نفسه ضد امارة بابان، حققت هذه القوات الانتصار على الاكراد وقوات وريث كرمنشاه، واحتل الاتراك السليمانية إلا أنهم خسروا قرابة خمسمائة قتيل (١٦، ص ٢٦٨).

وظل محمود باشا اميرا على امارة بابان من عام ١٨١٢ حتى عام ١٨٣٤ وقامت منذ عام ١٨٢٨ محاولات عدة لتغيير محمود باشا وتعيين قريبه سليمان باشا باءت جميعها بالفشل إلى ان توفي محمود باشا وبدأت مرحلة حكم سليمان باشا.

* * *

امارة بهدينان

كانت امارة بهدينان تشغل الاراضي الواقعة شمال مدينة الموصل بين نهر دجلة ورافده الشمالي الزاب الكبير. ومن الناحية الادارية كانت تابعة لباشليك بغداد (١٣٤، ص ٢٤٦). كانت تحد الامارة من الغرب امارة بوطان، ومن الشمال امارة هكاري، ومن الشرق امارة صوران.

كانت مدينة العمادية هي المركز الرئيسي في الامارة، حيث مقر الحاكم بالوراثة. أما المدن الاخرى المحيطة بالعمادية فقد كانت تابعة للمركز: في الغرب مدينة زاخو

وعقرا في الجنوب الشرقي، ودهوك في الجنوب الغربي. ان طبيعة الارض والمناطق الجبلية التي يستحيل بلوغها ساعدت الى درجة كبيرة على ان يكون للاكراد حياة مستقلة في مثل تلك المناطق. (١٣٤، ص ٢٤٦).

وكانت كل القبائل التي تعيش في الامارة معروفة على انها بهدينانية. كانت اقواها عشيرتي مزدري وزيباري. وينسب شرف خان بدليسي الى بهدينان قبائل ريكان وبرواري، وماخال وسيبابراوي، وبوخلي (٨٥، ص ١١٨). وحول زاخو كانت تسكن قبيلتا سندي وسليماني. ومن بين القبائل المذكورة اعلاه، كانت قبيلة هزوري أقواها واكثرها عدداً حسب رأي ايتسفورت وانجيجيان (٨٧، ص٢٣٢).

لقد عاش في بهدينان الاكراد المسلمون واليزيديون يليهم الآشوريون، وحسب تأكيدات الذين عاصروا تلك المرحلة كان الاشوريون ايضا ينقسمون إلى عدة عشائر ولايدفعون الضرائب الحكومية، أما في العمليات الحربية فكانوا يقدمون الفصائل العسكرية للقيادة العامة للقوات التركية.

وكما يؤكد انجيجيان فإن آشوريي بهدينان كانوا يتبعون روحياً بطريركهم، وكان مقره في آل ـ كوش (٣٤، ص ٢٤٦).

لعبت زاخو دوراً هاماً في حياة امارة بهدينان السياسية لموقعها على ضفاف احد روافد دجلة. وفيها عاش إلى جانب الاكراد الآشوريون، كانت المدينة تملك جسراً حجرياً ومساجد وكنائس فقد كانت زاخو والمناطق المتاخمة لها حكومة منفصلة ولكنها فيما بعد فقدت قدرتها على الحكم بسبب النزاعات الداخلية بين الورثة. واستغل امير بهدينان ذلك وضم امارة زاخو الى مملكته (١٣٤، ص٢٤٨).

بنيت على ذرى قمم بهدينان العالية العديد من الاقلاع، كما أن عشيرة زيباري كانت تمتلك الكثير من هذه القلاع: قلعة كالاد وشوش وايمراني وبازيران وغيرها. وفي كل مدينة كانت الحماية الذاتية بوساطة هذه القلاع منها لكبار القوم ومنها لباقي السكان.

على الرغم من جغرافية الامارة الصعبة الا ان بهدينان كانت مكتظة بالسكان الاكراد، وكان نهر الزاب الكبير يقطع بهدينان من الشمال إلى الجنوب وكان مجراه يفتح شعاباً عميقة في الجبال، ولسرعة جريانه العاصف كان الاكراد يسمونه بنهر: «المياه المجنونة» (١٣٤، ص ٢٤٦).

في بداية القرن التاسع عشر كانت مدينة العمادية المركز الإداري للإمارة، وهي مدينة كبيرة نسبياً تعدادها (١٠٠٠ اسرة من الأكراد المسلمين و ٥٠ اسرة من الآشوريين وبعض الأسر الارمنية (١١٥، جزء ١ صفحة ١٥٣). كانت العمادية تقع على هضاب محاطة بمرتفعات جبلية يصعب بلوغها. ولم تكن كل اجزاء المدينة تقع على مستوى واحد من الارتفاع، فقلعة المدينة تقع على احدى المرتفعات، اما المياه فكان الأهالي يحصلون عليها من الينابيع، وكانت مياه الآبار تستخدم للغسيل والحاجيات الاخرى.

ويشير العالم الدبلوماسي الانكليزي إلى الاهمية الجغرافية لموقع مدينة العمادية كمركز لكردستان من الناحية الاستراتيجية وسماها «مفتاح كردستان» (راجع ١٠٤ جزء ١ ص ١٥٩ - ١٦٠).

ويعيد شرف خان تاريخ بناء قلعة العمادية الى زمن السلاجقة، وينسب العمادية إلى زانفي - مؤسس السلالة الملكية لأتابكة موصل وحلب وسنجار والجزيرة وحران. ويرى بدليسي أن «المدينة والقلعة تقعان على صخرة مستديرة تعلو عن الارض في بعض المناطق بـ ١٠٠ ذراع وبعضها ٥٠ - ٦٠ ذراع (٨٥، ص ١٦٨) ان كتيب جلبي يؤكد شهادة شرف خان بدليسي. ويضيف ان عماد الدين زانفي شيد هذه المدينة مع قلعة آسيب في جولافيرك ونسفها بنفسه (١٣٤، ص ٢٤٨).

كانت مدينة العمادية المحاطة ببساتين الفاكهة تحتوي على فنادق واسواق تجارية ومساجد ومدارس. وكان بناء المؤسسات التعليمية يحظى باهتمام الحكام المحليين الخاص لاسيما في مجال العلم والفن والادب (١٣٤، ص ٢٤٧).

إن سلالة حكام بهدينان، حسب معطيات المؤرخين الاكراد، ترجع إلى عهد حكم العباسيين، اذ ان مؤسس السلالة، كما تقول احدى الروايات هو من أصل عباسي، وتزعم رواية اخرى استشهد بها جد شرف خان بدليسي ان اصلهم يعود إلى المؤسس عباس الذي كان ينتمي إلى سلالة قديرة وشهيرة. (٨٥، ص ١٦٧). ويحاول العالم الكردي صديق الدملوجي مستندا على شرف نامه تحديد تاريخ ظهور امارة بهدينان فيشير إلى حادثة وصول ممثل الخلفاء العباسيين مالك قلعة تارون واسمه بهاء الدين بن شامدينان الى مدينة العمادية عام ١٢١٨ (١٤٨، ص ١٥) وارتباط تسمية هذه الامارة بالاحرف الاولى من اسمه.

وقد تعززت امارة بهدينان وبلغت اوج مجدها في عهد سقوط سلالة اكيونلو وفيها بعد اعترفت الامارة بسلطة ايران عليها مع الحفاظ على كامل استقلالها. وبعد معركة جالديران سنة ١٥١٤ ضمت الامارة الى الامبراطورية العثمانية. ولكنها ظلت مركزاً لسلطة الامارات الكردية المعترف بها، وبموجب فرمان السلطان سليم الاول والصادر عام ١٥١٥ تشكلت على الاراضي الآهلة بالسكان الاكراد ١٨ امارة وارتفع فيما بعد عدد هذه الامارات الى ٥٥ امارة. وكان احد اسباب زيادة الامارات الكردية المستقلة، حسب رأي المؤلفين الاكراد هي رغبة السلطان التركي في تشتت قوى الاكراد واثارة الفتن والعداء فيما بينهم (١٥٢، ص ١٨٧) و (١٤٨، ص ١٦).

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان امير بهدينان اسماعيل بيك (١٧٦٩ ـ ١٨٠٢) يحكم الامارة حكما مستقلا تقريبا. وكان واحدا من اقدم الامراء الاكراد، اذ كان بامكانه تقديم ٤٠ الف جند (١٣٤، ص ٢٤٧). وعلى الرغم من القوة والسلطة فإن الامير كان مرغما ـ في عهد حكمه الطويل ـ ان يضع جلّ اهتمامه في ضرب احلام اقربائه الطامحين للامارة بدلا من الاهتمام بتنظيم البلاد وتطويرها. وكان لوالي بغداد والموصل الدور الكبير في بث الشقاق بين اسماعيل بيك واخوانه حتى وصل إلى الصراع المسلح بين اسماعيل بيك من جهة واخوانه تيفور بيك وجاز خان ولطف الله بيك وقريبه بيرم بيك من جهة اخرى. وفي عام ١٧٦٨ عين والي بغداد، بموجب فرمان رسمي، بيرم بيك اميراً على بهدنيان. اما حاكم الموصل باكي جليلي فلقد تدخل مباشرة في شؤون بهدنيان الداخلية، وقدم المساعدات لاعداء اسماعيل بيك. كانت قواته تهدم القرى الكردية وتنهب سكانها. وقد قامت في وجه باكي جليلي الفصائل الكردية الموحدة لعشائر باري ومزوري وبارواري، وتحت قيادة الزعماء سيف محمود آغا وخالد بيك وانتصرت أثناء المعركة عند قرية ليغمان.

ثم احتدم الصراع من جديد عام ١٧٨٧ بين اسماعيل واخوته الذين عبثوا في مدينة زاخو واثاروا حقد السكان، وبعد مناوشات صغيرة استطاع اسماعيل بيك سجنهم في قلعة العمادية. وتشير بعض المصادر إلى أن قوات امارة بوطان حاربت اكثر من مرة الى جانب الامير البهديناني عام ١٧٧١.

قام حفيد اسماعيل بيك كوباد بانتفاضته في مدينة عقرا واعلن نفسه اميرا، غير أنه لم يصمد امام هجوم قوات اسماعيل بيك وهرب إلى السليمانية.

بعد وفاة اسماعيل بيك ١٨ شباط ١٨٠٢ استلم السلطة ابنه اصغر محمود طيار باشا إلا أن الابن الاكبر مرادخان أصر على حقوقه وارغم محمود طيار باشا على الفرار الى السليمانية وطلب المساعدة من حاكم بابان عبد الرحمن باشا. وبعد محادثات عدة احتفظ مراد خان بحق السلطة في امارة بهدينان وعين محمود طيار باشا حاكماً على عقرا، وكوبادبيك على زاخو، أما عادل بيك (ابن اسماعيل بيك) فعين على دهوك، وكان لحاكم عقرا الشاب محمود طيار باشا مواهب في الشعر فكرس حياته كلها للادب وألف اشعارا باللغتين الكردية والفارسية.

اكتسب مراد خان بفضل شجاعته وتسامحه مع الشعب والجيش شهرة كبيرة. ولكن حاكم زاخو كوباد بيك، بالاشتراك مع والي بغداد الذي كان يتتبع بحذر اخبار قوة مراد خان وسلطته وشهرته، قام بالتآمر ضد الامير الكردي. وأدت الدسائس الى أن يصدر الباب العالي فرمانا يعزل بموجبه مراد بيك ويعين بدلا عنه كوباد بيك. وعندما رفض مراد بيك استعد والي بغداد لشن حملة ضد امير بهدينان وطلب المساعدة من ابراهيم باشا بابان وحليفه الخدوم. وفعلا قام ابراهيم باشا عام ١٨٠٤ على رأس الجيش البابـاني بهجـوم ضد اكراد بهدينان. إلا أن النزاع انتهى سلمياً، وتوصلا إلى عقد اتفاق يظل بموجبه كوباد بيك حاكما على عقرا. وفي عام ١٨٠٥ تخلى مراد بيك طواعية عن حكم بهدينان لكوبادبيك (١٤٢، ص ١٦١).

لقد ادى سلوك كوباد بيك غير اللائق إلى تأليب السكان ضده وفي الوقت نفسه فإن مسألة تثبيت حق الوراثة تعود بدرجة كبيرة إلى اعتراف الشعب به أو عدم اعتراضه عليه. وقد ازدادت روح العداء تجاهه لسبب اخر هو علاقاته الوثيقة مع والي بغـداد. ففي عام ١٨٠٦ هاجم اكراد قبيلة مزوري ليلا كوباد بيك، الذي كان حينذاك في قرية بيافاو، واعتقلوه مع حليفه لطف الله بيك (١٤٨، ص ٣٧). وعين عادل بيك حاكما على بهدينان واتخذ عادل بيك، منذ الايام الاولى لحكمه، تدابير تهدف إلى تسوية العلاقات مع اقربائه المعادين له فاعتقل جاسخان، عندها قام احمد بيك وهو اخو كوباد بيك بابادة قرى عشيرة مزوري ونهبها منتقما لاخيه، ووصلت به الدناءة إلى انه هاجم مدينة العمادية على رأس قوة كبيرة وحاصرها حتى هبت عشائر برواري ومزوري وزيباري لمساعدة المدينة وفك حصارها وارغام احمد بيك على الهرب مكللاً بالعار.

استغل علي باشا والي بغداد، الذي اعترف بحق عادل بيك في حكم الامارة، الحروب الداخلية وسارع إلى ارسال المساعدات العسكرية لاحمد بيك.

جرت المعركة بين احمد بيك وعادل بيك عند جسر كوبري بالقرب من كركوك. وقد ساهم إلى جانب عادل بيك حكام الامارات الكردية المجاورة: بابان وصوران وبوطان وبقي إلى جانب احمد بيك والي الموصل بالاضافة الى والي بغداد. ولقد جلبت الحملات العسكرية والنزاعات الحربية الكثير من المصائب للشعب: فقد نُهب العديد من القرى ، واتلفت المزروعات وسلبت المواشي.

ونتيجة النزاعات الاخيرة، وازدياد سلطة حاكم الموصل، أصبحت امارة بهدينان منذ ١٨٠٦ تابعة للحاكم المذكور من الناحية الادارية، مما سهّل المراقبة المباشرة على بهدينان (٦٤٨، ص ٣٧).

وفي نهاية الأمر أرغم الباب العالي على الاعتراف بحق عادل بيك في حكم إمارة بهدينان وعاشت بهدينان مدة سنتين في حالة سلام. ثم ذهب عادل بيك ضحية الحروب الداخلية التي نشبت من جديد عام ١٨٠٨. وكان سبب النزاع الاخير هو التوتر العام في الوضع السياسي في باشليك بغداد.

وعُين مكانه عادل بيك اخوه زبير بيك حاكماً على بهدينان. وفي هذا الوقت نفسه توفي لطف الله بيك وجاسخان في السجن، في حين اطلق سراح كوباد بيك وأعيدت له منطقة زاخو. لكن زبير باشا، الحذر من كوباد بيك، طلب منه التعهد بأن يسكن في العمادية ويبقي زاخو تحت حكم ممثل عنه. وبهذا الشكل تخلص زبير باشا من خطر خصمه الوحيد.

حكم زبير باشا بهدينان حتى عام ١٨٢٥ وكان، وفق شهادات معاصريه، يتصف بالعقل والعدل والشجاعة والعنف، ولم يحصل في عهده سوى نزاع مسلح واحد مع حاكم الموصل محمد جليل عند قرية ألوكا بالقرب من دهوك. وقد وقف أمير بوطان إلى جانب زبير باشا. وحطمت قوات البهدينان والبوطان جيوش الخصم في هذه المعركة.

عاشت امارة بهدينان بعد وفاة زبير باشا مرحلة الصراعات بين الورثة من اقارب زبير وهم ميران بيك وسعيد بيك واسماعيل بيك.

واستطاع سعيد بيك استمالة اسماعيل بيك الى جانبه فأزاح بقية الزعماء. ثم تمرد عليه سعيد بيك زعيم قبيلة بارفاري ولكن النزاع حلّ سلمياً بفضل توسط مصطفى آغا عشيرة زيباري. ومنذ الايام الاولى لحكمه فرض على سعيد بيك الدخول في صراعات مع الزعماء الاكراد الذين حاربوا ضده.

ورافق مرحلة حكم سعيد بيك ازدياد قوة حاكم صوران مير محمد الذي وحّد شمل كل صوران المجزأة ورغب في ان يضم امارتي بابان وبهدينان اليها.

* * *

امارة صوران

ينحدر امراء صوران، كما يرى المؤلفون الاكراد بالاستناد إلى «شرف نامه»، من شخص اسمه كاولوس من عائلة عربية مشهورة في بغداد سكن بسبب «تقلبات الدهر» بين الاوساط الكردية بالقرب من راوندوز (١٥٣، ص ٣٩٩). وكان احد ابنائه ويدعى عيسى يتمتع بسمعة طيبة بين الاكراد، لانه كان شجاعا طيب القلب، وقد كتب عنه شرف نامه بدليسي مايلي: «كان يوزع كل مايستلمه لقاء المراعي على رعاع القرية فما كان من حشود كثيرة من الفقراء والمتشردين الا ان أبدت له الطاعة والخضوع» (٨٥، ص ٣٢٢).

ويفسر شرف خان بدليسي اصل تسمية صوران على الشكل التالي: المحاربون الذين رافقوا عيسى في اثناء معركته من أجل دخول القلعة واحتلالها كانوا في قمة صخرة حمراء لذلك سماهم المحاصرون في القلعة بالصورانيين.

يشير حسين موكرياني إلى أنه يجب البحث عن اصل اكثر قدما وأن كلمة «صور» يمكن أن تكون تسمية لعاصمة نايري «صور» التي هدمها تيغلا بالاسار. ويؤكد آخرون أن امراء صوران ينتمون إلى العشيرة الكردية راوندي التي ينتمي إليها القائد الكردي الشهير وقاهر الصليبيين صلاح الدين الايوبي (١١٩، ص ٥٢).

كانت صوران تشكل في القرون الوسطى اراضي شاسعة، وكانت من أكثر الامارات الكردية نفوذاً آنذاك.

في بداية القرن التاسع عشر انضمت الى امارة الصوران المناطق التالية:

خاوودينان، شاتان، دالاماري، سيداكان، پيراسافي خاكوري، وديان صوران، بابيشتايان، راوندوز، آكوبان، بالاكان. كانت تحد صوران من الشمال امارة هكاري وبعض الاراضي الايرانية، ومن الجنوب امارة بابان، وكانت تحدث بين صوران وبابان مناوشات دائمة حول بعض مناطق صوران الجنوبية. ومن الغرب كان يحد صوران بهدينان ومناطق اربيل.

ينسب أمين زكي، مستندا الى المصادر الانكليزية في كتابة «تاريخ الامارات الكردية» إلى الاراضي الصورانية مناطق حرير وخاليفان وراوندوز.

في القرنين السابع والثامن عشر (وحتى عام ١٧٣٠) كانت قلعة دوين مركزا للامارة، نقل بعدها الامير شكالي بيك مركز الإمارة إلى حرير لحماية صوران من الاعتداءات المتتالية لأمراء بابان وشيد ابن شكالي بيك، سليمان بيك، فوق جبال حرير قلعة حصينة انتقل إليها فيما بعد. وفي ايام حكمه وحسب تأكيدات معاصريه ازدهر العلم والادب ولقد عاش وعمل في هذه المرحلة العالم الكردي لاخا دار هافراني (١٥٣، ص ٤٠٥).

لقد امضى سليمان بيك اعوامه الاخيرة سجيناً في بغداد حيث استدرجوه بالحيلة. فحكمت صوران بدلا عنه اخته خانزاد خانم (١٤٧، ص ٢٩٧).

عام ١٧٧٨ ترك علي بيك وهو ابن سليمان بيك حرير واستقر في خاليفان (بالقرب من راوندوز) حيث شيد قلعتين منيعتين صار ـ دريا وصارا ـ شما. أما القلعة الثالثة فقد بناها عند التقاء نهري راوندوز وباليكان. وأيام حكم ابنه الاكبر اغوز بيك سنة ١٧٨٧ اصبح مركز صوران في راوندوز وفي اثناء سلطة اغوز بيك اتسعت حدود الامارة ـ كما يشير امين زكي ـ الى سايداكان وخافديان وديانا (١٥٣، ص ٤٠٥، ٤٠٦).

في نهاية القرن الثامن عشر اصبح احمد بيك ابن اغوز بيك اميرا على صوران. وفي اثناء حكمه تمرد الجنود المرتزقة فأخضعهم احمد بيك بالترغيب والترهيب. وفي سنة ١٨٠١ توفي احمد بيك فاصبح ابنه اغوز بيك اميراً من بعده. وكان اغوز بيك بشهادة معاصريه مسلما متديناً قضى اكثر اوقاته في العبادة وممارسة الطقوس الدينية ومحاطاً دائماً برجال الدين الاسلامي. اما الحاكم الفعلي فقد كان أولاده الاربعة الذين قسموا صوران فيما بينهم: مناطق خافديان وشاتان ودالاماري اصبحت تحت قيادة

تيمور خان . وسايداكان وخاكورك وبيراساني تحت قيادة يحيى بيك . اما سهول صوران وبايشتايان فتحت قيادة بياز بيك . ومناطق راوندوز وآكوبن وبالاكان تحت قيادة الابن الاكبر مصطفى بيك . أما (الابنان) (مير أحمد ومير حسين) اللذان لم يبلغا سن الرشد فكانا مع والدهما يقضيان اوقاتهما في الدراسة .

عام ١٨٠٤ توفي اغوزبيك فانتخب الابن الاكبر مصطفى بيك اميرا . ان الاحترام الذي ابداه سكان راوندوز تجاه مصطفى بيك اثار غضب اخوانه الذين رفضوا ، بعد تسلمه الامارة ، ، الانصياع له واصبحوا يحكمون امارتهم بشكل مستقل . وفي عام ١٨٠٥ قرر تيمور خان بالاتفاق مع سليمان باشا بابان حاكم كويا وحرير عزل مصطفى بيك . فتحركت قواتهما باتجاه راوندوز حينها توجه مصطفى الى اخوته يطلب المساعدة ، لكنهم لم يستجيبوا ، فوصل سليمان باشا الى نهر خاليفان عند قرية آلان .

وفي تشرين الأول سنة ١٨٠٥ تسلل مصطفى باشا سرا عبر الجبال الى سليمان بيك فاستسلم له سليمان بيك دون معركة وحاز على عطفه وصداقته . وبعد ذلك حكم مصطفى بيك امارة صوران بهدوء وسلام حتى عام ١٨١٢ ، إلى أن ساءت علاقة الصداقة بين امير بابان عبد الرحمن باشا وسليمان باشا بابان . عندها أجبر عبد الرحمن باشا الى اللجوء مؤقتاً الى ايران . استغل سليمان باشا ذلك واقتحم ثانية حدود امارة صوران . وحاصر مدينة راوندوز شهراً كاملاً غير أن الاسوار المنيعة حالت دون سقوطها . وفي آب ١٨١٢ هاجم عبد الرحمن باشا ، مرة اخرى ، باشليك بغداد ، وتوجه نحو شهريزور . وهذا ماأرغم سليمان باشا على رفع الحصار فوراً عن راوندوز والتوجه لمساعدة حليفه خالد باشا لصد هجوم عبد الرحمن باشا . والتقى سليمان باشا المنسحب في طريقه بالفصائل التي ارسلها مصطفى بيك فالحقت به هذه الفصائل خسائر فادحة . بعد هذه الفترة راح اخوا مصطفى بيك تيمور خان ويحيى بيك يمارسان الارهاب على سكان راوندوز والمناطق المجاورة لها واستمر ذلك الى ان تسلم الامارة ابن مصطفى بيك مير محمد الحازم . وقد تميزت راوندوز في عهده ، بين المناطق المتاخمة ، بأنها مركز اداري وسياسي هام .

حسب تقديرات غ . راولينسون ، فان سكان راوندوز في الثلاثينات من القرن الثامن عشر كانوا نحو ٢٠٠٠ الفي أسرة وكانت راوندوز بعيدة عن الطرق البريدية

والتجارية لذلك لم يكن لها دور اقتصادي يذكر. بيد ان راوندوز - بخلاف المدن المجاورة - كانت جيدة التحصين بفضل الشعاب العميقة التي كانت تحيط بها. وفي عام ١٨٤٧ وحسب شهادة بارونـاك بيـك فير وخـان كان فيهـا أكثر من ١٦٠٠ بيت كردي يسكنها مايربو على ٦ آلاف نسمة (١٤١، ص ١٣٤).

* * *

امارة هكاري

هكاري - هي بلاد جبلية تقع بالجنوب من بحيرة وان فوق نهر الزاب الكبير، يحدهـا من الشـمال والشـمال الغربي مناطق وان وخوشاب. وكان مقر امير هكاري في مدينة جولاميرك. في المنطقة الغربية الهضبية للمدينة كانت تقع قلعة حصينة. وكان في المـدينـة عدد من المسـاجـد والمـدارس وبعض من الابنيـة الاجتماعية الاخرى التي شيدها الأمراء الاكراد (١٣٤، ص ١٥٨).

كانت سلالة حكام هكاري منذ عهد كويونلي تسمى بـ شامبو. ان شرف خان بيدليسي، اذ يستند إلى اعمال ماولان شرف الدين علي يزيد «زافار - نامه» يؤكد ان الامـراء الاكـراد حكموا هكاري قبل تيمورلنك بوقت طويل. أما سكان هكاري فلم يعـترفـوا بالسلطـة وطـردوا امـراء دومبـولي واعـادوا حقـوقهم السابقة، وكان يوم طرد المحتلين هو السبت وتلفـظ باللغـة الكـرديـة «شـامبـا». «ولـذلـك فإنهم (أي حكام هكاري) اشتهروا تحت اسم حكام شامبو» (٨٥، ص ١٥٧).

ويعتـبر الانكليـزي ي. ي. ب صون ان مؤسس سلالة الهكاريين هو الأمير كارا - يولـوك عثـمان (محـافـظ تيمورلنك في هكاري)، استكرد أحفاده ثم حازوا على لقب الباشا وحكموا المنطقة حتى نهاية القرن التاسع عشر (٧٢ - ص ١٢).

تشهـد مصـادر القرون الوسطى الشرقية، ان السكان الاكراد في هكاري كانوا يشكلون قبيلة اتحـاديـة بشكـل أسـاسي. ويشير اينسورت إلى ان كل الامارة كانت منقسمـة إلى منـاطق صغيرة، وكانت تسمياتها تتناسب مع تسميات القبائل الساكنة فيهـا. ويحصي اينسـورت ٢٤ قبيلة في المنطقـة هي قبـائل: طياري، توبي (تخوما)،

جلاوي، الطوشي، ارطوشي ـ باشي، بازي، ساني، اورامـاري، جولامـيرغي، جولي، دييز، سيلياغي، بارفـاري، مانيس، والتو، فيفدي، غيسناك، دابراشين، بورور، يلباك، شمس الدين، شابات، براتسيوناي (انظر: ٨٧، ص ٦٤ ـ ٦٦).

ولابد من الاشارة إلى ان سكان المناطق الجبلية في هكاري لم ينقسموا الى قبائل، وهذا مايؤكد المؤلفون الاوروبيون. والحديث هنا ليس عن القبائل الكردية بل عن تجمعات معينة كانت قد عبرت الحدود الطبيعية للمناطق الجغرافية، إذ أن سكانها كانوا ينتمون إلى قوميات مختلفة، في مناطق طياري، توبي ودابراشين وغيرها مثلاً كان السكان الاساسيون من الارمن والآشوريين، وفي الوقت نفسه كانت الامارة الآشورية تحظى بشهرة سياسية كبيرة. ويؤكد شرف خان بيدليسي أنه كان لهم التأثير الحاسم على الامير اثناء تثبيت ترشيحه لحقوق الوراثة (٨٥، ص ١٥٦).

على الرغم من انه كانت تجري، في القرون الوسطى، تغيرات دائمة للحكام في الشرق إلا أن سلطة حكام الهكاريين ظلت وراثية وقد حافظ السلاطين العثمانيون على هذه التقاليد واعترفوا للامراء الهكاريين بحقوقهم الوراثية في الامارة ومنحوهم حق التملك..

وقد تعززت سلطة الامراء الهكاريين بشكل ملحوظ وتوسعت في المناطق التابعة لهم في بداية القرن التاسع عشر. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر قامت القوات التركية تحت قيادة والي وان بالاعتداء اكثر من مرة على القبائل الكردية الصغيرة في شمال هكاري، وكانت النتيجة تدمير بعض القلاع واخضاع بعض الامراء الاكراد المستقلين، واستغل امير هكاري ذلك فأخضعهم لسلطته، وفي بداية القرن التاسع عشر وقعت منطقة موكوس تحت سلطة امير هكاري، وكانت هذه المنطقة تعترف سابقاً بسلطة امراء البوطان فقط، وكان يعيش فيها الارمن والاكراد.

إن السلطة الاهلية والعسكرية ـ حسب تأكيدات انجيجيان ـ كانت في يد الملك الذي كان ينتخب دائماً من الأرمن وكان هذا الملك ينوب عن منطقته في ظل الامير الهكاري (١٣٤، ص ١٦٠ ـ ١٦١).

وكانت الحياة السياسية في الاراضي بين بحيرات وان واروميا عملياً بيد امراء هكار. وحسب بعض المعلومات كان بإمكان هكاري ان تجهز جيشاً قوياً من ٤٠ الف مقاتل. وبما أن السلطات الايرانية كان لها بعض التأثير على اكراد تركيا، فإنها رغبت

وبكل الاساليب في استمالة حكام هكاري إلى جانبها. واهتم - بشكل - خاص - بهذا الامر وريث العرش الايراني حاكم اذربيجان. وازدادت اهمية كسب تأييد القوات الكردية المسلحة، خاصة اثناء حكم شهزاد عباس مير زا، الذي كان يحارب ضد روسيا. ومن أجل تحقيق هدفه، استعمل اساليب كثيرة كالدسائس والتهديدات، واستطاع ان يجذب إلى جانبه عشيرة كردية كبيرة، كانت تعيش في الوديان وكانت هذه العشيرة تقيم تحت وصاية اسماعيل بيك مالك القلعة المنيعة - بيلام - في جبال زغروس، وكانت العشيرة تسمى باسم القلعة بيلام، وحصلت هذه العشيرة على مساعدة اسماعيل بيك للحفاظ على استقلاليتها. وقد كتب غ. دروفيل: «ولذلك فإن هذه العشيرة قد تمردت - فيما بعد - واعترفت باسماعيل بيك رئيساً لها، بشرط أن يبذل هو كل جهوده من أجل الحفاظ على استقلالها». (٣٧، ص ١٦٨). ولكي يتجنب اسماعيل بيك هجوم الهكاريين، اعترف بدوره بسلطة شهزاد عباس مير زا عليه*

تعهدت عشيرة بيلام ان تقدم الجنود لعباس مير زا في حال نشوب الحرب، وارسلت - حسب ماذكره غ. دروفيل - فصيلة من اشجع وامهر الجنود إلى عباس مير زا، وكان عددهم «١٥ ألف خيّال» مزودين بأفضل الخيول وأحسن الاسلحة وكان هؤلاء الجنود يستلمون اثناء تواجدهم خارج الوطن راتباً من الشاه الذي كان يجزل العطاء كي يستفيد من خدماتهم (٢٣٧، ص ١٦٩).

قرر حاكم هكاري معاقبة اسماعيل بيك على هذا العمل، فانتظر حتى ذهب اسماعيل بيك مع فصائله ليتحد من جديد بجيش عباس مير زا، وارسل جنوداً بقيادة ابنه باباخان لاحتلال القلعة غير المحمية - بيلام -، فقامت اخت اسماعيل بيك بجمع فصيلة من الجنود تقدر بـ ٤٠٠ فارس ودافعت عن القلعة، بل وحطمت قوات أمير هكاري.

وفي عام ١٨١٠ بعث عباس مير زا جيشاً مؤلفاً من ٢٠ الف مقاتل ضد حاكم هكاري لاخافته، أما أمير هكاري مصطفى باشا فقام بمواجهة عباس مير زا بجيش من ١٢ الف من المشاة الآشوريين وألفين من الخيالة الاكراد الذين ارغموا عباس مير زا على التراجع. غير أن عباس مير زا استطاع ان يرشي بعض العشائر الكردية

* عيّن عباس مير زا، اسماعيل بيك رئيساً للعشيرة الكردية بيلام المنقسمة من هكاري (١٥، ص ٩).

الواقعة تحت سيطرة حاكم هكاري في المناطق المتاخمة للحدود الايرانية فقدمت هذه العشائر فصائل من الجنود لمساعدته . وقد اعترف مصطفى بيك بنفسه ـ بعد مدة ـ بسلطة الشاه الايراني عليه . (٣٧ ، ص ١٦٩) .

امارة بوطان

شغلت امارة بوطان مع مركزها ـ مدينة الجزيرة ـ مكانا بارزاً في تاريخ التقاليد الثقافية والسلالية للشعب الكردي ، وكانت تقع بالقرب من امارتي بهدينان وهكاري .

ولقد اتت تسمية امارة بوطان من العشيرة الكردية العريقة بوطا ، التي ، كما يصفها شرف خان بيدليسي ، كانت تتميز بالشجاعة والاقدام ، وتشتهر باتقانها الفنون الحربية وركوب الخيل . وقد كتب شرف خان بيدليسي : «انهم كانوا يشترون دائماً الاسلحة الثمينة والمعدات القتالية والخيول العربية والسيوف المصرية والخناجر الدمشقية . كان اعضاء هذه العشيرة يثقون ببعضهم ثقة مطلقة ، وكانوا يواجهون العدو ، في أيام المعارك ، صفاً واحداً بثبات لايعرف الخضوع ، وهذا ماكان يميزهم عن بقية العشائر المشابهة لهم في كل كردستان» (٨٥ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦) .

وبالاضافة إلى عشيرة بوطا ، كانت تقع تحت سلطة امير بوطان عشائر اخرى هي : دونبولي ، فوكي ، محمودي ، شيخ تاراني ، ماساكي ، رستكي ، بيكان ، دالان ، بلاستوران ، شير وريان ، دوتوران . كانت أراضي بوطان تضم ١٤ منطقة محيطة بمدينة الجزيرة ، وكان لكل منطقة مركزها ـ قلعتها ـ وتسمى المنطقة باسم القلعة كمناطق : غورغيل ، باراكا ، أروخ ، بير وز ، بادان ، تانزا ، فيتيك ، طور ، خاتيام ، شاه ، فيش ، أتيل ، اردا موشت ، كيفار ، داير ـ ديخ .

كان يعيش إلى جانب الاكراد في بوطان عدد غير كبير من الارمن والعرب والاشوريين ، وكان المسيحيون يعيشون بشكل أساسي في منطقتي خاتيام وشاه .

كانت تحكم بوطان عائلة امير ية كردية من سلالة عزيزيان ، ويعتبر امين زكي وغيره من المؤلفين الاكراد ، استنادا إلى (شرف ـ نامه) ، إن كلمة عزيزيان ظهرت من اسم احد مؤسسي السلالة وهو الامير عبد العزيز حفيد خالد من الجزيرة

(١٥٣، ص ٣٦٥. ١٤٢، ص ١١٢). ويؤكد كامبران علي بدرخان ـ وهو واحد من أشهر ممثلي هذه الاسرة، إن كلمة «عزيز» اصلها تسمية لقرية صغيرة وهي ـ ارزيزان ـ الواقعة بالقرب من مدينة الجزيرة (١٢٦، ص ٢٤٩). وهناك اراء اخرى عن أصل هذه السلالة، احداها تقول عن الاصل العربي لها واتصالها بالاسرة الهاشمية.

ان المعلومات عن حكم سلالة عزيزيان من القرن السادس عشر إلى الثامن عشر قليلة للغاية وقد بدأ المؤرخون بالحديث عن هذه الاسرة مجدداً منذ القرن التاسع عشر، عندما استلم السلطة في الامارة بدرخان بيك، الذي ولد ـ كما يشير علاء الدين سجادي ـ عام ١٨٠٢ (١٥٠، ص ٤٥) وتسلم الوراثة في حكم بوطان في سنة ١٨٢١ (١٤٤، ص ٤٠. ١٢٦، ص ٢٤٩).

كان لمدينة الجزيرة الواقعة على نهر الدجلة أهمية اقتصادية كبيرة، اذ كانت تقع على الطريق التجاري النهري من ديار بكر إلى الموصل وكان في المدينة نحو ٢٥٠٠ بيتاً، ويشكل الاكراد الغالبية الساحقة منها بالاضافة إلى الأرمن والآشوريين (١٤١، ص ٦٢. ١٣٤، ص ٣٥٠). وكانت المدينة منظمة في بنائها، فيها المساجد والحمامات والكنائس، وكانت التجارة فيها مزدهرة والحرفة متطورة. وكان التجار المحليون يصدرون بضائعهم عبر النهر بواسطة قوارب خاصة إلى الموصل وبغداد والبصرة. وكما يؤكد انجيجيان فإن حاكم الجزيرة استفاد من موقع المدينة على طريق القوافل التجارية من بغداد إلى استنبول وفرض على التجار دفع الضرائب (١٣٤، ص ٣٥٠). وقد بني على نهر الدجلة جسر خشبي يستند إلى قوارب موثوقة إلى بعضها. وفي الربيع تغمر مياه الدجلة الأراضي المحيطة بالجزيرة فتصبح اشبه بجزيرة.

كانت تحيط بمدينة الجزيرة اسوار القلعة التي هدمت اثناء حملة رشيد باشا ضد الاكراد. وإلى الشمال من هذه القلعة كانت قلعة حجرية محاطة بجدارين متين (١٤١، ص ٦٢). وكان حاكم بوطان يختبيء في هذه القلعة أيام المخاطر.

أما الجارة الغربية لامارة بوطان فكانت القبيلة الكردية الكبيرة ميللي، التي كانت تشغل اراضي سنجق ماردين والمناطق المجاورة لها. وكان يعيش في هذه المنطقة الكثير من العرب والاتراك، الا ان الاكراد الميللين، الذين كانوا يملكون قوة

عسكرية كبيرة، كانوا يسيطرون على الوضع هناك وكان نفوذ زعيم الميللين يمتد حتى حلب وديار بكر ويعترف جيران تيمور باشا بشهرته وقوته.

كان الباب العالي مهتماً بإضعاف سلطة تيمور باشا، فقام نائب بغداد سليمان باشا سنة ١٧٩١ وبموافقة السلطان ـ على رأس حملة كبيرة ضد قبيلة ميللي، وعندما وصل سليمان باشا إلى الموصل ضم الى قواته نحو ٣٠ ألف جندي قدمهم زعماء القبائل الكردية المجاورة، الذين تعرضوا أكثر من مرة لاعتداءات تيمور باشا. وانضم إلى والي بغداد كذلك والي حلب كوسا مصطفى باشا ووالي مالاتي رشوان زاد عمر باشا.

لم يصمد تيمور باشا امام تلك القوات الكبيرة، فترك قلعته بوك وهرب الى مدينة حلب. أما اكراد قبيلة ميللي الذين تركهم زعيمهم لاستبداد القدر فقد حطمتهم قوات سليمان باشا ونفت الكثير منهم. ولم ينج كذلك من الاعدام زعماء القبائل الكردية الذين اعترفوا بسلطة تيمور باشا. ثم عين والي بغداد وابراهيم باشا ـ اخا تيمور باشا ـ زعيماً على كل الاكراد الميللين. وبعد مضي فترة من الوقت سنة ١٨٠٠ عين تيمور باشا حاكماً على الرقة وفي سنة ١٨٠٣ حاكماً على سيفاس. ثم تزعم ايوب بيك قبيلة ميللي بعد ذلك، وقد كتب عنه أمين زكي بأن: «حكمه كان عقلانياً ومستقلاً عن الامبراطورية العثمانية». (١٥٢، ص ٢٣٥). لم يكن الباب العالي راضياً عن عدم خضوع أيوب بيك، فوجه قواته ضده واعتقل أيوب بيك وسُجن في قلعة ديار بكر، فتسلم منصبه حفيد تيمور باشا تيمادي بيك.

يتضح من المواد التي ناقشناها أعلاه أن كردستان كانت في ثلاثينات القرن التاسع عشر منقسمة إلى امارات اقطاعية صغيرة، كان يجري الصراع بين حكامها من أجل السلطة وكانت منطقة منسية ذات اقتصاد هزيل جداً.

كانت سلطة حكومة السلطان على الأكراد في ذلك الوقت غير ذات أهمية. وقد ازداد في ذلك الحين تأثير السلطات البغدادية على حياة الامارات الكردية. ومن أجل تنشيط رقابتهم وتدخلهم في الشؤون الخاصة لهذه الامارات، اتبعت هذه السلطات سياسة السلطان التقليدية لتدبير الدسائس وبث الشقاق بين المطالبين بالسلطة في هذه الامارات. ونتيجة لذلك نُسِفَتْ قوى وتكاتف امارتي بابان وبهدينان القويتين سابقاً.

ولقد استغل حكام صوران وبوطان من الشباب الأقوياء النزاعات الاقطاعية الداخلية في سبيل تعزيز مواقفهم وتحقيق طموحاتهم في توحيد الامارات الكردية في امارة اقطاعية كبيرة موحدة، تلك الطموحات التي اخافت فيما بعد الحكام الأكراد المجاورين وحكومة السلطان كذلك.

وقد بدأ عملياً في ثلاثينات القرن التاسع عشر «احتلال تركي ثان لكردستان وتصفية الامارات الاقطاعية الكردية ذات الحكم الذاتي، وتثبيت سلطة تركية ادارية وعسكرية قوية في اكثرية تلك الامارات» (٤٦، ص ١٤١).

وقد استجاب السكان في كردستان، وخاصة في الامارات الكردية إلى كل الاحداث السياسية التي تؤدي إلى نسف شهرة السلطان أو تساعد على اضعاف سلطته على النطاق العالمي. ذلك ما حدث بعد الحرب الروسية التركية، واثناء وبعد النزاع المصري التركي كذلك.

الفصل الرابع

نضال مير محمد من أجل توحيد كردستان

في بداية القرن التاسع عشر كان اخوة وابناء امير صوران مصطفى بيك لا يفكرون إلا باملاكهم وانحصرت طموحاتهم في استلام السلطة فقط. وتميز مير محمد بينهم بذكائه الحاد. لقد لاحظ الأب منذ وقت مبكر مواهب الابن فعين له معلماً الملا احمد آدم من ديليزي المشهور جداً في المنطقة. وشيد في ذلك الحين، خلف اسوار راوندوز مسجداً على شرف الملا احمد آدم حيث انهى الابن تعليمه الابتدائي.

وبعد مضي سنوات عين الاب ابنه المير محمد الذي بلغ سن الرشد حاكماً على قرى دوليفران ودوليخاتاوان وصارتشيا في منطقة جولاميرك. كان يصعب على مصطفى بيك في شيخوخته ان يدير أمور راوندوز وارغمته النزاعات الداخلية بين ابنائه واقربائه أن يفكر بخلف قدير. فاستدعى مصطفى بيك في عام ١٨١٣ ابنه مير محمد وعينه اميراً.

بعد انتقال الحكم في صوران إلى يد مير محمد الملقب بـ «ميري كور» (الامير الاعور) وهو انسان فذ نشيط وحازم، ازدادت اهمية مدينة راوندوز السياسية.

ومن الممكن تقسيم نشاط مير محمد إلى مرحلتين: الأولى وهي سنوات النضال من أجل السلطة والحروب الداخلية. الثانية وهي مرحلة تعزيز سلطته وتوسيعها، ونضاله من أجل توحيد الأراضي الكردية. وسرعان ما ظهر النزاع بين مير محمد ومصطفى بك. إذ ان مصطفى بيك حين عين ابنه اميراً، لم يكن يرغب ان يتخلى كلياً عن السلطة، لذلك وضع مير محمد ثلاثة شروط امام والده اولها: ان لا يتدخل بتاتاً في شؤون الحكم ثانيها: ان يترك مدينة راوندوز ويقيم في قرية اوكان. ثالثها ان يدفع لابنه مرتباً شهرياً قدره ٩٠ ألف ريال.

أما مصطفى بيك فلم يوافق على شروط ابنه واخذ السلطة من جديد. هذا اضافة إلى البداية الحاسمة لنشاط مير محمد من أجل توحيد القرى الاقطاعية في الامارة اثار قلق الاقارب وعدم رضاهم. (١٤٥، ص ٣٠).

ولكن بعد مرور سنة أرغم مصطفى بيك من جديد على أن يستدعي مير محمد ويوافق على شروطه السابقة الذكر، ولتثبيت سلطته كان على مير محمد ان يخوض صراعاً عنيفاً ضد اخوته، كان لا بد له من تكوين جيش قوي، وتوجهت خطواته الأولى إلى تحصين مقره في راوندوز، إذ ان اسوار المدينة شبه المدمرة ما كانت لتحميها من هجوم الأعداء، وراح الامير يبني قلعته في شمال المدينة سميت فيما بعد «نايج ـ ك له» كان للقلعة بوابتان تطلان على الجنوب وفي هذا المكان بالذات حشد مير محمد قواته واقام مخزن الأسلحة، وفي الوقت نفسه نظم فصيلاً مسلحاً قوياً ضم في البداية الفي جندي من المشاة والفاً من الخيالة. وكان يدفع مرتبات شهرية للجنود ولم يكن الامير ليأسف على الدراهم التي ادخرها والده فاشترى سلاحاً بـ ٣ ـ ٤ آلاف ريال. ولكي يحمي راوندوز من الهجوم المعادي شيد مير محمد حول المدنية سوراً منيفاً جديداً بثلاث بوابات محصنة من الجانبين ببرجين تمركزت فيهما حامية البوابات. كما اتخذ بعض التدابير الدفاعية في نفس المدينة واهم هذه التدابير بناء قناة كانت تقطع المدينة من اولها إلى نهايتها. وقد حافظ الامير على صلاته في الأراضي المجاورة للمدينة وذلك بان اقام وعلى مسافات معينة مراكز لحماية الأمن ومقاومة انواع النهب كافة. وقد احصى اوكايا، مؤرخ مير محمد في كتابه «ماليحا» التدابير الأولية التي اتخذها الأمير في مجال الاهتمام بالمناطق الخاضعة لسيطرته واشار إلى أنه كان يعامل الشعراء والنحاتين والعلماء باحترام كبير ويقدم لهم الدعم والمساعدة.

وبدأ الديوان، كسلطة ادارية، يعمل في راوندوز إذ كان يقوم بمهام السلطات المحلية. وقد كتب أحد المؤرخين: «كانت جميع ابواب الديوان مفتوحة امام المراجعين وكان يستمع إلى مطالبهم وشكاويهم» (١٤٥، ص ٣٢) ويقال ان مير محمد منع الصلاة المشتركة للنساء والرجال في المساجد وكذلك الرقص المشترك في فرق الدبكة، وكان من الممكن لاصلاحات مير محمد الاولية ان تستمر لولا خلافاته مع اخوته واعمامه، الخلافات التي اتخذت منحى خطراً وحرك نوايا مير محمد البعيدة جدياً

الحساد والطامعون في الوراثة، إذ ان تقوية سلطته كانت من الممكن ان تكون عائقاً قوياً أمام طموحهم في تعزيز سلطتهم على ممتلكاتهم.

ومن بين خصوم مير محمد تميز واضحاً عمه تيمورخان. لقد اقام تيمور خان علاقة وثيقة مع امين خزينة مير محمد عبد الله آغا (كان قد تعين اميناً للخزينة منذ عهد مصطفى بك). فأنذر مير محمد امين الخزينة بوجوب قطع علاقاته السرية مع عمه غير انه لم يأبه بكلامه فأصدر حينها مير محمد قراراً باعدام عبد الله آغا أمام الشعب. لقد اراد الامير من وراء هذا الاعدام ارهاب كل من تسول له نفسه بالتطاول على سلطته. غير ان الاعدام اثار الاعداء أكثر. وبدأ عهد الحروب الداخلية.

قاد مير محمد مع قواته نضالاً عنيفاً ضد اقربائه الذين لم يعترفوا بسلطته. وفي عام ١٨١٥ وصل مير محمد إلى قرية خاودبيان، معقل تيمور خان، وتمركز مع قواته بين خاودبيان وقرية بالاكان واقترح على تيمور خان الاستسلام. لم يكن تيمور خان واثقاً من امانة السكان فانتقل مع فصائله إلى قلعة شتين وقرر المقاومة. وباءت كل الحملات على القلعة المنيعة بالفشل، ولم تستسلم إلا بعد تفجير اسوارها في ٢٨ حزيران ١٨١٥. وعين محمود آغا مسؤولا عن القلعة وهو احد اقرباء الأمير. بعد ان انتصر مير محمد على تيمور خان وجه قواته إلى عمه الآخر يحيى بيك الذي رفض مع حاكم قرية روست الاعتراف بسلطة الأمير. كان الخصم قد جهز نفسه جيداً لصد الهجوم. وبعد الهجوم الثالث الفاشل على القرية المحصنة روست، وبعد ان تكبدت قوات الأمير خسائر فادحة ارغمت على التراجع ولاحقها المدافعون المنتصرون حتى مشارف مدينة راوندوز.

غير ان مير محمد لم يرغب في التخلي عن نواياه فجهز من جديد قوة من ألف مقاتل توجهت تحت قيادة احمد جاويش إلى حاكم روست. واغرى احمد جاويش الخصم بكل سهولة للخروج من القلعة واعتقله مع زعمائه ثم ارسلهم إلى راوندوز. بعد ذلك فقد يحيى بيك كل امل في النجاح. على ان المعارك العنيفة استمرت بين قوات مير محمد ويحيى بيك في منطقة سيداكان مدة ثلاثة أيام هزم على أثرها يحيى بك واستسلم لأحمد جاويش فزج مير محمد عمه في السجن ثم قتله بعد محاولة فرار فاشلة.

بعد أن انهى مير محمد صراعه مع الأقرباء وضع تحت سلطته كل ممتلكاتهم واخذ يستعد لاحتلال المناطق المجاورة للحكام الأكراد المستقلين.

كان يحد راوندوز من الشمال منطقة برادوست. فقرر مير محمد ان تكون الضربة الأولى موجهة ضد محمود بيك ابن سليم خان حاكم برادوست. واستعداداً لذلك تحصن محمود بيك في قلعة «خاركيل» المنيعة رافضاً الخروج منها. حينها قرر مير محمد استدراج خصمه بالحيلة فسحب قواته من ضواحي خاركيل باتجاه القلعة المجاور «غير دكال». وما كانت لتنجح هذه الحيلة لولا ان الاحداث اللاحقة تطورت لصالح مير محمد. إذ ان سليم خان ما ان سمع عن حصار ابنه حتى هب من قلعة «كاني رش» لمساعدة ابنه، ففتح محمود بك البوابات وخرج لاستقبال والده، وهنا استغل مير محمد هذه الفرصة ونقل قواته بسرعة إلى خاركيل واستطاع في ١٢ آب ١٨١٥ أن يأسر الاب والابن بسهولة.

وبعد هذه الحملة الناجحة وجه مير محمد قواته ضد حاكم برادوست الثاني حسن بيك الذي يحتمي في قلعة ساردال. وكانت قوات حسن بك تفوق عدداً قوات مير محمد، وجرت المعركة عند اسوار القلعة، حيث تكبد الطرفان خسائر كبيرة. وتسلل قسم من قوات مير محمد إلى مؤخرة الخصم، وارغم حسن بيك على الهرب، وتمت ملاحقته حتى قلعة «ساراو»، واستطاع جنود مير محمد احتلال جزء من القلعة بواسطة السلالم. وفي ١٢ أيلول تمكن مير محمد من خلال البوابة المفتوحة من الدخول إلى قلعة ساراو. وبهذا الشكل نجح مير محمد في احتلال برادوست كافة وضمها إلى ممتلكاته. واصبحت «ساراو» مركزاً للمنطقة، وعين احد ممثليه حاكماً عليها.

بعد برادوست وجه مير محمد قواته الأساسية ضد «مير غاور واوشن» وأبقى على جزء من قواته بقيادة احمد بدري في برادوست لانهاء احتلال قلعة «كاكلا» واخضع مير محمد - وهو في طريقه إلى مير غاور - قبيلة «ليتان» المسالمة التي لم تبد أية مقاومة (١٤٥، ص ٤٢). إلا انه نكّل بقساوة بسكان قلعة «نالوس» الذين قاوموه، ومن ثم عاد إلى راوندوز. أما القوات المرسلة إلى كاكلا فقد تكبدت الخسائر والنكسات الواحدة تلو الأخرى، وفي ٧ أيلول (سبتمبر) عام ١٨١٥ توفي احمد بدري في المعركة. ومع ذلك فإن حرب الايام الثمانية عند القلعة انتهت لصالح قوات مير

محمد. فتعرضت القلعة لسلب المنتصرين ونهبهم واعترفت منطقة كاكلا كلها بحكم مير محمد، وفي السنة نفسها اخضع مير محمد قبيلة زيباري.

وفي طريق عودته اكتشف في منطقة برادوست رواسب النحاس والرصاص مما اتاح له فرصة اصلاح معداته الحربية وتجديد اسلحته. قرر مير محمد، المهتم بتجهيز قواته، الاستفادة الكاملة من هذه الامكانيات. فتدفقت قوافل ضخمة من المواد الخام من برادوست إلى راوندوز، واستدعى الأمير اشهر صانعي الاسلحة. وكان أول صانع سلاح - مثلما جاء اسمه في «ماليحا» - هو المهني رجب الذي كان يصنع المدافع والقنابل. واعطى مير محمد اهمية كبيرة لتطوير صناعة الاسلحة، فمنح رجب حصاناً وثياباً و ١٠٠٠ ريال و ١٠٠ ريال لكل عامل عنده وذلك على شرف نجاح معمل الاسلحة وانتاج اول دفعة من السلاح.

في عام ١٨١٦ في خاولاكان (في منطقة مدينة راوندوز) تم بناء معمل لصناعة السيوف والخناجر والبنادق وسبطانات المدافع والطلقات وعجلات المدافع وغيرها من المعدات الحربية. واستدعى مير محمد من مدينة اورمه واحداً من أمهر صانعي الاسلحة وهو خانفالدي، الاسم الذي يذكره مؤرخ مير محمد باحترام. وكما يشهد المؤرخ، كان رجب مسؤولاً عن صناعة المدافع والقنابل أما خانفالدي فكان يختص في صناعة بقية المواد الحربية بما في ذلك صناعة الخشب (١٤٥، ص ٤٩).

قرر مير محمد بعد فشله في عدد من المناوشات مع العدو، اعادة التنظيم إلى جيشه حتى بلغ عدده ١٥ ألف من المقاتلين المسلحين والمجربين. وكانت الحرب تعتمد بشكل أساسي على السيوف والبنادق ذات السبطانات القصيرة.

شكل مير محمد مجلساً عسكرياً من خمسة اشخاص وهم: احمد باغي برامير ي (رئيساً للمجلس)، حمادي شير واني ماميس، سوراو، عبد الله اكوي حيدري حمادي، صافي آغا (١٤٥، ص ٤٩).

إن انضمام مناطق جديدة إلى مملكة مير محمد اجبرته على اجراء تعديلات في الادارة الاجتماعية، فشكل مجلساً من ستة اعضاء مقربين له وسماه «سردار» وعين رسول بيك برامير ي مديراً لاعماله. اما الاخصائي ابراهيم ماولي فكان يشرف على بناء القلاع والاقنية والطرق وما شابه ذلك، واسندت المسائل التجارية إلى حاجي مصطفى آغا. وكان المجلس المذكور يجتمع كل اسبوع لمناقشة المسائل الحيوية.

ولكي يثبت استقلاله المطلق عن الامبراطورية العثمانية صار مير محمد يسك النقود باسمه. واستناداً إلى ما حفظ حتى يومنا هذا من هذه العملة، وكذلك استناداً إلى شهادة «ماليحا»، فإن هذه العملة كانت تنقسم إلى سبع فئات شكت من الذهب والفضة والنحاس: ١ ـ يوزلي تساوي ١٥ قرشاً تركياً، ٢ ـ ريال تساوي ١١ قرشاً تركياً، ٣ ـ قروش تساوي ٧ قروش تركية، ٤ ـ انفير تساوي ٤ قروش تركية، ٥ ـ جيلبك تساوي ٣/٤ القرش التركي، ٦ ـ خودابانداً تساوي ١/٤ قرش تركي، ٧ ـ شابي تساوي ١/٢ قرش تركي. وكانت كل ١٠٠ قرش من عملة مير محمد تساوي ليرة تركية وقد نقش على وجه العملة الأول توقيع مير محمد تعبيراً عن استقلاله: «الامير المنصور محمد بيك». وعلى الوجه الثاني «تمّ سكها في راوندوز».

ومن الطريف ان الأكراد الذين اعترفوا بالأمير كانوا يذكرون اسمه في خطبة الجمعة كحاكم على امارته. وكان مير محمد يسير دائماً بصحبة اربعة من الحراس.

ومن اهم التدابير التي اتخذها مير محمد تشكيل مجلس «العلماء» و«الحكماء» من أجل وضع كتاب للقانون ليعمل به سكان الامارة الكردية (١٥٠، ص ٦٥).

تميزت المرحلة الأولى من حكم مير محمد بالعمل النشيط في مجال بناء القلاع والاقنية والاسوار وشبكات اقنية الري، وبلغ عدد الجسور التي بناها على نهر جوم تسعة جسور، ويشهد كتاب حسين حزني موكرياني على ان نشاط الامير كان موجهاً نحو تعزيز الوضع في الامارة وتوحيد مختلف المناطق الكردية المتفرقة تحت رعايته. وقد عزز مير محمد المناطق التابعة له عن طريق بناء منشآت جديدة على ضفاف انهار بالوك، روست، سميلاني بالاكان، خاليفان، وفي شعاب علي بيك وغيرها، ويشير حسين حزني موكرياني إلى ان التنفيذ العلمي والفني لبناء الجسور أثار دهشة الاوروبيين وحاز على تقدير عال من قبل المهندسين الانكليز في القرن التاسع عشر. ومن ضمن منجزات مير محمد في مجال التعمير قصر الرئاسة الذي بناه لنفسه ولزعماء المجلس.

لقد حصن مير محمد مدينة راوندوز، فشيد اسواراً عالية حول قلعة لوكان وفي المناطق المجاورة لراوندوز، وبنى القلاع لزعماء المجلس، وحفر الخنادق حول تلك القلاع، وكانت هذه الخنادق عميقة تمتلىء بمياه الأنهار. وكان بناء القلعة يستمر عادة ثلاثة أعوام.

كان مير محمد يعين اناساً لادارة المدن والقرى الكبيرة وبغية ضبط الحياة الاقتصادية كان يعاقب بقساوة على عمليات النهب والسلب ويشير الرحالة الانكليزي فريزر معتمداً على وقائع كثيرة عن السلب والنهب كنتيجة للفوضى في المناطق الشرقية من الامبراطورية العثمانية، ألا انه في امارة صوران «تم استئصال جذور النهب والسلب بفضل تدابير مير محمد الحازمة» (٩٧، ص ٦٥).

كان عقاب السرقة قاسياً للغاية إذ كانت تقطع يد السارق واحياناً يجدع انفه أو تفقأ عينه في المرة الأولى أما في المرة الثانية فكانت عقوبته اكبر وكان الاعدام هو عقاب السرقة الثالثة. ويقال ان مير محمد قطع اصابع أحد اخوانه الاعزاء لأنه تسلل إلى بستان أحد الفقراء (٩٧، ص ٦٦).

وبهذه المناسبة يحكي «اداي شير» قصة طريفة نقلها من أقوال أحد الشيوخ المعاصرين لمير محمد: «كنت اسير ذات مرة من شقلاوة إلى راوندوز وعثرت في الطريق على صرة مليئة بالنقود وخوفاً من مير محمد لم اتجرأ حتى على لمسها. وكان في حوزتي سلة من الفواكه كنت احملها للأقرباء والاصدقاء في راوندوز ثم اضعتها في الطريق وعندما رجعت من راوندوز رايت أن الصرة مع النقود ما تزال موجودة في مكانها السابق وكذلك كانت سلة الفواكه لم يجرؤ احد على أخذها». فسأله اداي شير بأنه كان بوسعه أن يأخذ الصرة دون ان يراه أحد ولكنه أجاب بجدية: «ولكن كان من الممكن أن يراني أحد رجال مير محمد كورا الموجودين قريباً في كمين، ولو اني لمست الصرة ـ لسوء الحظ ـ لأخذوني من كل بد إلى الباشا الذي كان سيصدر فوراً أمر اعدامي» (١٢٠، ص ١٣٨).

ومهما كان قدر المبالغة في هذه القصص إلا أن وجودها بالذات يشهد على طموح مير محمد في ارساء حياة آمنة في البلاد. وقد ساعدت تلك التدابير على تجاوز عمليات النهب والعنف وعلى تطور الاقتصاد وتوسيع التجارة في الامارة.

ولعدم توفر معلومات عن النظام الضرائبي في الامارة، يصعب علينا الحكم على التدابير التي اتخذها مير محمد في هذا المجال. ومع هذا فيمكن الاعتماد على

معلومات هامة جداً للدكتور روسو* تقول أن المناطق التي كانت خاضعة لسلطة الاتراك كانت خالية من السكان نتيجة الضرائب التعسفية في الوقت الذي كانت فيه المناطق التابعة لمير محمد مكتظة بالسكان ومزدهرة في كل مكان.

وينوه روسو بعد ذلك إلى ان الاكراد في باشليك بغداد كانوا يعبرون علناً عن عدم رضاهم عن حكم نائب السلطان. وإذ يصور روسو ظروف الحياة في تلك المناطق يشير إلى الحفاوة البالغة التي ابداها اكراد المنطقة تجاهه وتجاه عم مير محمد بياز بيك الذي كان يرافق روسو في رحلته. في الوقت الذي كان الاكراد يتوارون عن الانظار اثناء ظهور ممثل السلطان في المناطق التابعة لتركيا.

في المرحلة الثانية من حكم مير محمد، كانت سياسته الخارجية موجهة أولاً للبحث عن اعتراف الدول المجاورة ودعمها لاستقلاله، ثانياً: نحو توسيع حدود امارته عن طريق احتلال المناطق الكردية شبه المستقلة. ونلاحظ في هذه المرحلة الاشتباكات الدائمة بين مير محمد وزعماء اكراد المناطق الاخرى ومقاومة الأمير النشطة لغزوات القوات التركية والايرانية.

في عام ١٨١٨ أعلن مير محمد نفسه اميراً منصوراً وحاكماً مستقلاً، الأمر الذي افسح المجال لخصومه للنيل منه أمام محمود الثاني، فأثاروا السلطان كي يتخلص من الامير الذي لا يعرف الخضوع.

بينما كان السلطان محمود الثاني يتأهب لاتخاذ بعض التدابير، راح مير محمد يوحد بحزم بقية المناطق الكردية فتجاوزت نشاطاته حدود المناطق الكردية في تركيا لتمتد إلى ايران ايضاً.

ولكن ما هي الظروف الخارجية والداخلية التي ساعدت مير محمد كي يصبح حاكماً مستقلاً؟

في عشرينات وثلاثينات القرن التاسع عشر عاشت الامبراطورية العثمانية أزمة سياسية حادة. لم يكد الباب العالي يسترجع قواه بعد خسارته الفادحة في الحرب

---

* الدكتور روسو طبيب البعثة الانكليزية في بغداد. كتب يوميات تحتوي على حقائق ممتعة عن مير محمد، استفاد فريزر فيما بعد من هذه اليوميات. لقد استدعى مير محمد روسو إلى راوندوز لمعالجة والده الأعمى مصطفى بيك. ترك روسو معلومات طريفة وكثيرة بوسعها أن تكون بمثابة مرجع هام ولكننا لانعرف منها سوى المتوفرة في كتاب فريزر.

الروسية التركية حتى رأى نفسه امام خصم خطير وهو الوالي المصري محمد علي باشا. وقد هددت الضربات القوية للقوات المصرية وجود الامبراطورية العثمانية نفسها (٤٥، ص ٣٣٨). ومع ضعف تأثير السلطة المركزية انفسحت مجالات واسعة أمام تحقيق نوايا والي بغداد داود باشا الذي تمكن - خلال فترة وجيزة تعزيز سلطته في باشليك بغداد فأصبح النزاع بينه وبين السلطان أمراً لا مفر منه (٩٥، ص ١٢٨ - ١٢٩). وفي نفس الوقت ظهرت ظروف ملائمة أمام مير محمد ليوسع حدود ممتلكاته على حساب باشليك بغداد.

وكانت ايران المنهمكة في نزاعاتها الداخلية على العرش مشغولة بتسوية الصراع في خراسان.

ونتيجة التدهور الاقتصادي أو غياب السلطة المركزية في المناطق التركية والايرانية الآهلة بالسكان الاكراد صارت الظروف المعيشية صعبة جداً وعمت الفوضى والنهب والحروب الداخلية المستمرة، مما يشهد على عمق الأزمة الداخلية، ولذلك لم يبد سكان المناطق المجاورة اية مقاومة أمام تطلعات مير محمد.

وقد اشتكى اكراد ايران للممثل الانكليزي غ. راولنسون عن وضعهم المزري قائلين: «نحن نكد كل يوم، من أجل الحصول على لقمة الخبز فقط، لنجنب اطفالنا ونساءنا الحفاة والعراة، الموت جوعاً. (٨٠، ص ٤٧).

وتعمقت الأزمة أكثر نتيجة ابتزاز ممثلي السلطة للشعب. ويشهد على ذلك رسالة السفير الروسي في طهران ي. و. سيمونيتش لقائد جبهة القفقاز غ. ف روزن عام ١٨٣٣، جاء في شهادته: «إنني إذ أعرف جشع جانيز مير زا نحو الانتفاع. لا أعجب من كونه فعلاً يثير الأكراد نحو التمرد آخذاً بعين الاعتبار منفعته الخاصة (١٢ أ، ٢٣ - ٢٤).

بدأ مير محمد يبسط نفوذه على مناطق اخرى من كردستان معتمداً بشكل اساسي على قوات منظمة جديدة، لكنه لم يكن ليستهين بالعلاقات الدبلوماسية فأرسل ممثلين عنه يتقنون فن الكلام إلى زعماء المناطق الكردية بغية اقناعهم للدخول تحت سيطرته، ويشهد مؤلف «ماليحا» أن ذلك قد حقق نتائج ايجابية. وقد نكل مير محمد بالزعماء الأكراد الذين لم يرغبوا الاعتراف بسلطته.

وفي مراحل الاحتلال الأولى تمكن مير محمد بسهولة ان يضم منطقتي حرير وخوشتاف إلى مملكته. وقرر زعماء مدينة اربيل بعد اجتماعهم، آخذين بعين الاعتبار عدم رغبة السكان في مقاومة مير محمد، ارسال ممثليهم إليه، ليعبر وا عن ولائهم له. وعلى الرغم من قرار مجلس المدينة، فإن الفصائل المسلحة المتمركزة في مركز المدينة فوق التلال، أبدت مقاومة عنيفة لقوات مير محمد. ان سنجق اربيل ومنطقة التون كوبري المتاخمة لها كانتا تمتلكان اهمية اقتصادية لغناهما بالحبوب والمحاصيل الأخرى. ولذلك وضع الأمير كل جهده من أجل اخضاع حماة القلعة (١٥٣، ص ٤٠٨).

وجه مير محمد بعد ذلك نشاطه نحو مدينة كركوك. إلا أن نشوب الصراع السياسي حول مدينة السليمانية ارغمه على تأجيل الهجوم على كركوك والتوجه نحو منطقة السليمانية واستلم مير محمد في هذا الوقت رسالة تفيد باقتحام القوات الايرانية لمدينة السليمانية لحماية مصالح حاكمها، وهو من قبيلة بابان، من هجوم والي بغداد. وقرر الامير ان يستغل هذا الصراع لمصلحته. وسرعان ما اتضح ذلك لحاكم باشليك بغداد داوود باشا، الذي ابلغ مير محمد موافقته على ما ينوي القيام به. فضم مير محمد، دون معارك، منطقتي رانه وكويسنجق إلى ممتلكاته فهنأ والي بغداد الأمير محمد انتصاره. وضرب مير محمد بمناسبة انتصاره مدافع كبيرة عام ١٨٢٨ وكتب عليها: «نصر من الله وفتح قريب».

وقبل أن يتقدم مير محمد بقواته نحو الجنوب لملاقاة قوات امير بابان محمود باشا حاكم السليمانية، قرر في البداية احتلال المناطق المجاورة لراوندوز على اعتبارها اكثر اهمية من أجل تعزيز سلطته. لم يكن محمود باشا يرغب في نزاع عسكري مع مير محمد. إذ كانت ايران تحارب حينذاك ضد روسيا ومن الطبيعي انها لم تكن تستطيع تقديم مساعدة حقيقية لمحمود باشا. إضافة إلى ان والي بغداد كان سيتدخل اثناء النزاع لصالح مير محمد.

واحتدم في الوقت ذاته الصراع في امارة بهدينان بين بعض الحكام فقرر مير محمد الاستفادة من ذلك وضم تلك الأراضي التي كان يطمح بها منذ زمان إلى امارته وتوترت العلاقات بين زعيم الاكراد اليزيدين علي بيك وزعيم قبيلة بالات علي آغا فبذل اخو امير بهدينان اسماعيل بيك، الذي كان يحكم آنذاك في عقرا، كل جهده من أجل التسوية بين الأطراف المتنازعة وتكللت جهوده اخيراً بالنجاح. وتأكيداً للثقة

بخصمه القديم قام علي بيك بزيارة علي آغا، ثم قام بعدها علي آغا برد الزيارة، غير أن علي بيك، بإيعاز من امير بهدينان سعيد بيك، خرق القوانين وشيم الضيافة وقتل علي آغا. وبما ان المقتول كان من اقرباء احدى الشخصيات الدينية المعروفة وهي الامام يحيى المزوري، وبما ان الامام يحيى كان متأكداً من مسؤولية سعيد بيك في القتل، لذا قرر الامام الانتقام منه ولذلك سافر إلى صوران إلى مير محمد ودفعه ضد أمير بهدينان المتعاون مع اليزيديين، فاتخذ مير محمد من ذلك حجة، وجهز حملة على بهدينان. وبغية تحقيق الانتصار قرر الامير في البداية القتال ضد الاكراد اليزيديين.

واشتد الصراع في ذلك الوقت من جديد بين امير بهدينان سعيد بيك واخيه موسى بيك، الذي كان يطمع في استلام السلطة فتوجه موسى بيك هو الآخر إلى أمير صوران يطلب المساعدة. وكان هذا الطلب هو الاخر لصالح مير محمد لذلك وافق عليه بكل سرور.

بدأ مير محمد حملته في اوائل ربيع عام ١٨٣٢. وقرر إخضاع خصمه بأية وسيلة كانت. وفي ١٥ آذار، بعد ان قضى على المقاومة، توجه إلى مدينة القوش، كانت قواته تفوق بالعدد قوات اليزيديين، لذلك ارغم سكان القوش على ترك المدينة والهرب برفقة البطريرك يوسف عبدو ورئيس الدير رباح هرمز إلى جبال «ادري» (١٢٠، ص ١٣٤) وصلت قوات مير محمد التي لم تواجه مقاومة تذكر إلى شيخان، حيث تَجَمُّعُ الاكراد اليزيديين الرئيسي، ، فقرر زعيم الاكراد اليزيديين الدخول في المفاوضات لعدم وجود منفذ آخر امامه.

تقدمت قوات امير صوران مير محمد في اتجاهين، ضد الاكراد اليزيديين تحت قيادة اخيه رسول بيك، وضد العمادية وعقرا ومناطق اخرى برئاسة الأمير ذاته.

بعد ان عرف امير بهدينان سعيد بيك، ان مير محمد قد توجه بقواته ضد الاكراد اليزيديين أرسل فصائل من قواته تحت قيادة يونس آغا لمساعدة اليزيديين، غير انها سحقت بسهولة. كما اسرع لمساعدة اليزيديين اسماعيل بيك من عقرا، ولكنه وصل بعد أن هزمت قوات اليزيديين وفصائل يونس آغا (١٤٢، ص ١٦٨).

وبعد ان تأكد مير محمد من القضاء على الأكراد اليزيديين توجه بقواته إلى الموصل وكان والي الموصل يجهز مذعوراً الجسر المؤدية إلى المدينة ويحصن القلعة

وأسوارها بعد ان قرر المقاومة. اما أمير صوران الذي لم يرغب في ايقاف موكب فواته في مناطق بهدينان فقد حاد عن الموصل وتقدم نحو الشمال باتجاه العمادية.

من أجل احتلال العمادية حيث تتمركز قوات سعيد بيك قرر مير محمد ان يوحد قواته مع قوات رسول بيك الذي يقاتل ضد الاكراد اليزيديين، وأمر أخاه بالتقدم نحو العمادية. كان اسماعيل بك مع فصيله المنفاني حينذاك في قلعة العمادية، إذ أنه تمكن من الهروب ليلاً من عقرا بعد تسليمها للخصم. ابدت القوات المحلية مقاومة عنيفة في وجه قوات مير محمد دفاعاً عن العمادية. بعد ان احتل المدينة حاصر مير محمد القلعة، وأرسل قسماً من جيشه بقيادة شالي بيك لاحتلال زاخو، والقسم الآخر بقيادة رسول بيك إلى غريت. وصمدت قلعة العمادية ثلاثة أشهر، ثم ارغم الجوع المدافعين عن القلعة بفتح البوابات والاستسلام.

خلال احتلال مدينة العمادية تلقى مير محمد دعماً كبيراً من فصائل قبيلة بيليك وزعيمها عزيز بيك، وبفضل هذا الاخلاص لمير محمد حازت قبيلة بيليك على ثقته ورعايته (١١٣، ص ٢٦)، وقد كتب الدكتور روسو في يومياته انه سمع الاخبار عن سقوط مدينة العمادية في ٦ حزيران (يونيو) ١٨٣٣م (٩٧، ص ٧٦) وقد عين بدلاً من سعيد بيك أخوه موسى بيك حاكماً على المدينة وقد كان من مؤيدي مير محمد (١٤٢، ص ١٦٩).

بعد سقوط مدينة العمادية واعتقال سعيد بيك، هرب اخوه اسماعيل بيك مع اصحابه إلى الجبال، ثم توجه إلى مدينة اوشن حيث الاكراد الايرانيين. وبعد ان اتصل اسماعيل بيك مع حاكم هكاري سافر إليه وحل ضيفاً عنده اكثر من شهر. وبعد أن تأكد اسماعيل بيك من دعم السكان المحليين له ضد موسى بك، قام ليلاً على رأس فصيل صغير (١٥٠ مقاتل) باهجوم على مدينة العمادية واستولى عليها بسهولة.

بعد ان سمع مير محمد باحتلال العمادية وتنحية ممثله موسى بيك ارسل قوة بقيادة رسول بيك إلى المدينة وبعد حصار قصير دخل رسول بيك المدينة واستطاع اسماعيل بيك الهرب هذه المرة أيضاً واللجوء إلى حاكم امارة بوطان بدرخان بيك.

وفي هذه المرحلة ترافقت الاحداث مع هجوم القوات التركية بقيادة رشيد بيك على الامارات المستقلة في كردستان.

ساءت الظروف في المناطق الآهلة بالأكراد اليزيديين، لقد أثار نفي زعيم اليزيديين علي بيك إلى راوندوز اضطرابات عنيفة وسط السكان المحليين، تطورت فيما بعد إلى انتفاضات مسلحة، وعرقلت الأحداث نشاطات رسول بيك، فعاد ثانية إلى المنطقة الآهلة باليزيديين (١٢٠، ص١٣٥).

طرد المنتفضون ممثل مير محمد واعتقلوا بزوجة علي بيك قائدة لكل المنتفضين اليزيديين فأرسل مير محمد قوات كبيرة بقيادة سعيد حسن ورشوان ضد المنتفضين. وبما ان المنتفضين لم يملكوا مواقع محصنة فقد توجهوا إلى السلطات في الموصل برجاء اللجوء خلف اسوار المدينة، إلا ان ابواب المدينة ظلت مغلقة والتجأ المنتفضون إلى بني يونس، ولكنهم لم يجدوا هناك المأوى والحماية. قرر حينها اليزيديون المقاومة على هضاب خينج. وقد قررت المعركة غير المتكافئة مصير الاحداث لصالح قوات مير محمد. أما في راوندوز فقد اتهم علي بيك بتحريض اليزيديين على الانتفاضة ثم امروا بقتله*.

وفي هذه الأثناء اصبح الطريق إلى ديار بكر وعقرا وماردين، هذه المراكز التجارية الكبيرة والاستراتيجية الهامة، مفتوحة أمام امير صوران. وكان خبر انتصارات مير محمد قد اثار الرعب في قلوب حكام المدن المذكورة. لذلك، وبعد حصار قصير، تمكن الامير من اخضاع هذه المناطق ايضاً لسلطته. في نهاية أيار (مايو) ١٨٣٣ اتم مير محمد احتلال المناطق الكردية المجاورة لصوران ووسع حدوده حتى الجزيرة. في الجنوب كان نهر الزاب الصغير بمثابة الحدود بين امارتي بابان وصوران. ولقد كتب غ. راولنسون الذي زار تلك المنطقة سنة ١٨٣٨ بعد سقوط سلطة مير محمد، ان المناطق الواقعة بين مدينة اوشن وضفاف نهر دجلة وفي الجنوب حتى نهر الزاب الصغير كانت تحت سيطرة مير محمد (١١٣، ص ٢٤).

لقد وسع مير محمد مجال نفوذه لا بالقوة فحسب، بل كان يساعد الزعماء الأكراد الناقمين على السلطات العثمانية، الزعماء الذين كانوا ينتظرون منه الدعم السياسي. وبغية تعزيز وضعه غير المستقر الذي نشأ نتيجة الحروب الداخلية بين

---

* صورت هذه الاحداث الدرامية ومأثرة علي بيك وزوجته البطولية الملاحم والأغاني الشعبية (انظر: ١٢٠، ص ١٣٥).

الزعماء الأكراد. ارسل امير بوطان بدرخان بيك اخاه سيف الدين إلى مير محمد يطلب منه المساعدة. وبمساعدة مير محمد فقط تمكن بدرخان بيك من القضاء على خصمه القوي مصطفى باشا ميران (١٢٠، ص ١٣٦).

وفي النهاية تخلص مير محمد بسهولة من خصومه لأنه - كما تشهد المصادر - كان قد أسس جيشاً نظامياً قوياً. ويحتوي كتاب «ماليحا» على معطيات عن عدد افراد جيشه. بعد احتلال عدد من المناطق، عاد مير محمد إلى راوندوز بجيش تعداده /١٣٠/ ألف مقاتل منهم ١٠ آلاف خيال و ٢٠ ألف من المشاة (٧١٤٥ ص ٦٩). أما فريزر فيقدم ارقاماً أخرى: «على وجه الدقة كان مير محمد يقود ٥٠ ألف جندي، يقبض نصفهم الرواتب ويؤدي الباقي الخدمة الالزامية». (٩٧، ص ٦٤).

اسس مير محمد في المناطق الموحدة تحت سلطته نظاماً ادارياً مركزياً. وكان السكان يدفعون الضرائب بشكل دوري. ثم تشكلت الخزينة التي كانت تنقسم إلى ثلاثة فروع: ١ - فرع اموال مير محمد الخاصة. ٢ - فرع الايرادات من الضرائب. ٣ - فرع الاموال والثروات التي صادرها مير محمد من حكام المدن والمناطق التي ابدت مقاومة في وجه قواته.

كان كل فرع من فروع الخزينة يصرف امواله لأهداف معينة. فالايرادات التي كانت تصل عن طريق الضرائب، أي الفرع الثاني، كانت مخصصة لرواتب الضباط والجنود. أما اموال الفرع الثالث فكان الامير يعطي الهدايا ويخصص قسماً منها للفقراء (١٤٥، ص ٧٠).

بعد ان عزز مير محمد سلطته في المناطق الكردية من الامبراطورية العثمانية عزم على ان يضم إلى دولته كذلك المناطق الكردية في ايران. ولم يرمير محمد اية عوائق جدية في سبيل تحقيق اهدافه من جانب تركيا التي كانت مشغولة بمسائل اهم من ذلك. إذ ان محمد علي باشا والي مصر كان قد ارسل في تشرين أول عام ١٨٣١ جيشاً كبيراً مسلحاً تسليحاً جيداً بقيادة ابنه ابراهيم باشا إلى سورية. لقد بث الانتصار الاول لجيش ابراهيم باشا وكذلك تقدمه الظافر نحو الشمال الذعر في صفوف جيش السلطان محمود الثاني (٤٥، ص ٣٤١، ٣٤٢).

كان للأمير الكردي مير محمد طموحات الوالي المصري محمد علي باشا ذاتها في الاستقلال عن الامبراطورية العثمانية، وكان بينهما - حسب بعض المعطيات -

اتصالات دائمة. كان رُسل ابراهيم باشا يقومون بدعاية كبيرة بين الأكراد للنهوض ضد الباب العالي (١٦، ص ٤٣٢). وثمة حقائق ثابتة، تؤكد انه اثناء تقدم القوات المصرية نحو الشمال، قدم السكان الأكراد لها مساعدات كبيرة من تأمين المواد الغذائية وغيرها. ويكتب ب. لير خ بهذا الصدد قائلاً: «اثناء الحروب السورية كان كل جيش ابراهيم باشا يتغذى بالخراف الكردستانية» (٤٧، ص ٢٤). وهناك أقوال بأن الأكراد كانوا يستلمون من محمد علي باشا السلاح والمعدات (١١٢، جزءا، ص ٣٩٣).

وانطلاقاً من الظروف الناشئة، أي انشغال الباب العالي مع المصريين وعدم توفر قوات كافية لدى ايران في الغرب بدأ مير محمد يتهيأ للقيام بنشاطات جدية في كردستان ايران.

بعد عقد اتفاقية تركمانشاي بين روسيا وايران كان انتباه فاتح علي باشا منصباً نحو الاحداث في شرقي البلاد. اثناء عقد الاتفاق كان سكان مناطق ايزدا، كيرمانا، وخوراسان الايرانية قد قاموا بانتفاضة. وتعقد الوضع نتيجة التناقض بين المصالح الروسية والانكليزية هناك لا سيما وان مشكلة «هيرات» دخلت ايضاً في هذا النزاع.

في سنة ١٨٣٣ وجه فاتح علي باشا جيشاً كبيراً بقيادة حفيده محمد مير زا لحصار هيرات. غير أن محمد مير زا بعد ان سمع بنبأ وفاة والده - ولي عرش الشاه عباس مير زا، رفع الحصار عن هيرات وعاد إلى طهران ليتسلم حقه في وراثة عرش الشاه من فاتح علي شاه المريض. وبعد ان توصل إلى تثبيت وضعه، بات حسب التقاليد حاكماً على اذربيجان وفي تشرين اول ١٨٣٤ توفي فاتح علي باشا وبدأت بعد وفاته النزاعات الداخلية في ايران من أجل العرش.

كانت سياسة روسيا في ايران بعد عقد معاهدة تركمانشاي - موجهة نحو تدعيم الشاه وتشجع طموحاته نحو الشرق لاخضاع هيرات، الشي الذي كان سيضعف من تأثير الانكليز وكانت روسيا غير راغبة اطلاقاً في تعقيد الاوضاع على حدود ايران الغربية مع تركيا وفي توتر العلاقات مع الزعماء الاكراد، وكان سبب توتر الوضع على الحدود التركية الايرانية في هذه المرحة مسألة السليمانية المتنازع عليها وكذلك نشاطات الزعيم الكردي في راوندوز. ولذلك بالذات فان الوزير الروسي المفوض في ايران

الامير دولغاروكوف أشار في رسالته إلى بيزاك الانتباه إلى هذه الحقائق «غير المرضية» (١٧، جزء ٧، ص ٧٢٧، ٧٣١).

وكتب دولغاروكوف في رسالته تلك ما يلي: «لقد زج صاحب السمو عباس مير زا، إضافة إلى كل مشاغله، نفسه في مسألة جديدة. مسألة السليمانية، وذلك بدافع صداقته مع محمود باشا. ان باشا بغداد يدعم سليمان باشا، أما أمير راوندوز مير محمد فقد ظهر مع فرسانه في اوشين حيث دمر عدداً من القرى، ويقال انه قد توجه نحو صولدوز، ولكني اتوقع بأن ينتهي بسهولة. وقد وجد عباس مير زا - حسب معلوماتي - لغة مشتركة مع داود باشا، وإذا ما تخلى عباس مير زا عن السليمانية سيكون داود باشا سعيداً جداً بأن يحافظ على علاقات صداقة معه، لأن له بالذات علاقات كثيرة مع سلطانه التركي». (١١٧، جزء ٧، ص ٧٣٠). وفي هذا الوقت، وفي منطقة السليمانية، وخاصة في معسكر والي بغداد الكبير، حدثت تغييرات في ميزان القوى سببها وباء الطاعون.

فقد فقدت قوات والي بغداد الموجهة إلى مدينة السليمانية لتقديم المساعدة لضيفها، أكثر من نصف رجالها. كان بيزاك خبيراً بالوضع السياسي في هذه المنطقة: «لا يوجد أحد حالياً في السليمانية، أما الطاعون قد ارغم حتى محمود باشا أن يهجر هذه المدينة. أما سليمان باشا فيعيش في بغداد عند داود باشا الذي ينتظر تقرير مصيره ولم يبق سوى امير راوندوز مير محمد الذي يهدد باقتحام الحدود الفارسية من جهة كردستان، وقد ارسلت ضده ثلاثة مدافع وبعض الاسلحة الاخرى (١٧، ص ٤٧٣).

في هذا الوقت كان مير محمد ينظم حملة كبيرة إلى المناطق الكردية في ايران ولقد وجهت فصائله بقيادة مراد بيك ضرباتها الأولى إلى لاخيجان والمناطق الاهلة بالاكراد الموكرانيين. وتقدمت قوات الامير إلى الامام دون ان تواجه مقاومة تذكر. ومن أجل تعزيز مؤخرة الفصائل المهاجمة، ومن أجل الحفاظ على السلطة، راح مير محمد يبني القلاع على الأراضي المحررة، واعاد بناء القلاع المهدمة. ولوقف تقدم فصائل مير محمد أمر فاتح علي شاه بتسليم قيادة الجيش الايراني لنائب السلطان، وبعث الوالي برجاء إلى والي كردستان ايران خسروف خان ليقدم المساعدة لنائب السلطان، وكذلك إلى قائد الجيش في تبريز محمود خان ابن عباس مير زا ودعاهما إلى الانضمام

إلى القوات الايرانية لصد قوات مراد بك صداً حاسماً. التقى الخصمان عند قرية محمود شاه، ويكتب حزني موكرياني، مستنداً إلى وثائق ايرانية، ان القوات الايرانية (وخاصة فصائل تبريز) قد هزمت وهربت مخلفة وراءها غنائم كثيرة وذلك في عام ١٨٣٤.

وبعد وفاة فاتح علي شاه سنة ١٨٣٤ وتسلم محمد شاه العرش، عقد مير محمد اتفاقية سلمية مع ايران، أعيدت بموجبها لاخيجان والمناطق المجاورة لها إلى الشاه (١٤٥، ص ٧٨).

الفصل الخامس

بدء الحملة التأديبية التركية إلى كردستان

ونهاية حكم مير محمد . . .

قرر السلطان محمود الثاني، من أجل تقوية سلطته، أن يقضي وإلى الأبد على أمراء الأكراد المستقلين. فجهز السلطان في عام ١٨٣٣ حملة تأديبية بقيادة الوالي رشيد باشا، الذي كان متحمساً للبرهان على رغبته الشديدة في خدمة الامبراطورية العثمانية ووفائه لها لا سيما بعد خساراته المعيبة في كوليكتش والسليمانية وكوي، وبعد أن وقع في أسر المصريين. إضافة إلى ذلك كان لرشيد باشا حساباته الخاصة مع قادة الأكراد المستقلين، لأن هؤلاء القادة أضعفوا موقف القوات التركية وأساؤوا إليها أثناء قيامها، تحت قيادة رشيد باشا بحملة ضد محمد علي باشا.

وبغية إعادة التأثير التركي في كردستان، ثم اعداد الجيش الثاني تحت قيادة الاديوثانت السلطان سميح باشا. وكان خط سير جيشه يمر بالمناطق الشمالية الشرقية من الامبراطورية من ترابزون واذربيجان إلى بحيرة وان. وكانت مناطق درسيم الجبلية تشمخ قلعة منيعة في وجه تقدم قوات سميح باشا. وقد لاقت القوات العثمانية مقاومة عنيفة قام بها أهالي المنطقة، بعد مرور شهر على هجوم سميح باشا الفاشل، قرر سحب قواته من الجبال والتوجه إلى مناطق سهلة البلوغ.

كان طريق رشيد باشا يمتد كذلك عبر سامسون وسيواس ومالاطيا، ثم إلى الشرق والجنوب الشرقي. أما الهدف النهائي لجيشه فكان القضاء على أمير صوران مير محمد.

في صيف عام ١٨٣٤ بدأ الجيش التركي (بـ ٤٠ ألف مقاتل) هجومه من الشمال على المناطق الكردية. وقبل الوصول إلى الخصم الاساسي والقوي، مير محمد، قرر رشيد باشا أن ينكل في طريقه، بكل القادة الأكراد الذين لا يرغبون في الانضمام إلى قواته، أو يبدون مقاومة. وكان قد سمح للجنود الاتراك بنهب جميع المراكز الآهلة. تركت قوات السلطان الدمار خلفها وهي تتقدم في المناطق الكردية. وبات آلاف السكان الآمنين من النساء والاطفال ضحية التنكيل الوحشي..

تقدمت القوات التركية الأساسية، كما ذكرنا، من الشمال. وفي طريقه إلى «سيرت» نكلّ رشيد باشا بالأكراد اليزيديين والأرمن في تلك المنطقة.

كان العداء بين السلطات التركية والأكراد اليزيديين في منطقة «سيرت» قد بدأ منذ الحرب الروسية التركية عام ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩. وقد توجه قائد الأكراد اليزيديين الشيخ مير زا أكثر من مرة إلى الجنرال باسكيفيتش قائد القوات الروسية على جبهة القفقاز، مقترحاً عليه المشاركة بقوة مسلحة مع الجيوش الروسية، للتخلص من النير العثماني. كان ذلك واضحاً للأتراك، ومع ذلك، فإن خسائرهم على الجبهة لم تمنحهم امكانية ارسال قوة عسكرية كبيرة ضد الأكراد. وتم بعد ذلك، عقد صلح بين روسيا وتركيا. وهكذا لم يتسن للشيخ مير زا الانضمام إلى القوات الروسية. وتؤكد الوثائق المحفوظة أن المراسلات بين الشيخ مير زا وباسكيفيتش ظلت مستمرة.

قبل حملة رشيد باشا على أكراد رودوان (منطقة سيرت)، وبمساعدة فصائل من بعض العشائر الكردية المسلحة، حاول الأتراك مراراً ابادة اليزيديين والأرمن، لكن لم يحالفهم النجاح في ذلك..

كتب المنور الأرمني والديمقراطي خاتشادور آبافيان باعجاب عن نضال الأرمن والأكراد اليزيديين المشترك ضد القوات العثمانية قائلاً: «لقد أظهر كل من القائد اليزيدي مير زا آغا والقديس الأرمني باغوس صوراً رائعة من البسالة والرجولة». كانت المعارك قاسية وعنيفة بين القوات التركية والسكان. وبعد أن خسر اكراد وأرمن رودوان زعيميهم المتمرسين ـ الشيخ مير زا والقديس باغوس، هجروا مناطقهم وتوجهوا صوب الشمال قريباً من الحدود الروسية. وقد نشرت جريدة «القفقاز» مقالاً عام ١٨٤٨ يتذكر فيه مؤلفها أحداث تلك السنين في كردستان قائلاً بمرارة: «...

وتمكنت القوات العثمانية أخيراً من القضاء على هذه القبائل، وبشكل خاص على الأكراد اليزيديين، فأبادت قسماً منها، وأخضعت القسم الآخر لسلطتها . . . ».

في عام ١٨٣٤ أصبح مركز المقاومة ضد الأتراك في سنجق أتاغسكي لأن سكانها، بقيادة رجب بيك كانوا أقوياء إلى درجة أنهم رفضوا الاعتراف بحكم السلطان عليهم. ولقد وجه رشيد باشا ضد اكراد أتاغسكي قسماً كبيراً من قواته المسلحة (بـ ٦٠ مدفع و ١٠ آلاف من الخيالة).

أولى رشيد باشا، في معركته ضد أكراد أتاغسكي، المدفعية اهتماماً أساسياً، حيث وجه جميع مدافعه باتجاه مواقع الأكراد الهامة والمحصنة، ثم بدأ الهجوم . . . واستطاع الأكراد بسهولة سحق الفصائل التركية، وكان النجاح واضحاً، إذ أن الأكراد تركوا ملاجئهم الجبلية التي لم يبلغها القصف المدفعي وراحوا يلاحقون العدو . . . غير أن رشيد باشا أخذ يزيد من نيران مدافعه واستغل اضطراب الأكراد أمام كثافة قصفها وأمر بمشاركة احتياطه في المعركة.

وهكذا تمَّ احتلال المدينة وأُسر ١٠٠٠ جندي وقائد أكراد أتاغسكي رجب بيك. وبرهاناً على انتصاره ووفائه للسلطان أرسل رشيد باشا إلى استنبول رجب بيك وشخصيات أخرى من عشيرته. وعين حاكماً جديداً في سنجق أتاغسكي. لقد استغرق تقدم القوات التركية في كردستان باتجاه راوندوز أشهر عديدة. ثم عرقل الشتاء تقدمها تماماً. ما إن بدأ الأكراد بحرب الانتصار حتى تأكد قادة السلطان أنه يصعب عليهم، بمثل هذه القوة، محاربة جيش مير محمد. إضافة إلى أن جيش رشيد باشا، كان يعاني حينها من صعوبات جديدة أخرى مثل قلة المواد الغذائية، لأن الأهالي كانوا ينظرون إليهم نظرة عداء ويخفون عنهم موادهم ويرفضون جميع طلبات رشيد باشا . . .

أخذ الأتراك الظروف الجديدة بعين الاعتبار، وقرروا عدم التقدم في الأعماق قبل حلول الربيع، ريثما يتسنى لهم تجميع قواتهم . .

تؤكد الوثائق على أن تعيين رشيد باشا قائداً للحملة التأديبية ضد الأكراد لم يكن مجرد صدفة. فلقد كان اهتمام رشيد باشا الشديد بتهدئة الأهالي واخضاعهم للسلطات العثمانية تعبيراً مباشراً عن الرغبة في السيطرة على كل الأناضول الشرقية وأرمينيا الغربية وكردستان . .

كتب البارون روزين في رسالته بتاريخ ٢٦ حزيران ١٨٣٥ إلى وزير خارجية روسيا ك. ف. نيسيلرود ما يلي: «لقد تلقيت، اكثر من مرة، ومن جهات مختلفة انباء الخلافات الموجودة بين سير اسكير ارزيروم وبين رشيد باشا، وكذلك أنباء رغبة الأخير بالذات في السيطرة على كل الأناضول التي كان يحكمها أسعد باشا...».

لقد أثار عزل اسعد باشا المرغوب عند السلطة الروسية في القفقاز قلق هذه السلطة وتحفظها. وسافر الاديوثانت روزين فرانفيل إلى موش خصيصاً لاستكناه اسباب عزل حاكمها... وتحدث روزين في رسالته السابقة الذكر إلى نيسيلرود عن نشاطه قائلاً ما يلي: «لقد كلفت الاديوثانت فرانفل بضرورة معرفة اسباب الخلاف بين رشيد باشا وسير اسكير ارزيروم - ومعرفة طبيعة العلاقات بين رشيد باشا والأكراد الذين قام بحملته ضدهم، وما إذا كان رشيد باشا ينفذ قرارات السلطان بخصوص الاكراد أم أنه يفشل فيها، وعن كيفية وصوله إلى حكم باشليك موش، وأخيراً معرفة طبيعة العلاقات بين رشيد باشا وابراهيم باشا...».

وبعد مدة وجيزة أجاب فرانفل مفصلاً عن الوضع في باشليك موش وعن نشاطات رشيد باشا، وقد نوه فرانفل إلى حملة رشيد باشا في أتاغسكي والمناطق المجاورة لسنجق موش، وأشار إلى أن رشيد باشا قد حقق النجاح أساساً بفضل ممثلي الحكومات الأوربية، التي كانت تقدم له النصائح وتقود عملياً تحركات جيشه. وقد كتب فرانفل: «أكدوا لي عن وجود مدربين متمكنين تحت تصرف رشيد باشا، منهم المختص بشؤون الجبهة «أرغو»، وبالشؤون الهندسية «بيتيني» إلى جانب الأطباء الأجانب بين قوات رشيد باشا...».

في الشتاء أسكن رشيد باشا جيشه في المدن والقرى بغية تأمين المواد الغذائية لهم، وظل هو يعيش في ماردين.

لقد بذل جهوداً كبيرة من أجل تأمين الخبز للفيلق المحارب. كان قد أخذ قبل الربيع من ولاية أرزيروم كميات كبيرة من الطحين وضاعف سعر الخبز في تلك المناطق، وعلى العموم ارتفع سعر الخبز والطحين في جميع الأماكن التي تمركزت فيها قوات رشيد باشا.

لقد نفذ رشيد باشا في هذه الفترة عملية اخرى، تجلت في ترحيل الأكراد إلى

المناطق النائية البعيدة؛ بغية تفريقهم وإضعاف مقاومتهم. وقد أودى هذا الترحيل الاجباري بحياة الآلاف من الشيوخ والأطفال والنساء.

استغل رشيد باشا فصل الشتاء لإعداد قواته، وتؤكد الشخصيات المطلعة أن السلطان كان قد وضع تحت تصرف رشيد باشا كتيبة الكاريين النظامية والفوج الأرزيرومي. واعلن رشيد باشا تجنيداً اجبارياً جديداً، وسرت إشاعات من استانبول أفادت بالتحاق ثلاثة أفواج نظامية مزودة بثلاثين مدفعاً.

لم يكن حجم الاستعداد لهجوم جديد مهماً بالنسبة لرشيد باشا فحسب بل وبالنسبة للسلطان أيضاً. فقد أوعز محمود الثاني إلى حكام ولايتي بغداد والموصل بالانضمام إلى قوات رشيد باشا.

وعلى الرغم من استعدادات الأتراك الحثيثة لحملة جديدة، فقد استغرقت تلك الاستعدادات عاماً كاملاً، لذلك لم يتمكن رشيد باشا في ربيع ١٨٣٥ من القيام بهجومه ضد الأتراك.

في نهاية عام ١٨٣٥ قرر مير محمد ـ بعد أن تأكد أنه لن يكون هناك على المدى القريب أي هجوم تركي ـ أن يعيد محاولة احتلال بعض المناطق الايرانية الآهلة بالسكان الأكراد. ولأنه لم يرغب الدخول في صراع مع الإيرانيين فقد اكتفى بإرسال بعض فصائله المسلحة، وحدد مجال تحركها في منطقة سولاوز فقط. كانت صعوبات الوضع الاقتصادي في تلك المنطقة من إيران تزيد من ثقة مير محمد في الانتصار.

في نهاية تشرين أول عام ١٨٣٥ أبرق كادينتس، القنصل الروسي في تبريز، في رسالته الدورية إلى روزين عن نشاطات مير محمد الكثيفة في منطقة سولاوز. ويشير ن. أ. خالفين «أن الأكراد المحليين ساعدوا دخول قوات مير محمد إلى راوندوز آملين بذلك تحسين وضعهم الاقتصادي المزري».

كان الشاه يستعد ببطء لمقاومة الأكراد، ولم تكن الإجراءات التي اتخذها تهدد مير محمد بأي خطر جدّي.

وأخبر كادينتس، دون أن يكون واثقاً، روزين بما يلي: «ثمة إشاعات في تبريز تفيد بتحرك فصائل مدفعية تحت قيادة مامد ـ سارتيبخان لمعاقبة مير راوندوز».

ولو فرضنا أن الإشاعات كانت صحيحة فما كانت فصائل الشاه القليلة تلك لتشكل خطراً على مير محمد. إضافة إلى أن قدوم الشتاء كان سيخلق مصاعب جمة

في وجه تقدمها. وفي الواقع أوقف الطرفان العمليات الحربية مع قدوم فصل الشتاء.

لقد عقد رشيد باشا ـ اثناء الاستعداد للقيام بهجوم ضد الأكراد في ربيع ١٨٣٦ ـ اتفاقاً مع حاكمي بغداد والموصل علي رضا باشا ـ ومحمد باشا، انضما بموجبه إلى قوات جيشه، وهما الحاكمان اللذان طالما تشوقا للقضاء على مير محمد وباقي قادة الأكراد، ولذلك استجابا لرغبة السلطان وقراره، وشرعا في اعداد قواتهم اعداداً متيناً.

لقد قرر علي رضا باشا، مستغلاً استعداد الحملة ضد الامارات الكردية أن يقضي أخيراً على امارة بابان التي كانت السبب الأساسي في تعقيد العلاقات بين تركيا وايران. إن علي رضا باشا، الذي تعين حاكماً في بغداد بدلاً عن داوود باشا، قام على رأس جيش كبير بالهجوم على أحمد باشا أمير بابان واستطاع بسهولة أن يطرده من السليمانية إلى ايران.

لقد حوّل حاكم بغداد السليمانية إلى مركز إداري ومقر «للقائمقام». وكان عبد الله باشا أول من عين فيها، ينتمي عبد الله باشا إلى الأمراء البابانيين وبعد مرور بضع سنوات أزيح عبد الله باشا وعُين مكانه قائم مقام تركي. ويعتبر عام ١٨٥١ عام القضاء النهائي على ولاية بابان.

قرر رشيد باشا أن يوجه الضربة الاساسية الرئيسية الى الاكراد لذا وزع جيشه إلى قسمين: القسم الأول، وهو الأساس، تحت قيادته، وتضاف إليه قوات بغداد والموصل، ومهمته ضرب جزيرة بوطان. إذ كان عليه وهو في طريقه إلى راوندوز إخضاع بدرخان بيك حليف مير محمد.

ومن أجل تأمين انتصار القوات التركية في هذه المنطقة كان على القسم الثاني من الجيش بقيادة حافظ باشا أن يتحرش بقوات خان محمود حليف بدرخان بك حتى لا يمد الأول المساعدة للثاني. ومن ثم تتجمع القوات التركية في منطقة العمادية لتوجيه الضربة القاضية للخصم.

إن ظروف التفتت الاقطاعي وحالة العداء بين القبائل الكردية، وخيانة بعض زعماء تلك القبائل، ساعدت رشيد باشا في حربه ضدهم. وأعطته نتائج ملموسة.

وتعرضت القرى الكردية على طريق جيش رشيد باشا للنهب والدمار، وخاصة قرية حسنكو الواقعة على ضفاف دجلة بين ديار بكر وجزيرة بوطان. وعلى الرغم من

تفاوت القوتين فلقد أبدى الأكراد على مدى أشهر عديدة مقاومة عنيفة في وجه الجيش العثماني.

صدّ بدرخان في البداية، وهو ينتظر فصائل حليفه خان محمود [عشرون ألف من الأكراد والآشوريين والأرمن] هجوم القوات التركية، ومع ذلك تطورت الأحداث لصالح خصمه، إذ استطاعت القوات التركية بقيادة حافظ باشا أن تقطع الطريق في الوقت المناسب أمام قوات خان محمود عندما قامت بوضع مخفر قوي في قرية تللوقريبا من مكان عبور قوات خان محمود على نهر دجلة، مما أفشل محاولة خان محمود عبور الجسر المعرض لقصف المدفعية، ولم تنجح المحاولات الأخرى في عبور النهر بعيداً عن الجسر بسبب الفيضانات الربيعية.

كانت خسائر الأكراد المسلحين بالرماح والخناجر كبيرة أمام قصف المدفعية. ورجع خان محمود، بعد فشله في الوصول إلى بدرخان بيك، إلى جبال أرطوس جنوب بحيرة وان وبدأ هناك يعيد بناء قواته.

أما بدرخان بيك، فقد أرغم على التراجع إلى جبال جودي حيث لم تستطع القوات التركية بلوغها.

قرر رشيد باشا فتح نيران المدفعية على مدينة الجزيرة. وبعد قصف المدينة وتدميرها، قام الجنود بنهبها وسلبها، ويشير باروناك - به فير وخان، الذي زار المنطقة عام ١٨٤٧، أي بعد مضي عشر سنوات من الحادث قائلاً: «لقد تهدم اكثر من نصف المدينة وتحولت البيوت إلى انقاض. . . وفقدت المدينة بريقها السابق. . .».

كان على الأكراد أن يحاربوا في ظروف قاسية لأن الخونة من قادتهم العارفين باسرار الممرات الجبلية على مشارف تحصينات بدرخان بيك، كانوا يقومون بدور الدليل للقوات التركية. هذا فإن خيانة عدد من القادة سهلت، إلى حد كبير احتلال الأراضي الكردية.

ومع ذلك فقد لاقت قوات رشيد باشا في طريق تقدمها، مقاومة عنيفة من قبل السكان. واعاق الهجوم المفاجيء للأنصار الأكراد على قوافل المؤن تقدم القوات التركية في جبال كردستان. استطاعت القوات التركية، بواسطة الحصار الطويل المستمر احتلال التحصينات الصغيرة. وعلى حد قول غ. فولتكه، كان على الجنود الأتراك أن يحاربوا من ٣٠ إلى ٤٠ يوماً لاحتلال كل حصن كردي في قمم الجبال.

مع اقتراب الجيوش التركية من المناطق الكردية الواقعة تحت سلطة مير محمد، بدأ الأخير الاستعداد جدياً لصد الهجوم. كان عليه أن يبعث فوراً، ضد الاتراك، فصائل بقيادة أخيه رسول بيك وكذلك بقيادة سعيد حسن واسماعيل بيك بادينان (كان اسماعيل بيك قد تصالح في هذا الوقت مع مير محمد). وريثما توصلت هذه القوات لمقابلة الأتراك، كان رشيد باشا، الذي تقدم من الموصل باتجاه العمادية، قد دمر العديد من القرى الكردية، وأحرق الأخضر واليابس في طريقه. لم يلاق الأتراك أية مقاومة في مدينة العمادية، لأن اسماعيل بيك الذي كان مكلفاً بحمايتها، كان حينها في الشمال الشرقي منها بهدف اعادة بناء القلعة الاستراتيجية المهدمة في قرية نيراوا. ترك الأتراك حامية صغيرة في العمادية وتابعوا تقدمهم. ويؤكد حسين حزني موكرياني مستنداً إلى الوثائق، على أن رشيد باشا قد قام، في أثناء الطريق، بجمع الزعماء الأكراد ورجال الدين وغيرهم، وأدخلهم خدعة في قرية كاراراب ثم قتلهم جميعاً. وارسل اسماعيل بيك، رداً على هذه الوحشية شاباً اسمه «جارنه غاب» للانتقام من رشيد باشا ولكنه لم يوفق...

حاصر اسماعيل باشا، بعد أن تلقى الدعم، مدينة العمادية، حيث كانت الحامية التركية. وتوجه برسالة رسمية إلى الملا الرئيسي في مدينة الموصل، وكذلك إلى سكان العمادية يدعوهم فيها ألاّ يدعموا الخصم التركي ويذكرهم بوحشية الخصم وقساوته.

وسرعان ما استولى الأكراد ثانية على مدينة العمادية. فأرسل رشيد باشا إلى العمادية فصائل جديدة أخرى. خسر الأتراك أثناء المعارك الأولى، ثم جمعوا قواهم وتوجهوا ثانية إلى العمادية وخسروا هذه المرة أيضاً. تلقى مير محمد بارتياح أنباء انتصارات الأكراد، وعاد اسماعيل بيك بحفاوة إلى داهوك...

غير أن رشيد باشا لم ينو التخلي عن تحقيق مهامه التأديبية، لاسيما وأن عدد جنوده كان يفوق عدد جنود الخصم.. واستمر رشيد باشا بعد أن نظم ووحد جميع الفصائل الواقعة تحت قيادته، في احتلال مناطق كردية أخرى، فوصل إلى زاخو ثم إلى عقرا مدمراً كل شيء في طريقه. لقد دافعت عقرا عن نفسها ثلاثة أشهر، لان بير يال جاويش كان قد نظم حماية المدينة تنظيماً جيداً، ومع ذلك سقطت المدينة بسبب خيانة أكراد عشيرة زيباري. ولم يبق لمير محمد، على الطريق إلى راوندوز، أية

تحصينات منيعة هامة فقرر أن يستفيد من الخلاف التركي الايراني. وطلب المساعدة من ايران..

إلا أن الحديث عن امكانية المساعدات الايرانية لم يكن وارداً للأسباب التالية:

١ ـ لأن ايران ذاتها كانت تستعد لمعاقبة الأمير الكردي نتيجة اعتداءاته المتكررة على أراضيها... وسيطرته على عدد من القبائل الكردية.

٢ ـ لأن انكلترا وروسيا كانتا تعرقلان ذلك عرقلة جدية، وكان لهما التأثير في ذلك الحين على كل من تركيا وايران.

لقد كتب كادينتس في آذار ١٨٣٦ في رسالته إلى الوزير الروسي المفوض في ايران ي. سيموفتش مايلي: «أخذ الامير نظام حاكم أذربيجان، فور وصوله إلى تبريز، بتشكيل الجيوش، وسيرسل قسماً منها إلى طهران للاشتراك في حملة ماغاميد شاه المقررة ضد غيرات، والقسم الثاني سيتجه لمعاقبة أمير راوندوز الذي اقتحم، مع القبائل الكردية الخاضعة له، حدود ايران منذ وقت قصير..».

وفي عام ١٨٣٦، عندما بات واضحاً للأوساط الايرانية عن بداية الحملات التركية ضد مير محمد، قررت هذه الأوساط أنه قد حان الوقت المناسب للقضاء على مير محمد. فبدأ الامير نظام في تبريز الاعداد لحملة ضد مير محمد. كان الأمير نظام يدرك أن عدم توفر التجهيزات الحربية والمؤن العسكرية سيعرقل تشكيل قواته، وبما انه كان يدرك موقف روسيا في هذه المسألة فقد توجه إلى ي. سيموفتش يرجوه المساعدة. ولقد أخبر سيموفتش في خطابه المؤرخ في تاريخ (١٤ حزيران ١٨٣٦ ـ روزين بما يلي: «بدأ الأمير نظام نشاطه الآن بتنفيذ جميع الأوامر. وقد كلفني بهذه المناسبة أن أطلب منك جدياً كي تقدم للحكومة هنا، من أقرب مخزن لأسلحتنا، ما يلزمها من حشوات القنابل والرصاص»، ولبت السلطات الروسية العسكرية في القفقاز هذا الطلب وأرسلت للأمير نظام حاجته من الاسلحة..

كانت انكلترا مهتمة هي الأخرى بقمع الحركة الكردية، فساهمت في ذلك مساهمة فعالة، إذ نسقت النشاط الايراني التركي ضد الأكراد، وحاولت، بشتى الوسائل تسوية العلاقات بينهما. وقام ممثل انكلترا بوساطة ناشطة بين رشيد باشا والامير نظام، وحقق هدفه... إذ اعطت القيادة الايرانية موافقتها على العمل سوية مع جيش رشيد باشا. وكان السكرتير الأول للبعثة الانكليزية في تبريز النقيب شبيل

قد كلف بتحقيق هذه المهمة . وفي تموز ١٨٣٦ سافر شبيل من تبريز إلى معسكر رشيد باشا . .

بينما كان الانكليز ينظمون الهجوم التركي الايراني الموحد ، جاءت هزيمة مير محمد في ضواحي (عقرا) وأماكن أخرى لترغمه على ألاّ ينتظر نتائج مهمة شبيل ، وأن يسرع في الهجوم على الأتراك . . . .

حاول مير محمد أن يلجأ إلى الحيلة . . . فحمّل عمه هدايا ثمينة وأرسله إلى حاكم اذربيجان الامير نظام الذي كان حينذاك متمركزاً في معسكر / لاخيجان / بالقرب من الحدود ، التركية الايرانية ، بهدف الحصول على المساعدات العسكرية ، أو على الأقل على ضمان عدم تدخل القوات الايرانية . . . ووعد مير محمد أن يدفع للشاه إذا ما ساعده اتاوة سنوية كبيرة . . . لم يوافق الامير نظام على مطاليب مير محمد ولكنه تقبّل الهدايا الثمينة . . .

لقد اتخذ الامير نظام شخصياً في لاخيجان تدابير اقامة العلاقات مع رشيد باشا ، واقترح مراراً على الاتراك الهجوم المشترك ضد مير محمد . . . إلا أن رشيد باشا الذي كان ينتظر بمتعة نجاحات المستقبل ، لم يرغب في أن يتقاسم أكاليل الانتصار مع أي كان ، وخاصة مع ممثل ايران الذي أضر أكثر من مرة ، على تعويض خسائر الايرانيين أثناء هجوم مير محمد على الحدود الايرانية . ولهذا فإن جميع اقتراحات الأمير نظام حول العمل المشترك لاقت الرفض القاطع من قبل رشيد باشا .

واكتفى الامير نظام بأنْ طَرَدَ جميع الحكام الذين عينهم مير محمد من لاخيجان وبقية المناطق الكردية في ايران ، وسلب عدداً كبيراً من مواشي أكراد تركيا الشيء الذي اثار سخط السلطات التركية . .

وجه رشيد باشا قواته كافة إلى راوندوز . . أما مير محمد ، فبعد أن عزز مشارف المدينة ، خاصة شِعاب علي بيك استعد لصد الهجوم . . كان ينوي أن تكون الضربة الحاسمة في معركة سهول / حرير / . خرج الجيش الكردي (٤٠ ألف مقاتل) بقيادة أحمد بيك ، وهو أخو مير محمد ، لمواجهة القوات التركية . . . فتراجعت القوات التركية تحت ضغط وحدات احمد بيك . . حينها لجأ رشيد باشا إلى الحيلة . . . كان يعرف ان مير محمد رجل متدين جداً فبعث إليه برسالة دينية يدعوه فيها ألا يكون

السبب في سفك الدم الإسلامي وألا يهاجمه اسم الخليفة المقدس. وتلقف البعض تلك الرسالة وراح يقنع مير محمد بتجاوز المشكلة دون سفك الدماء... وهنا يتفق المؤلفون الاكراد جميعاً على الدور الشائن الذي لعبه الملا خاطي في معسكر مير محمد... ومهما بالغ المؤرخون في دور الملا خاطي في هزيمة مير محمد، إلا انه ثمة حقيقة واضحة تقول إن خرافات متعددة ساهمت مساهمة فعالة في خسارة المنتفضين الاكراد ونهاية الأحداث.

ولجأ الاتراك العسكريون، عندما رفض مير محمد جميع الاقتراحات والمفاوضات، إلى حيلة جديدة تقول ان كل من يقاوم جنود السلطان انما يثير غضب الله[1]..

ثم برز صراع عنيف بين مير محمد والملاخاطي، وانتهى بأن الملاخاطي، جواباً على رفض مير محمد القبول بالمفاوضات، اعلن فتوى: «من يقاتل ضد قوات السلطان فهو كافر، وزوجته بلا شرف». لقد جردت هذه الفتوى عملياً جنود مير محمد من سلاحهم. فظهر للتو الكثير من حوادث الامتناع عن القتال ضد الاتراك. وبنتيجة الخيانة فتح اكثر من ممر إلى راوندوز. قاوم مير محمد، المحاصر في قلعته وقتاً طويلاً، ولكنه أرغم على الاستسلام في نهاية آب ١٨٣٦، بعد نفاد المياه والمواد الغذائية لدى قواته.. وتعرضت قلعة راوندوز، حيث كانت جميع ممتلكات مير محمد، إلى نهب كبير. بعد احتلال راوندوز خرج حاكم بغداد على رضا باشا المساهم في الحملة من المدينة، وظل حاكم الموصل محمد باشا مع عدد من فصائله في راوندوز...

لقد عامل رشيد باشا مير محمد صاحب الشهرة الكبيرة باحترام. وأرسله، بقرار من السلطان، اسيراً إلى استنبول. وكما يشير الأمير نظام للقنصل كادينتس فإن مير محمد حاول الهرب في الطريق، إلا انهم القوا القبض عليه بسرعة، وأوصلوه، تحت حراسة شديدة إلى العاصمة حيث استقبله السلطان محمود الثاني بحفاوة... ثم اخلى سبيله... بل سمح له بالعودة إلى كردستان!.. كان السلطان يرغب في التخلص من هذا الرجل الهام والخطير بأكثر الطرق غدراً.[2]

---

١ ـ انظر صديق الدملوجي. امارة بهدينان أو امارة العمادية. الموصل ١٩٥٢، صفحة ٦٧.

٢ ـ انظر. محمد أمين زكي. مشاهير الكرد وكردستان. القاهرة ١٩٤٧ ص ١٤٨.

عين مير محمد، عندما أسر وارسل إلى استنبول، أخاه أحمد بيك، حاكماً في مكانه. غير أن الصراع على المناصب، بعد مقتل مير محمد، بدأ بين الأقارب واستغلته السلطات التركية استغلالاً فعالاً، فتجزأت، على اثر ذلك جميع الأراضي التي كان قد وحدها مير محمد. وراح سكانها يبحثون عن الدعم من جانب الأتراك... وساعد الوضع الناشىء حكام الاتراك على ممارسة سياستهم الشهيرة - تأليب البعض على الآخر...

وتوترت العلاقات بين أحمد بيك وأخيه سليمان بيك. ولكي يحكم المنطقة بهدوء، ألقى أحمد بيك القبض على أخيه وزجه في السجن... وانفصلت مناطق اخرى كانت خاضعة لمير محمد.. إذ ضم حاكم السليمانية احمد باشا بابان، مناطق رانيو وميرغاور ومالاغو، إلى ممتلكاته. وكانت مدينة أربيل وضواحيها تابعة لمحمد ميراف، وظلت زاخو وداهوك في يد اسماعيل بيك بادينان. وبقيت العمادية، كالسابق، تحت سلطة رسول بيك.

واغتيل احمد بيك بعد ثلاث سنوات من الحكم، وانتقلت السلطة إلى جماعة سليمان بيك، فأطلقوا سراح الأخير وعينوه بدلاً عن أخيه.

ان استمرار الخلافات الداخليه، التي بدأت منذ عهد مير محمد، أرغم الأكراد السارهانيين على عزل الانتقامي سليمان بيك، واستلام السلطة مؤقتاً. وخلال سنتين من حكم هؤلاء، قل التوتر فعلاً، وعاد، بعد المفاوضات، رسول بيك إلى راوندوز واستلم الحكم... وانتقلت سلطة العمادية إلى سعيد بيك. واعترف والي بغداد برسول بيك حاكماً في حرير، وشير وان وبالاكان، وبرادوست وراوندوز.

ان المؤرخين الأكراد في القرن العشرين، أثناء حديثهم عن الامارة التي اسسها مير محمد، لا يغضون الطرف عن اسباب سقوطها.

وعلى العموم، لابد، في أثناء تقويم نشاط مير محمد، من الاشارة إلى أن التدابير التي اتخذها في مجال توسيع وتوطيد سلطته كانت تشهد على رغبته في انشاء امارة اقطاعية مستقلة، بما يتناسب مع طموحات أوسع قطاعات الشعب في التحرر من النير العثماني البغيض. واستغل مير محمد الاسباب الاجتماعية والقومية لسخط الاكراد على السلطات التركية وحاز على دعمهم وتأييدهم.. واستطاع ان يحظى بتأييد الفلاحين وصغار التجار لأنه عمل ضد انتشار النهب والفوضى. وقد قيم عالياً

كل من فريزر . وروس وشهود عيان آخرين طموحات مير محمد من أجل سيادة النظام والسلام في بلده . . وأشار روس ، وهو أول أوربي زار راوندوز إلى علاقات السكان الطيبة معه . . وإلى دهشته من سؤال مير محمد ، أثناء اللقاء معه ، حول وضع التعليم في انكلترا[1] .

وعلى الرغم من الوضع الدولي الملائم ، وزيادة سخط الجماهير الشعبية على السلطات العثمانية ، لم يتمكن مير محمد من اقامة سلطة قوية ، تتصدى للخصم على الأراضي المحررة . . . وتخلى الكثير من الاقطاعيين الأكراد وزعماء العشائر ، عن مير محمد ، عند أول هجوم ناجح للقوات التركية وعند أول خسارة للأمير . . . بل حاربوا ضده .

كما ان الهجوم المشترك للقوات التركية الايرانية وموقف الحكومات الأوربية العدواني ساعد إلى حد كبير في هزيمة مير محمد . . .

* * *

لم تقتصر القوات التركية على احتلال مدينة راوندوز ، بل تابعت تقدمها أكثر إلى تلك المناطق التي لم يعترف سكانها بسلطة السلطان ، ورفضوا التجنيد الاجباري . واستمر التنكيل بالسكان الآمنين ثلاثة أشهر . . وتشير الاحصاءات انه قد قتل اكثر من عشرة آلاف كردي ، ونهب وأحرق العديد من القرى الكردية . ومن جهة اخرى ، يؤكد بوجول أن الجيش التركي خسر أثناء المعارك مع الأكراد بضعة آلاف من جنوده . ويؤكد شهود عيان على أن معنويات الجنود الاتراك كانت منهارة تماماً ، وظروفهم الصحية كانت في غاية السوء . وقضى الوباء على حياة عدد كبير من الجنود . . . وتؤكد احصاءات غ . مولتكه ، أنه قد مات ، بسبب المرض ، أثناء حصار القلاع الكردية ما يقارب ٣ ـ ٤ آلاف من الجنود الاتراك . وكان الوباء يشكل الخطر الأكبر حينها على حياة الجنود حتى ان الباب العالي أرغم على ايقاف الهجوم مؤقتاً . وفي كانون الثاني ١٨٣٧ مات بالكوليرا قائد الجيش التركي رشيد باشا في ديار بكر ، وعين حافظ باشا بدلاً عنه ، فنكل بالاكراد بوحشية أكبر . .

---

١ ـ انظر : محمد أمين زكي . تاريخ الامارات الكردية في العهد الاسلامي . القاهرة ١٩٤٥ ، صفحة ٤١٠ .

ثم تابع الجيش التركي في صيف وخريف عام ١٨٣٧ عملياته الحربية ضد الأكراد. وقرر أن يبدأ بأكراد بوطان، لأنهم انتفضوا وطردوا الوالي التركي الذي عينه رشيد باشا، بعد سقوط مدينة الجزيرة عاصمة الولاية في يده، وأعادوا استقلالهم..

وأوكل قمع الانتفاضة في بوطان إلى باشا ديار بكر، الذي لم يكن تحت قيادته قوة حربية كبيرة. وكانت قواته منهكة بعد هجومها على الجزيرة. ولم يكن الوضع أفضل لدى جنرال الخيالة الاتراك مير زا باشا، الذي حاصر مدينة ماردين ١٨ شهراً. ويكتب انيسورت ما يلي: «في مثل هذا الوضع المتأزم، ومن أجل استخدام الجيش وتجنيد جنود جدد، واخفاء حقيقة الوضع، تُظمت حملة جديدة ضد اكراد سنجار...».

كانت حملة سنجار بقيادة حافظ باشا الذي نكل بالسكان تنكيلاً وحشياً. دحر جيشه القرى واغتصب النساء وقتل الأطفال والشيوخ. ثم انتقل حافظ باشا، بعد حملة سنجار، إلى هجوم جديد ضد أكراد المناطق الشمالية، الذين استغلوا عمليات القوات التركية في سنجار وانتفضوا استعداداً للدفاع... وقيم شهود عيان تلك الحملة في خريف ١٨٣٧ بأنها كانت «شاقة ومنهكة». وكان يعيش حينها في معسكر القوات التركية الانكليزيان: العقيد كونسايد والنقيب كيمبيل، إضافة إلى ضباط بروسيين كانوا يدربون الجنود

لقد سقطت القلاع الكردية، بعد أن عجزت عن صد غزوات القوات التركية المتتالية. وظل على أرض احدى المعارك قرابة ١٥ ألف قتيل كردي.

إلى جانب التصفية الجسدية للسكان الاكراد، قام حافظ باشا بتهجيرهم إلى أقاصي المناطق التركية في غرب الامبراطورية، ليتخلص إلى الأبد من الأكراد الابرياء... وهاكم كيف يصور بوجول الشاهد على تصرف حافظ باشا مع ٤ آلاف أسير كردي: «على بعد خمسين خطوة من أركاخ، وعند سفح تلال «آلاجا ـ داغا» الملتهبة، يقف ٤٠٠٠ أسير كردي من مختلف الأعمار... لم يكن لديهم ما يقيهم حر الصيف الشديد. كانوا يخفون وجوههم في الرمل هرباً من أشعة الشمس الحارقة. كان معظم هؤلاء الرجال والنساء والأطفال عراة.. وقلة فقط في ثياب بالية.. وكانت صور العذاب واليأس تلف الوجوه كافة. وكانت الأنات العميقة وعويل النساء ونديهن وصراخ الأطفال الصغار وبكاؤهم يقطع نياط القلوب. لقد ذكروني، في

حالتهم المريعة تلك، بعذابات جهنم. . وهكذا مكث البؤساء ٦ ايام. طعامهم يقتصر على قليل من الخبز الأسود الجاف. والماء كانوا يشربونه من نهر ضحل مجاور. جف صدر العديد من الامهات. مات في الأيام الأولى ٢٠ طفلاً رضيعاً. وكانت كل واحدة من الأمهات البائسات تحتضن طفلها الذي فارق الحياة إلى صدرها الضامر، بيدين واهنتين، وكأنها، من غمرة الذهول، لا تصدق أنه قد مات»[1].

كان الاسرى الأكراد ينتظرون قرار حافظ باشا، بإرسالهم إلى مالاطيا أو مناطق أخرى من الامبراطورية. . مات الكثير منهم من الجوع والتعب أثناء الطريق. وكانت حياة العبودية بانتظار الآخرين. ويذكر بوجولا، في مذكراته وانطباعاته عن آسيا الصغرى، أن المرء كان يصادف، في كل مكان، قرى مهدمة خاوية، ومحاصيل لم تجمع بعد. . احرقتها الشمس فسببت مجاعة كبيرة في كردستان. . . وامتلأت الوديان بجثث الأكراد. . .

وعلى الرغم من الأوضاع القاسية، استمر الأكراد في المقاومة. ودافعوا ببأس في قلاعهم المحصنة. ومن أهم المعارك في تلك الأثناء. . تلك التي قام فيها الأكراد في ٨ آب ١٨٣٧ بتحصين موقعهم على قمة احد الجبال وصد هجوم القوات التركية المتفوقة عليهم بالعدد. دافعوا نحو ١٢ ساعة، ثم أرغموا بعد القصف المدفعي الشديد على التراجع ليتركوا أكثر من ١٥٠٠ قتيل وجريح على أرض المعركة. كان لهذا الانتصار أهمية خاصة بالنسبة للأتراك، إذ تمكن حافظ باشا من أن يقضي على واحد من أقوى مراكز المقاومة الكردية. ويعتبر بوجول تلك المعركة «حاسمة ونهائية». .

وتحمل الأكراد الاسرى التعذيب بكل رجولة، ونظروا بازدراء إلى زعماء الأكراد الخونة الذين وقفوا إلى جانب الخصم. . لقد بذل حافظ باشا جل جهوده لارغام زعماء الأكراد الاسرى، على خدمة الباب العالي ومساعدة الجيش العثماني، مستخدماً بذلك اسلوب الترهيب والترغيب.

1- poujoulat B. voyage dans L'Asie mineure, en mosopotamie, a plamyre, en syrie, en palestin et en egypte, T. 1-11 Paris 1840 -1841 p. 377-378.

ويحدثنا بوجول عن بطولة شاب كردي وقع في أسر حافظ باشا. استدعى الباشا الشاب الوسيم واستقبله بحفاوة. ثم حاول أن يحصل على بعض الاعترافات واعداً إياه، لقاء ذلك، برتبة عقيد. وكان جواب الشاب الكردي الفخور: «أبداً، لن أصبح قائداً لجيش غريب، وإذا ما أصبحت قائداً على احدى فصائلك فلكي أوجه سلاحها ضدك. الله يعلم أنني لست خائناً. ولن تسمع أبداً الاعتراف الذي تنتظره، لقد أوقعني سوء الحظ بين يديك فافعل بي ما تشاء». أغضب جواب الشاب حافظ باشا. ولم تستطع ٥٠٠ ضربة جلاد أن تحطم إرادة الشاب الشجاع. ويتابع بوجول قائلاً: «طلب الكردي الممدد على بطنه غليوناً، فلبوا طلبه... رفع الشاب رأسه بهدوء وأخذ يدخن. دهش الجلادون من قوة الارادة هذه، أوقفوا الضرب اكثر من مرة، وانهالوا عليه بالأسئلة.. ولكنه ظل صامتاً. سأله حافظ باشا: «مابك لا تجيب، ألا تسمع كلماتي؟» رفع الشاب رأسه ونظر شزراً إلى خصمه ثم أجاب بهدوء: «الحمد لله، لست أصم، إلا أن لساني أخرس».

سأل حافظ باشا القاضي: «ماهو العقاب الذي يرغمه على الكلام؟». حينها، لف وجه الأسير كبرياء شامخ، وصاح مشيراً إلى أحد الأكراد الواقفين أمامه قائلاً: «لا توجد هناك عقوبة أقسى من أن ترى أمام عينيك هذا الكردي السافل.. الذي خان شعبه واستسلم للخصم..» فتناول الكردي الموجه إليه الكلمات مسدسه، وأطلق النار على الأسير..».

استمرت القوات التركية في اخضاع المناطق الكردية، حتى وقت متأخر من الخريف إلى أن كست الثلوج الممرات الجبلية.

ويشير انيسورت إلى ان القوات التركية لم تستطع، على الرغم من انتصارها، تحطيم طموحات الشعب الكردي إلى الاستقلال. وعند رحيل الفصائل التركية من المناطق المحتلة، كان سكان تلك المناطق يطردون جنود وموظفي الاتراك المعينين هناك.

بنى حافظ باشا لنفسه بيتاً شتوياً في اطراف مدينة مالاطيا، وسمح للجنود بنهب المدينة.. فموّل الجيش نفسه، خلال الشتاء كله، ما كان ينهبه من السكان. وبدأ حافظ باشا، في بداية الربيع في اخضاع المناطق شبه المستقلة الواقعة جنوب بحيرة وان. ويؤكد انيسورت أن الحملة الربيعية الصيفية عام ١٧٣٨ كانت تنقسم إلى

حملتين: الاولى كانت موجهة ضد اكراد اكتشا ـ داغا، والثانية ضد اكراد جبال طوروس.

قاوم أكراد اكتشا ـ داغا حافظ باشا ببسالة. وبعد حصار دام أربعة أيام احتلت القوات التركية قلعة كورناك، فقتلوا كل الرجال، وأرسلوا الذكور من الأطفال إلى استنبول، وساقوا النساء إلى مالاطيا.

وفي آذار ١٨٣٨، أرسل حافظ باشا قواته ضد الزعيم الكردي القوي سعيد بيك، الذي لم يعترف منذ أكثر من ٥ سنوات، بسلطة السلطان، فقد كان يجمع الضرائب لنفسه. وساعدت خيانة بعض زعماء الأكراد على نجاح عملية الجيش التركي التأديبية. ويصور غ. مولتكه، المسؤول الشخصي عن تنظيم الحصار، كيف تم احتلال قلعة سعيد بيك.

كانت القلعة تقع على قمة جبل شاقولي المنحدرات تماماً. وبينما كانت الفصائل التركية تتقدم باتجاه القلعة، أخذ سعيد بيك مع ٢٠٠ رجل من رجاله الأوفياء بتحصين موقعه، في انتظار ظهور الخصم. في اليوم الأول من الحصار، رفض القسم الأكبر من الجنود الاكراد المتواجدين ضمن فصائل حافظ باشا الاشتراك في العملية. وتركوا معسكرهم. وكي يتعرف على مكامن القلعة، خرج غ. مولتكه في الليل ودار حول القلعة، وحدد أماكن تثبيت المدافع. أقام حافظ باشا معسكره في الجنوب ناحية مدخل القلعة.

في ٨ أيار عام ١٨٣٨، تلقى حافظ باشا دعماً جديداً لقواته مؤلفاً من ٧ كتائب تضم ٤٠٠ من المشاة و ١٥٠ خيّال، و ٨ مدافع.

فتحت المدفعية التركية، في ٩ أيار، نيرانها على الأكراد المسلحين بالبنادق فقط. فأعلن سعيد بيك، بعد معارك غير متساوية، عن تسليم القلعة وممتلكاتها. ويكتب غ. مولتكه ان سعيد بيك الذي سلّم القلعة «لم يطلب الرحمة، لأن الرحمة لا تهدى لخاسر، ولكنه عرض الصداقة التي من الممكن قبولها من شخص لم يزل قوياً بعد...».

نهب الجنود الاتراك القلعة، ونكلوا بالأكراد بوحشية. يكتب مولتكه في مذكراته ما يلي: «التقيت عند البوابة كردياً يحمل أخاه الجريح. أخبر في أنه جريح لليوم السابع... طلبت من ممرض الكتيبة أن يسعفه ولكنه أجابني: «غير أن هذا كردي

«وكرر ذلك مراراً بصوت عال، وكأنه أراد القول: «ألا تفهم أنك تطلب المستحيل».

كانت القيادة العسكرية التركية حاقدة ليس على اسرى الأكراد المعادين لها فحسب، بل وعلى حلفائها من الأكراد أيضاً. . . وكانت ترسل الفرسان في أثناء المعارك. . أو المشاة الأكراد إلى أخطر المواقع. . ويشير مولتكه أن أغلب ضحايا القوات التركية كان خلال حصار قلعة سعيد بيك، من الأكراد الحلفاء.

. ذهب حافظ باشا القلعة ثم أصدر أمراً بهدمها وحرقها. . واستمرت النيران ثلاثة أيام بلياليها. . ودمرت نهائياً كي لا يتسنى لاحد اعادة بنائها واستخدامها من جديد. ويكتب مولتكه بهذا الخصوص: «ان احتلال هذه القلعة الصغيرة المهدمة حالياً من اساسها، لا يشكل أهمية كبيرة، إلا أنه كانت واحدة من أهم مراكز المقاومة ضد الباب العالي. . .».

بعد أن تخلص حافظ باشا من سعيد بيك، قام في حزيران عام ١٨٣٨ بجمع قواته والتوجه صوب موش ـ خازو. . وانضم إليه قومندان ديار بكر مع قواته (٣٠٠٠ مقاتل). . . كان معظم اهالي تلك المنطقة من الارمن والأكراد، الذين رفضوا دفع الضرائب للباب العالي، وامتنعوا عن تجنيد ابنائهم في الجيش التركي. .

ورأى قادة الاتراك العسكريين أن عليهم أن يحاربوا ليس من أجل فك حصار القلاع الكردية واحتلالها فحسب، بل ومن أجل الفوز بكل قرية وبكل ممر جبلي. .

وتنفيذاً للخطة المرسومة كان على الفصائل التأديبية المتحركة من الجنوب والشمال والغرب أن تقمع الانتفاضات في مناطق جنوب غرب بحيرة وان. وتوحد الأرمن والأكراد تحت قيادة حاجي زلال آغا في وجه الخصم المشترك في مناطق ساسون وغيرها. . . واشترك الرجال والنساء والفتيان في المعارك. ويستشهد غ. مولتكه بأمثلة على مساهمة الكرديات في المعارك: طعنت احداهن عسكرياً تركياً حاول الهجوم عليها (١٠٨، صفحة ٢٥٥). . وتحولت كل قرية إلى قلعة. وازدادات المقاومة عنفاً خاصة في مناطق غونج وبيكران وراشكوتان (١١٩ صفحة ٥٣). وأبدى أهالي خازو وخاني والقرى المجاورة لهما، تحت قيادة رجب بيك وتيمور بيك، مقاومة باسلة مستخدمين الملاجىء الجبلية ضد جيوش حافظ باشا. . . إلا أن الأهالي لم يستطيعوا، بأسلحتهم البسيطة القليلة ونظامهم الضعيف، الاستمرار في مقاومة القوات العثمانية المزودة بالمدافع. .

لقد قمع حافظ باشا، مثل سلفه رشيد باشا، سكان كردستان بالسيف والنار. وإليكم كيف يصورغ. مولتكه تنكيل القوات التركية بأهالي احدى القرى: «ذُبح القسم الأكبر من الأهالي. وهرب الباقي. فبدأ الجنود بنهب البيوت.. توجهتُ إلى حافظ باشا، حيث كان يراقب المعركة من فوق رابية صغيرة ويستلم الغنائم والأسرى. كانت الدماء تسيل من جروح الرجال والنساء. والرضع والأطفال قطعت آذانهم ورؤوسهم.. كان الجندي يتلقى لقاء عمله الوحشي ذاك من ٥٠ إلى ١٠٠ قرش. كان منظر كرب الرجال الصامت وحزن النساء الدامي منظراً قاسياً يمزق القلب» (١٠٨ ص ٢٤٧).

يعترف مولتكه إنها كانت حملة مليئة بالفظائع، غير أنه يحاول بكل الوسائل تبرير أعمال الحملات التأديبية التركية متذرعاً ان حافظ باشا كان مرغماً على اللجوء إلى مثل تلك التدابير مع الاهالي الذين لم يخضعوا له وأبدوا المقاومة في حالات كثيرة. (١٠٨ ص ٢٥٦ـ ٢٥٧). كانت حملة حافظ باشا ستستمر في كردستان، لولا وقوع أحداث دولية هامة..

على أثر عدم اعتراف السلطان بحق الوراثة لمحمد علي باشا في مصر وبقية المناطق التي حررها كان لا بد من نشوب نزاعات عسكرية بينهما. وبما أن انكلترا كانت مهتمة جداً بالنزاع المذكور فقد عقدت معاهدة مع تركيا في عام ١٨٣٨ بهدف تسويق بضائعها إلى الشرق الأوسط (٥٣ ص ٦٦) وفتح الممرات المصرية أمامها.. وسعرت النزاع العسكري بين تركيا ومحمد علي باشا، امر السلطان محمود الثاني، جواباً على حشودات محمد علي باشا القديمة في سوريا، يوقف العمليات الحربية في كردستان والتوجه صوب الحدود التركية السورية..

وبهدف الحاق الهزيمة بالمصريين، اعلن السلطان التجنيد في الجيش التركي في شرقي الأناضول باسره.. وشكل القادة، بسرعة، فصائل عسكرية في ارزيروم وبغداد وغيرها. ومع ذلك فإن الاستعداد للعمليات الحربية سارت ببطء شديد..

كان جيش حافظ باشا، في نهاية حملته على الأكراد، كما يؤكد شهود عيان، مهلهلاً منهوك القوى.. ويعترف انيسورت، الذي راقب عمليات جيش حافظ باشا في كردستان ان «الجنود كانوا مرهقين ومرضى بسبب سوء التغذية والطقس

القاسي . . ومات المئات . . انهارت معنويات الجيش وفقد فعاليته» (٨٧ ص ٢٩٥) .
وعلى الرغم من ذلك، أمر السلطان حافظ باشا بأن يتقدم بجيشه ضد المصريين .

لم يستطيع الاتراك تشكيل فصائل قوية موحدة ضد محمد علي . وانتهت المعارك في حزيران ١٨٣٩ بخسارة الجيش العثماني . لقد اثرت هزيمة القوات التركية على مجرى الأحداث في كردستان تأثيراً مباشراً، وبدأت الاضطرابات من جديد . .

الفصل السادس

وضع كردستان في أربعينات القرن التاسع عشر، وانتفاضة بدرخان بيك.

انتهت المرحلة الأولى من «احتلال» كردستان في عام ١٨٣٩، واقيمت الادارات التركية في العديد من المناطق، واصبح الباب العالي المسؤول الذي يعين السلطات في تلك المناطق. وكان ذلك واحداً من اهم انجازات السلطان في مجال مركزة الادارة في البلاد.

ينظر معظم المستشرقين الاوربيين إلى هذه التدابير في المناطق الشرقية على أنها نهاية التخلف والفوضى. وهكذا كان يعتقد الدبلوماسيون الاوربيون الذين كانوا بعيدين عن الاحداث في كردستان.. إلا أن ي. ن. بيريزين، ف. ف. وديتيل. لاحظا، بعد زيارتهما للمناطق «المحتلة» بعد مضي سنوات عديدة من حملة حافظ باشا، لوحة مغايرة تماماً، إذ كان الفساد والفوضى يسودان كالسابق.. «أشار العالمان الرحالان الاوربيان فالمير اير وليبارد بمرارة أن الادارة السابقة كانت أفضل بكثير من الحالية. سأل فالمير ايرسؤالاً واقعياً: «هل ربحت البطريركية من هذه المؤسسة الجديدة ـ قلعة من الخارج، ورفاهية ورخاء من الداخل؟» وأجاب على سؤاله: «بدلاً من الادارة البطريركية ـ ظهر وازداد عدد الزعماء. ووصل طغاة متوحشون من استنبول لكي يعيدوا التزامات اجورهم المهنية بأرباح زائدة في مدة وجيزة»[١]. أما

---

١ ـ من كتاب: بيريزين ي. تركيا المعاصرة ـ «مخطوطات وطنية». ١٨٥٦ صفحة ٣٩٧.

بير يـزين فيستشهـد بكـلام فالميرايـر لكنـه لا يوافقـه على تسميـة سلطـة الحكـام بالبطريركية كان يرى أن الشر الاساسي لا يزال مستمراً بفارق وحيد وهو أن «الباشا يمكن أن يتعرض حالياً للإنذار والتفتيش والغرامة وحتى التغيير أو العقوبة الكبرى».

كيف بدت سلطـة البـاشـا وعلى أي اساس اعتمدت؟ نقرأ الجواب على هذا السؤال في كتـاب بير يـزين «تـركيـا المعـاصرة»: «يتسلم القسم الأكبر من الباشوات مناصبهم دون اعـدادهم لهذه المهمة. ان هذه المناصب تشترى كلها بدون استثناء. وإذا كان الباشا لا يملك ثمن منصبه، يلجأ حينها إلى أحد أغنياء الأرمن ليدفع المال بدلاً عنه لقاء استلامه الضرائب من مداخيل منطقة الباشا: فأصبحت الأرض تنهب من طرفـين وليس من طرف واحـد كما ان مجلس الـوزراء، الـذي حصل على حصته سلفاً من هذا النهب، لم يكن يتـدخـل في شؤون البـاشـا: وشكاوي القرية لم تجد لها آذانـاً صاغيـة عنـد السلطـان أيضـاً، لأن قسماً من الضرائب كانت تذهب إليه... ويختتم بير يـزين حديثـه: «من اين انحـدرت عادة الـرشوة هذه التي لا تقهر..؟ انها استغلال لا انساني جشع..!».

لقـد شجعت أسـاليب الموظفين الوصولية وتنافسهم غير الشريف واستغلالهم من قبـل الغـير، الفوضى والفساد في البلاد وأرهقت كاهلها. من كان يعرف مسؤولاً مقرباً من السلطان كان بوسعه أن يفوز بأفضل منصب. أما رضاء المسؤول ذاك فكان رهنـاً بحجم الـرشوة. يصور خالد أفندي، السياسي التركي آنذاك، صراع الموظفين باسلوب مجازي قائـلاً: «كـانت السلطة مثل برج المنارة، تتسع لشخص واحد فقط: وكـان على الـذي ينجح في الـوصـول إليه ألاّ يسمح لغيره بالوصول، كي لا يقع هو ويتحطم على جسر سوء الحظ».

ولم يتمكن البـاشـوات وحـاشيتهم البـير وقـراطية المرسلة من استنبول، وعلى الرغم من ممارسة القمع والاستغلال من اخضاع الاكراد في تلك المناطق..

لقـد تميز محمـد باشـا حاكم بغداد بوحشية خاصة، واشتهر بين الأكراد بأعماله الدموية: كان «المتهم» يُوضع على الخازوق أمامه. كتب بير يزين.. «عندما رجع محمد باشا من حملته ضد الأكراد وضع في بوابات المدينة، عدداً كبيراً من الآذان التي

قطعها من رؤوس المنتفضين بعد قتلهم . . وأنذر جميع السكان في بير وجوك بالخازوق إذا انتفضوا ولو مرة واحدة . . ». وينهي بير يزن حديثه بأسف عميق قائلاً : «يستحيل على المرء أن يحصي جرائم الادارة العثمانية كافة . . ». . كانت الفصائل التأديبية ترسل إلى القرى لأقل مقاومة ، وتنزل العقاب بالصغار والكبار . . ».

ازداد الاستبداد والفساد ، والتنكيل الفظيع للسكان في المناطق الخاضعة لسلطة محمد باشا إلى درجة أن «الباب العالي» أرغم ، خوفاً من النقمة الشعبية ، على اتخاذ بعض التدابير «الرادعة» . فشكل في الايالات والسناجق مجالس من زعماء السكان المحليين . . إلا أن التدابير لم تعط نتائج ايجابية . إذ تحولت المجالس ذاتها إلى مصدر لشر جديد . ويكتب بير يزين بخصوصها . «كان المسؤول فيها ينفذ التدابير المرضية له على الفور ، وأما التدابير التي كانت تهم الناس فكانت ترفض ولو بصوت نائب واحد من المجلس» .

لم يرضخ السكان الأكراد لسياسة النهب والاستبداد والعبودية . وأدركوا بدقة ، ضرورة النضال الحازم ضد السلطان والسيطرة العثمانية . وهجر الذي لم يرفع لواء الكفاح المسلح ، أرضه إلى مناطق بعيدة . . كتب المستشرق الروسي متحدثاً عن وضع الأكراد البائس في تركيا ما يلي : «ازداد عدد الأكراد منذ بعض الوقت في سوريا بشكل واضح . انهم يأتون إلى هنا من «كردستانهم» الجبلية ، وينتقلون بقطعان مواشيهم من مكان إلى مكان . .

يعتمد مؤلف مقال «الأكراد» على غ . مولتكه ، ويلخص الاسباب الجديدة لنهوض الأكراد بعد حملات رشيد باشا وحافظ باشا في نقطتين :

١ ـ أعباء الضرائب والاستبداد في أثناء جمعها .

٢ ـ التجنيد الاجباري .

وعندما احتل رشيد باشامدينة سيرت كانعدد سكانها ٦٠٠ عائلة . طلب الاتراك منهم ٢٠٠ مجنداً فاختفت العديد من العوائل هرباً من تنفيذ هذا القرار . . ».

وتحول نشاط الأكراد العفوي إلى حركة تحررية جدية أصبحت مدينة بوطان مركزها ، وبدرخان بيك زعيم الامارة في الجزيرة ، قائدها . .

وتناقضت الاراء حول سمات الانتفاضة الكردية في بوطان ودور بدرخان بيك فيها .

الانتفاضة من أجل استقلال بوطان

كان نفوذ السلطة التي ورثها بدرخان بيك تمتد على أراضي بوطان الواسعة كافة . . واستطاع بدرخان بيك، على الرغم من صغر سنه، أن يثبت سلطته ويشتهر لدى زعماء الاكراد المجاورين لامارته . . لقد تعززت سلطته بفضل النظم التي سنها في مناطق الامارة . .

تمكن بدرخان بيك، في الثلاثينات، أن يتجنب النزاعات المباشرة مع قوات رشيد باشا ويحافظ على قوته العسكرية الهامة . ثم بسط سيطرته ليس في بوطان فحسب، بل وسعها إلى أماكن اخرى، حتى أن باشوات بغداد والموصل كانوا يحسبون له ألف حساب . وأما في منطقة دياربكر، وعلى الرغم من تعيين ادارة تركية هناك، كان السكان الاكراد وزعماؤ هم يخضعون لسلطة بدرخان بيك . . .

كان باشا بغداد يتعامل مع بدرخان بيك في غاية الحذر، وينتهز جميع الفرص ليعبر عن مدى تعاطفه معه . كتب ف . ديتيل ما يلي : «بعث باشا بغداد، بحضوري، إلى بدرخان بيك، ثوباً ثميناً، وجارية حسناء، وسرجاً رائعاً وبعض الخيول»[1]، وردّ بدرخان بيك الجميل لباشا بغداد، معبراً له عن امتنانه ليس كتابع له، بل كند وحاكم مستقل . . ساعد بدرخان بيك باشا بغداد في الاوقات العصيبة التي مر بها وهذا ما زاد استقلاله عنه .

كان ممثلو السلطة التركية يتابعون، بحقد دفين، تزايد قوة بدرخان بيك ولكنهم لم يرغبوا في محاربته علناً . على أن بدرخان لم يخف امر استقلاله عن الباب العالي . كان الحاكم المطلق في امارته، ولم يكن يحبذ استقبال ممثلي الحكومات الأوربية بفرمانات السلطان . كان يعتبر إهانة له أن يزوره ضيف بقرار من أحد ما . . وهذا ما قاله العقيد الانكليزي ك . رينش لـ ديتيل عندما أنذره أن لايسافر أبداً إلى بدرخان بيك بفرمان من السلطان، لأن بدرخان بيك «لا يحب أوامر حكومة السلطان، ويدير شؤون امارته كما يحلو له، دون أن يسأل أحداً أو يقدم له الحساب» . ان لهذا الحديث

---

١ - ديتيل ف . مذكرات رحلة الشرق . (١٨٤٢ - ١٨٤٥) مكتبة المطالعة ١٨٤٩ . صفحة ٢٠٨ .

الذي أدلى به رينش لـ ديتيل، والذي سجله الأخير في مقاله عن بدرخان، دلالته الواضحة، لأنه يعطينا صورة عن علاقة «المرؤوس» الحقيقية مع السلطان. يقول رينش: «وصلت إلى الجزيرة عاصمة بوطان. فرغبت أن ارتاح في هذه البلدة أو القرية. ثم سألت: هل ثمة أحد امكث عنده؟ دلّوني على الخان وقالوا إن بوسعي الذهاب إليه. فذهبت وبعثت من يبلغه ان سائحاً أو مبعوثاً انكليزياً يريد مقابلته (كنت في الحقيقة، مبعوثاً حينذاك بشأن المسألة الفارسية التركية). سمح لي بمقابلته.. دخلت وفي يدي فرمان السلطان. تقدمت نحوه ولكنه ظل جالساً.. وأخيراً قرر الجلف أن ينهض. اعطيته الفرمان، قرأه، ونظر إلي، وأخذ يناقشني وأنا واقف (انهم في الشرق، يرغمون العبيد فقط على الوقوف، ويدعون الضيف للجلوس مهما كان بسيطاً، ثم يقدمون من القهوة أو الغليون، أو القهوة وحدها - وذلك تبعاً لأهمية الضيف ومقامه..). وبعد مدة من وقوفي سألني بدرخان بيك ماذا أريد؟ تصوروا!، يا لها من وقاحة!.. قلت له انني قدمت أطلب منه مساكن أعيش فيها مع من معي.. فأجابني بفظاظة: قدمت تطلب مني؟ مساكن؟ وفي يدك فرمان السلطان! وهل عندي مأوى لمبيت القوافل؟ ثم هل أنا العمدة؟ وماهذا الفرمان. أنا لا أعرف أي سلطان.. من يكون هذا السلطان؟ هاه؟.. وما علاقتي بالسلطان وفرماناته؟ أنا المالك الوحيد هنا، استقبل من أريد، استقبله ضيفاً وليس حامل فرمانات».

لقد تجلى «خضوع» بدرخان بيك للباب العالي في الهدايا التي كان يرسلها إلى السلطان أو يستلمها منه فقط. كان يرفض دفع الضرائب الحكومية، وتقديم المجندين رفضاً باتاً. كان له جيشه الخاص يتصرف به كما يشاء. كان اكراد بوطان يطيعون بدرخان بيك ويخدمونه باخلاص.. على أنه حظي بدعم الزعماء المجاورين له أيضاً. ولقد استغل بدرخان هزيمة القوات التركية أمام المصرية لتوسيع نفوذه. وأولى اهتماماً كبيراً لتوحيد العشائر الكردية المشتتة هنا وهناك، وأوقف النزاعات الداخلية بينها، واستطاع بسهولة اخضاع روساء العشائر الصغيرة كافة. ولحسن حظ بدرخان بيك كان قد قتل أو نُفي معظم زعماء العشائر الكردية المجاورة له، في أثناء الحملة التأديبية التركية سنة ١٨٣٨. وأما الأهالي الذين تعرضوا، منذ وقت قريب، لتعسف القوات التركية الوحشي، فقد وجدوا في بدرخان بيك، منقذاً وحامياً، كما

وساعدت بدرخان بيك ظروف اخرى وهي ان قسماً من القوات التركية كان مكلفاً حينها بقمع الانتفاضات العربية في بلاد الرافدين.

وعلى الرغم من وجود عداء قديم بين حكام هكاري وحكام بوطان، تمكن بدرخان بيك من تسوية العلاقات مع أمير هكاري نور الله بيك، وعقد معه اتفاقية نشاط مشترك ضد الاتراك. ولكن الموقف كان أصعب بالنسبة لحاكم موكوس عبد الله خان الذي كان يحكم، مع اخوانه الستة مناطق شاسعة جنوب بحيرة وان. ولم تسفر المفاوضات بين بدرخان بيك وعبد الله خان إلى أية نتائج. وظل بدرخان يسعى نحو الاتفاق إلى أن أقنع عبد الله بتوقيع الاتفاقية[1]. وتشكل، بعد ذلك، اتحاد الزعماء الاكراد ضد السلطان، وانضم إليه حاكم وان خان محمود وهو أحد اخوة عبد الله خان (١٣١ صفحة ٤٥٣).

وسرعان ما شكل هؤلاء الزعماء «اتحاداً مقدساً» ودعوا إلى القيام بانتفاضة في وجه القوات العثمانية ومن أجل تحرير كردستان وتشكيل دولة حرة مستقلة. كان «الاتحاد المقدس» يضم مصطفى بيك ودرويش بيك، وخان محمود، ونور الله بيك، وفتاح بيك، وخان بيك من خيزان، وشريف بيك من موش، وزعيم العشائر الكردية في منطقة «قارسا كور» حسين بيك. وترأس الاتحاد بدرخان بيك وجذب إلى هذا الاتحاد الحاكم الكردي الكبير في ايران الوالي أردالان.. واسترعت هذه الظاهرة ـ انضمام أردالان ـ انتباهاً خاصاً لأنها تؤكد أن النضال من أجل تحرير الأكراد قد تجاوز، في تلك المرحلة، الحدود التركية إلى الايرانية..

لقد وضع بدرخان بيك حداً، للمناوشات الدموية بين بعض الحكام الاكراد مستفيداً لذلك من تأثير شخصيات معروفة من العلماء والشيوخ والحكماء الذين نشروا أفكار بدرخان بيك. ويذكر المؤرخ بله ج شيركو أن من بين أولئك الحكماء وأكثرهم شهرة كان شيخ محمد من الموصل، وشيخ يوسف من زاخو.

ويستشهد البوبادجان بمعلومات تفيد أن أعضاء «الاتحاد المقدس» كانوا قد وقعوا اتفاقية تحدد المناطق التي سيحكمها كل منهم بعد تأسيس الدولة المستقلة.

---

١ ـ انظر، بله ج شيركوه، القضية الكردية. القاهرة ١٩٣٠ صفحة ٤٠.

ونصت بنود الاتفاقية أن يحكم خان محمود مناطق ـ فوستان وكواش وشاتاخ وجاتاك وموكوس. ومصطفى بيك منطقة وان، ونور الله بيك منطقة جولاميرك وقسماً من أراضي كردستان ايران..

بدأ أعضاء «الاتحاد المقدس» بتحصين القلاع الموجودة في أراضيهم وترميم المهدمة منها وبناء قلاع جديدة، وبزيادة عدد جيوشهم والاهتمام بتسليحها.

كان لابد من تأمين اسلحة جديدة للجيش الكردي. وكان الحصول على كميات كبيرة من السلاح صعباً للغاية. وأما الخناجر والحراب فما كان بوسعها أن تؤمن الانتصار على الخصم في حال معارك جدية معه.. لذا قرر بدرخان بيك، مثل مير محمد، أن يبني اعتماداً على ثروات كردستان الغنية مصانع لانتاج السلاح. وبنى، بدرخان، بمساعدة الخبراء الذين استدعاهم خصيصاً، معملين في الجزيرة، الأول للبارود والثاني للأسلحة، وهذا ما عزز موقفه بين زعماء العشائر الكردية، ولكي يكون له اخصائيون عسكريون موثوقون أوفد بدرخان بيك بعض الشباب للتخصص في أوربا (١٤٤ ص ٤٢) وكان بدرخان قد خصص في برنامجه السياسي مكاناً هاماً للعلاقات المتبادلة مع الشعوب التي عاشت قروناً طويلة مع الأكراد مثل الأرمن والآشوريين. ورأى بدرخان بيك أهمية جذب السكان الأرمن الاشوريين إلى النضال المشترك ضد الأتراك، واعتقد أنه بذلك سيحظى بتأييد جارته الشمالية روسيا (١٣٧ ص ٨٦). كان بدرخان بيك ينوي، بعد تأسيس كردستان المستقلة، التوجه صوب إيران، وكان لديه اسباب كافية لهذا، لا سيما وأن خلافات الحدود بين ايران وتركيا، في الثلاثينات، ادت إلى تعقيد العلاقات بينهما. وكما يكتب شاخبازيان فإن بدرخان بيك كان يرغب أن يضم إلى دولته مناطق: وان وبدليس وموش وديار بكر. وخصص مكاناً كبيراً للأرمن في دولته المستقبلية، وأخذ بالاعتبار تأثير التجار والمهنيين الأرمن في الحياة الاقتصادية ووعدهم أن يسلمهم ادارة الامور الاقتصادية.

كان جيش بدرخان بيك يضم إلى جانب الاكراد، عدداً كبيراً من الأرمن أكثرهم من سكان /ديخ/. لاشك أن الاقطاعيين الأكراد اضطهدوا وظلموا الفلاحين الأرمن، إلا أن ظلمهم لم يأخذ من حيث الاساس، طابعاً قومياً أو دينياً بقدر ما أخذ طابعاً طبقياً شمل الفلاحين الأكراد أيضاً..

ويؤكد ا. يرميان، أن الأرمن والكرد كانوا في وضع متشابه عند الاقطاعيين: «كان زعماء العشائر الكردية ينهبون غالباً، في أثناء الحروب، ويقتلون أحياناً الخاضعين المهزومين بغض النظر اكراداً كانوا ام مسيحيين. . والجدير بالذكر ان أي زعيم أو اقطاعي كردي كان يدافع بكل امكاناته حتى آخر رمق عن صاحبه الأرمني، ويحميه من جشع موظفي الدولة المتوحشين. . في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي، في فترة سلطة الأكراد الذاتية، كان الكثير من الأرمن يشغلون مناصب المستشارين أو المساعدين لزعيم العشيرة أو للبيك، وكانت تربطهم علاقات وثيقة، وعاشوا في أمان تام. .» (١٣١ صفحة ٤٣٩ بالأرمنية).

ويقال ان بدرخان بيك شجع جداً التزاوج بين الأرمن والأكراد. (١٣٧ ص ٨٦ ـ ٨٧). يكتب شاخبازيان عن موقف بدرخان بيك من الأرمن ما يلي: «ان بدرخان بيك» الذي اعار مهمة القيادة السياسية جل اهتمامه، نظر إلى الأرمن نظرته إلى الاكراد، معتمدا على وجهة النظر المقنعة أوغير المقنعة، القائلة أن الأرمن والأكراد هم من أصل واحد ثم انقسموا إلى عشائر وديانات. . .» (١٣٧ صفحة ٨٨ بالارمنية).

ولكن ثمة حقيقة ثابتة تؤكد أن العديد من الأرمن قد انضموا إلى جانب بدرخان بيك وحازوا على ثقته وعملوا مستشارين له. ويشير كل من شاخبازيان وألبويادجيان إلى اسماء أولئك الناس، وكان بينهم بعض الأرمن المسؤولين ممن كانوا يفتخرون بأصلهم العريق، الذي حرمهم منه الاتراك. . لقد كان الأرمنيان ستيبان مانوغليان وأوغانيس تشالكزيان مستشارين لدى بدرخان بيك. أعلن س. مانوغليان أنه ينحدر من أصل ماميكونيان العريق، وقد حصل على تعليمه في المدرسة الايطالية في استنبول. كان يتقن الفرنسية والايطالية والتركية وغيرها من اللغات (١٣٧ صفحة ٨٨، و١٣١ صفحة ٤٥٨ بالارمنية). وكان الأرمني مير مارتومن باشقالا قائداً لاحدى فصائل بدرخان بيك. .

وقد كتب الدكتور ليبتسوس في مقاله «الأكراد والأرمن» المنشور عام ١٩٠٤ في مجلة «الشرقي المسيحي»، عن علاقات الصداقة بين الأكراد والأرمن ما يلي: «كانت تسود بين الأرمن والأكراد حتى ١٨٤٨ علاقات صداقة حميمة، وتم العديد من

حالات القران بينهم. كان الأكراد يحترمون جداً شعائر وطقوس الأرمن الدينية (١٣٧ صفحة ٨٧).

وأحتلت معالجة الأوضاع الاقتصادية في المنطقة مكاناً هاماً في برنامج بدرخان بيك، وتم التأكيد على: ١ ـ التأمين على حياة السكان وممتلكاتهم ووضع حد للنهب والسرقات في المناطق التابعة لهم. . ٢ ـ تنظيم جمع الضرائب.

وكان بدرخان يدرك جيداً أنه سيواجه السلطة التركية، في أثناء حله لهذه المسائل، وأنه سيفوز، في حال نجاحه في حلها، بشهرة واسعة بين الأهالي، وسيشتهر على أنه منقذ الناس من ظلم السلطات التركية وجورها.

وفي الواقع، فإن الناس في المناطق المجاورة لبدرخان، والذين عانوا من ظلم جامعي الضرائب وتعسف الغزوات التأديبية التركية قد استجابوا لتدابير بدرخان، علقوا الآمال على أن سلطته ستضمن لهم ظروفاً أفضل في العيش والعمل. . وانتقل الكثير من الاكراد إلى المناطق التابعة لسلطة بدرخان بيك. . . وكان ف. ديتيل غالباً ما يصادف، أثناء رحلاته في كردستان، مجموعات كبيرة من الأكراد في طريقها إلى بدرخان بيك (٣٥ صفحة ٢٠٧). ولكن ليس كل من استطاع الانتقال إلى جانب بدرخان أن يحمل هذا اللقب العالي: «كردي من جماعة بدرخان بيك» إذ كان ثمة شروط تفرض عليه أهمها ان يكون لديه حصان وسرج وبندقية ومسدس، باختصار كان عليه ان يكون مسلحاً تسليحاً جيداً وأن يحارب، أثناء الضرورة، في جيش بدرخان ضد الخصم. . وساعدت هذه الشروط على نمو جيش بدرخان بيك نمواً سريعاً. .

لقد ساعد موقف بدرخان الصارم من الجرائم والنهب على توطيد الأمن في البلاد. وكانت دهشة الأوروبيين كبيرة عندما كانوا يسافرون عبر أراضيه. وأكد المبشران الامريكيان رايت وبريس اثناء استضافة بدرخان لهما في مقره في ديرغون سنة ١٨٤٦ أنه ليس بامكان المذنب أن يتهرب من عقوبة بدرخان بيك. .

«لم يكن للرشوة والتزلف وما شابه ذلك من الامور التي غالباً ما يصادفها المرء في اماكن عديدة وجود في مناطق بدرخان بيك»، وكان يقطع يد السارق. . وكان مثل هذا الهدوء يسود في اكثر مناطق كردستان تخلفاً (١١٩ صفحة ٥٥).

ويشير ديتيل إلى الأمن في الطرق والهدوء في المناطق على خط مسيره من الموصل إلى ديار بكر ويصفها بأنها كانت آمنة تمام الأمان . . وكان هذا يبدو بالنسبة إليه شيئاً غير معقول . إذ أن المودعين الأكراد، عندما أرادوا أن يودعوا ديتيل خصصوا له مرافقاً واحداً، فلاحظوا الدهشة على وجهه، فأعلنوا له بثقة : «لا وجود للنهب والسرقة على أرض بدرخان بيك» (٣٥ ص ٣٦) .

ويعود ديتيل إلى ذلك اليوم فيتذكر الحديث بينه وبين المودعين قائلاً : «لم استطع أن أعبر لهم عن قلقي، وصرخت لا ارادياً كيف سأسافر هكذا؟ . . . فنظروا إلي بتعجب قائلين : «ألا تدري ان المرء عندنا يسافر دون مرافق . . ويقال هنا . . أن الطفل يسافر حاملاً معه الذهب، في أراضي بدرخان بيك ولا خوف عليه . . وأنت تخاف!» وكادوا يضيفون على ما يبدو «ألا تخجل! لقد اكدنا لك أنه لا أثر للنهب والسرقة هنا . وأراضي بدرخان بيك آمنة . سافر برفقة خادمك ولا تخف . . وإذا رغبت فسافر وحدك!» . كنت لا أكاد أثق . . ان في كردستان ثمة أماكن آمنة كلياً . . » (٣٥ صفحة ٢٠٥) .

ويكتب ديتيل، الذي تأكد فيما بعد من صدق تلك الكلمات قائلاً : «في الواقع لا توجد منطقة أكثر اماناً من هذه، وفي الوقت نفسه لم يكن هناك أخطر من طرق مناطق كردستان الأخرى حيث النهب والقتل لا يتوقفان» . (٣٥ صفحة ٢٠٥) .

كانت تلك أسباب شهرة بدرخان بيك، واسباب رغبة الأكراد بالتوجه من كل المناطق إليه، وخاصة الفلاحين البسطاء الذين كانوا يبحثون عن امكانية العيش والعمل في أمان . . . وحيث النظم الواضحة والدقيقة في فرض الضرائب وجمعها . .

كان كل فلاح ينتقل إلى منطقة بدرخان بيك يستلم قطعة صغيرة من الأرض لقاء مبلغ زهيد يدفعه للخان . . وكان يدفع كذلك مبلغاً صغيراً لقاء مواشيه . . . عموماً كان يدفع ثلث انتاجه للخان . وكانت واجبات الفلاحين قليلة جداً إذا ما قورنت بحجم الضرائب التي كانت تدفع في اماكن اخرى للإدارة التركية . .

تحدث الجميع عن نظم بدرخان بيك وقوانينه، ويتضح من حديث المبشرين الامريكيين أن بدرخان بيك كان يقدم المساعدات المالية لكل من يعاني من ضائقة مالية : «كان البيك يوزع المال على المئات من الأرامل والأطفال اليتامى، والضعفاء من الناس . فكان هؤلاء يرفعون بعدها انظارهم إلى السماء مباركين اعماله الخيرة . . » (١١٩ صفحة ٥٤) .

أما الحدث الهام في عهد بدرخان فكان سعيه إلى تنظيم الملاحة على بحيرة وان، ولاقت جهوده في هذا المجال التشجيع المطلق من السكان والحكام الأكراد من أنصاره. لقد شجعت الملاحة في بحيرة وان: ١ ـ التجارة في المناطق المجاورة للبحيرة. ٢ ـ سهلت الصلة بين حكام المناطق لتبادل المساعدات عند الضرورة. وبغية وضع اساس متين للملاحة، أوفد بدرخان الشباب إلى أوربا لدراسة اسس بناء السفن، لأنه كان ينوي بناء السفن اعتماداً على آخر ما توصل إليه العلم، ولاستخدامها في البحيرة بدلاً من المراكب الشراعية (١٣٧ صفحة ٨٨).

قرر بدرخان بيك، بعد تعزيز الوضع العسكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، وبعد تأسيس اتحاد زعماء العشائر الكردية، قرر أنه قد حان الوقت لإعلان الامارة الكردية المستقلة برئاسته. وتأكيداً على ذلك قام بسك عملته... ويشهد المؤرخ الكردي علاء الدين سجادي ان عبارة «أمير بوطان بدرخان» كانت على الوجه الأول للعملة، وعلى الثاني «١٢٥٨ هجرية». واعتبر بدرخان بيك مدينة الجزيرة عاصمة لامارته ورفع علمه فوقها.. وأقسم حلفاء بدرخان من الزعماء الأكراد على دعم الامارة الجديدة وحمايتها.. (١٥٠ ـ صفحة ٤٥).

وهكذا فقد اسس بدرخان عملياً امارة كردية مستقلة، الشيء الذي تميز بأهمية سياسية كبيرة.. واقتنع الباب العالي بعدها، بضرورة القضاء على هذه الامارة المستقلة ومعاقبة زعمائها بأقسى العقوبات.

العلاقات الكردية الآشورية

ودور المبشرين في تعقيدها

ان الأحداث العاصفة في كردستان، وامكانية استقلالها عن الامبراطورية العثمانية لم ترعب حكومة الباب العالي فحسب، بل وعدداً من الحكومات الأوروبية لأن ذلك يمس مصالح تلك الدول السياسية والاقتصادية مساً مباشراً...

كانت جمعيات التبشير الانكليزية والفرنسية والامريكية، تعتبر حلقة هامة لتنفيذ سياسة العالم الغربي الاستعمارية في آسيا وغيرها من البلدان المتخلفة، وذلك

عن طريق نشر البر وتستانتية أو الكاثوليكية، ساعية بذلك إلى التغلغل في حياة شعوب تلك البلدان. لقد قوّم لينين نشاط المبشرين مشيراً إلى أن الرأسماليين «يغطون، بدهاء، سياسة النهب بستار نشر المسيحية» (٣ صفحة ٣٧٩).

كانت الأجواء الملائمة للدعاية في تركيا متوفرة بين الشعوب المسيحية مثل الأرمن والاشوريين، ولأن الأرمن والآشوريين-والاكراد كانوا يعيشون معاً في العديد من المناطق، كان لا بد لنشاط المبشرين إلا أن يمس مصالح الأكراد أيضاً.

كان الأشوريون يعيشون أساساً في مناطق مابين هكاري وبوطان: طياري وتخوما، وجيلو، وباروازي ونيراوي وفي المنطقتين الأخيرتين كان الأكراد يعيشون مع الأشوريين (١١٥ صفحة ١٥٦).

بدأ نشاط المبشرين، الانكليز أولاً ثم الامريكان فيما بعد، في نهاية القرن الثامن عشر في الشرق الأوسط وتطور تطوراً عاصفاً في القرن التاسع عشر. ان الكاتب الامريكي ج. جوزيف مؤلف كتاب «النسطوريون وجيرانهم المسلمون» لم يكن يرغب في رؤية الاسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أدت إلى ازدهار حركة المبشرين، وكان يفسر ذلك على انه، «انتعاش الحياة الدينية» في بريطانيا، العظمى وأمريكا (١٠١) صفحة ٤٠).

وتجلت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه بتشكيل منظمات مثل: «الجمعية الكنسية التبشيرية» (تأسست في لندن سنة ١٧٧٩)، و«مكتب السماسرة الأمريكي للمهام الخارجية» (تأسس في امريكا سنة ١٨١٠). بدأ تعرف الامريكيين الأول على الاشوريين في عشرينات القرن التاسع عشر. وكان المنبر الدعائي الأول في أمريكا مجلة «ميشنيري جيرالد»، التي كانت تنشر بصورة دورية أخبار المبشرين وتقارير نشاطهم في الشرق الأوسط..

أعلن سميت ودوآيت، وهما من أوائل المبعوثين، اللذين سافرا من قبل «المكتب الامريكي» إلى الشرق الأوسط عام ١٨٣٠ عبر أرمينيا وكردستان، أن بوسع المبشرين ممارسة نشاطهم بين الآشوريين، بالدرجة الأولى، ممارسة جيدة. انهما إذ اعلنا ذلك استندا على الحفاوة التي استقبلا بها من قبل السكان المحليين من الآشوريين والأكراد..

كان الأشوريون النسطوريون، تابعين من الناحية السياسية شكلياً، للباشا الارزورومي، لكنهم عاشوا مع ذلك بين هكاري وبوطان، معترفين بزعامة بطريركهم مار شمعون، وبسلطة الأمير الكردي في هكاري. كانت هذه التبعية أقرب إلى الاتحاد منها إلى الخضوع، لأن المراقبة على الأشوريين كانت تتم عن طريق ملوكهم، الذين كانوا يشكلون مجلس مار شمعون لحل المسائل الهامة. وكان لهم ممثل في مجالس أمير هكاري أيضاً. وبما أن الأشوريين كانوا محاربين أقوياء، فقد كان يترتب على مار شمعون أن يقدم فصائل مسلحة من الآشوريين لأمير هكاري في وقت حملاته أو أثناء هجوم الأعداء عليه (١٠١، صفحة ٥٠). ولعب مار شمعون دوراً فعالاً في أثناء النزاعات الداخلية من أجل الوراثة في امارة هكاري.

كان يحكم امارة هكاري، في ثلاثينات القرن التاسع عشر نور الله بيك وكان مقره في باشقالا، وكانت الشخصية الثانية بعده ابن اخيه سليمان بيك في جوليميرك.

ويؤكد المعاصرون أن سليمان بيك كان، بعد وفاة والده، الوريث الشرعي للإمارة في هكاري، إلا أن نور الله بيك، الإنسان النشيط والمحب للرفعة، نجح في ابعاد جميع منافسيه وأصبح أميراً. وينوه ج. جوزيف أن مار شمعون الذي ظل وفياً لوالد سليمان بيك استمر يكن الود للابن أيضاً.

كانت العلاقات بين الأكراد والاشوريين في اربعينات القرن التاسع عشر في المنطقة الجبلية هكاري، علاقات صداقة وحسن جوار. غير أنها تصدعت بعد ظهور المبشرين ومختلف الممثلين الدبلوماسيين هناك، وتشهد الوثائق ان ممثلي الغرب مارسوا مختلف انواع الدسائس لبث الخلاف بين الآشوريين والاكراد. لقد كتب بيركينس عام ١٨٣٦ بهدف الدس، إلى مار شمعون ما يلي: «ان العذاب الذي تتحمله أنت وشعبك هكذا طويلاً في هذه المنطقة ما هو إلا نتيجة الظلم الاسلامي،.. وقد استرعى ذلك عطف الاشقاء المسيحيين في أمريكا وأثار اهتمامهم بالموضوع..» (١٠١ صفحة ٥١).

وفي عام ١٨٣٩ قام الطبيب المبشر غرانت بزيارة أمير هكاري والبطريرك الآشوري، وتمكن أن يجعل مار شمعون يميل إلى جانبه ويقيم معه علاقات وثيقة. وأقام غرانت كذلك علاقة صداقة مع نور الله بيك، حيث شاهده مريضاً في أول لقاء ثم عالجه. وقرر غرانت، بعد اللقاء الناجح مع البطريرك، تأسيس مركز للتبشير في

القرية الآشورية الكبيرة أشيتا. وكان مركز التبشير في أمريكا يدعم غرانت دعماً لا حدود له.. وكانت زيارة غرانت الناجحة إلى هكاري مفاجئة للأوساط الأوربية المهتمة، خاصة بالنسبة لانكلترا، لأن غرانت كان الغربي الثالث الذي «تسلل» إلى هذه البلاد صعبة البلوغ. كان الأول تافيرنير عام ١٦٨٩ والثاني شوكتس الذي قتل بشكل تراجيدي في الجبال... ان آفاق تأسيس المركز التبشيري، سمحت للجمعية الملكية الجغرافية ولجمعيات نشر التعاليم المسيحية بتمويل بعثة اينسفوت وراساما كي يقوما بدراسة كردستان، وخاصة دراسة «المقدمات الأولية لنشر المسيحية فيها» (١٠١ صفحة ٥٢).

لم يرغب غرانت تأجيل تحقيق نواياه، لاسيما وأن اصحابه الانكليز ما كانوا ليمتنعوا عن الاستفادة من نجاحاته. لذلك سافر ثانية إلى هكاري سنة ١٨٤٠.

ان تزايد اهتمام الاوربيين بالاشوريين، والمباحثات «العلنية» التي كان يجريها غرانت مع سليمان بيك ونور الله بيك، عن مستقبل نشاط المبشرين بين الآشوريين، كانت تبعث الخوف لدى الزعماء الأكراد. وبات واضحاً بالنسبة لأولئك الزعماء أن الاوربيين قد وعدوا الآشوريين بجميع أنواع الدعم والوصاية والحماية. على أن الآشوريين أنفسهم لم يخفوا ميلهم نحو «الافرنج» لاعتقادهم أن المبشرين المبعوثين من العالم المسيحي سيساعدونهم على تحقيق استقلالهم التام وايقاظ وعيهم الديني.. يتذكر اينسفورت في كتابه حديثه مع احد الاكراد، الذي سأله بشك عمن أوصله إلى هذه الديار وعما يبحث هنا. فتدخل المرافق الآشوري ليدافع عن الانكليزي وليجيب أنه هو الذي اتى به إلى هنا (٨٧ الجزء الثاني صفحة ٢٤٢).

ولم تتطور الاحداث اللاحقة في اتجاه تعزيز علاقات الصداقة بين مار شمعون والامير الكردي. حاول نور الله بيك، بواسطة الهدايا، أن يحصل على اعتراف باشا ارزيروم القاطع بسلطته في هكاري، وفي الوقت نفسه عرض على مار شمعون بعض الشروط التي تحرمه من السلطة الدنيوية على الآشوريين، وعرض عليه كذلك أن يمارس مسائل التربية الروحية لرعيته فقط، وسلّم أمر الدوائر الأهلية (للمليليك) الذين يجب أن يكونوا خاضعين للأمير نور الله بيك... وافق الكثير من «ميليك» على اقتراحات الأمير متهمين بطريركهم برغبته في استلاب السلطة الاهلية دون مبرر (١٠١ صفحة ٥٤).

كاد الصراع بين الأكراد والآشوريين أن يصل، في بعض الحالات إلى وقوع الحوادث والمناوشات. . ولم يحاول غرانت، المطّلع على الامور، حلّ الامور أو تسوية النزاع، لأنه كان يعتبر بأن القوضى ستجعل الاشوريين النسطوريين أوفياء اكثر «لكلمة الرب».

كان المبشرون مهتمين باساءة العلاقات بين الأكراد والآشوريين وجنّدوا عملاءهم من الأكراد المتعصبين وشجعوهم على تدمير مخطوطات الشعب الآشوري القديمة وآثاره الثقافية العريقة. ومن المعلوم كذلك أن الرهبان الكاثوليك نظموا اتلاف عدة آلاف من الكتب الآشورية في مكتبة الموصل (٥٢، صفحة ٢١).

ثم ساءت العلاقات بين الآشوريين والأكراد أكثر فأكثر، وذلك بعد قيام غرانت، سنة ١٨٤٢، بزيارة جديدة إلى القرى الآشورية. وبعد أن قدم، في أثناء مباحثاته، مع نور الله بيك وسليمان بيك، بصراحة وتفصيل، خططه في بناء مراكز تبشيرية في القرى الآشورية، وأبلغهم عن قدوم جماعة اخرى من أصحابه المبشرين الامريكان إلى هكاري. . أما غرانت، فقد استفاد من الظروف السياسية الملائمة، إذ كان الأكراد مشغولين في النزاع مع حاكم الموصل محمد باشا، وأخذ يبني مركزاً تبشيرياً في قرية أشيتا في منطقة طياري. كان البناء «من أجل مدرسة واحدة» كبيراً جداً ومحصناً بما فيه الكفاية. توصل ليبارد، الذي زار هذه القرية بعد سنوات عديدة بعد أن اطلع على اطلال تلك المنشأة، إلى قناعة بأنها لا تتوافق لا بموقعها ولا بحجمها مع المراكز التبشيرية (١٠٤ جزء، صفحة ١٥٦ ـ ١٥٧).

لقد ذاع خبر بناء المنشأة بلمح البصر. وشاع بين الأكراد نبأ يقول أن الأوروبيين قد بنوا قصراً للتبشير في كردستان (٣٩، صفحة ١٦). وتلقف العديد من الأكراد هذا النبأ وراحوا يثيرون به تعصب السكان الديني، على أن أحداث ١٨٤٣ لم تكن لصالح السكان الآشوريين لأسباب اخرى ايضاً منها: العداء المكشوف لامراء هكاري وبوطان وبهدينان تجاه مار شمعون. ولقد قام، في صيف ١٨٤٢ بدرخان بيك ونور الله بيك، الخليفان السابقان لحاكم بهدينان اسماعيل بيك، وتلبية لطلب الأخير بتقديم المساعدة له، لإعادة حقوقه الوراثية في امارة بهدينان. وتقدم اسماعيل بيك كذلك بطلب المساعدة من مار شمعون، الذي رفض ذلك، على الرغم من تقديم بعض العشائر الآشورية المساعدة لاسماعيل بيك في بهدينان (٩٠ جزء ١، صفحة ١٨٨، ٢٦٥).

ويفسّر موقف مار شمعون أنه نتيجة للظروف التالية: كان الدبلوماسيون والمبشرون الأوروبيون مهتمين إلى حد كبير في تعزيز دور السلطة التركية في كردستان، من خلال مؤسساتها الادارية، إذ ستساعد، هذه المؤسسات، حسب رأيهم في تسهيل التغلغل في هذه البلاد، أكثر من المباحثات مع الزعماء الأكراد.

وأقنع الأوروبيون مار شمعون بهذه الفكرة... وعمل غرانت في الاتجاه ذاته، وقد المح، منذ زيارته الأولى إلى هكاري، في تقريره «للمكتب الامريكي» إلى ضرورة اقامة سلطة حكيمة هنا. واكتسب نشاطه فيما بعد مغزى واضحاً، إذ كان يوحي لمار شمعون بأنه في حال تنكيل الأتراك أو الأكراد بالآشوريين، فإن الاتراك، كممثلي دولة رسمية سيتحملون مسؤولية كبيرة أمام دول الغرب المسيحية أكثر من الامراء الاكراد.

وطلب مار شمعون في رسالته الموجهة إلى القنصل البريطاني في بغداد، المساعدة عن طريق التدخل العسكري الأجنبي. لم يعترض القنصل على طلب مارشمعون، بل وعده أن يفعل كل ما بوسعه، غير أنه نصحه بأن يتجنب «العلانية المفرطة» في رسائله (١٠١، صفحة ٥٧).

مارس باشا الموصل، بتحريض من المسؤولين الأوروبيين، الضغط على مار شمعون. وكان حاكم الموصل مهتماً للغاية في تسعير النزاع بين الجارين المحاربين الشجاعين واخضاعهما أخيراً للسلطة التركية (٨٣٩، صفحة ١٧). ووعد الباشا في رسائله إلى مار شمعون أن يقدم له الدعم والمساعدة إذا ما تعرض لاضطهاد الأكراد (١٠١)، صفحة ٥٧).

كان حاكم الموصل، من ناحية اخرى، يشعر بالخوف من نشاط المبشرين الناجح وسط الآشوريين، ولم يكن راضياً عن بدئهم في بناء مراكزهم، معتبراً ذلك تقليصاً هاماً لنفوذه، وأفهم الأمراء الأكراد أنه لن يمنعهم إذا ما رغبوا في التنكيل بهؤلاء النسطوريين المخلصين جداً «للافرنج». وأبلغ الباب العالي عن أبنية المبشرين ووصفها بأنها قلاع محصنة.

ان تسعير حدة العداء بين الأكراد والآشوريين ما كان ليبشر بالخير. ففي خريف ١٨٤٢، وفي ظروف العلاقات المتوترة بين الأكراد والآشوريين، استقبل مار شمعون، ممثل البعثة الانكليزية بيجر. وكان على بيجر، الذي استغل غياب

الامريكي غرانت (كان حينذاك في الموصل)، ان يعزل الآشوريين ليس عن الأكراد بل وعن المبشرين الامريكان أيضاً. وكان مفوضاً من قبل حكومته بممارسة الضغط على مار شمعون.

كان مبشرو دول عديدة من العاملين بين الآشوريين، يحاولون ابعاد منافسيهم. هكذا مثلاً، تصرف المبشرون الامريكان مع مبشري الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ومبشرو انكلترا مع الامريكان. ومنذ عام ١٨٤٠، يحاول انيسفورت، أثناء لقائه مع مار شمعون أن يبرهن على اخلاص الكنيسة الانكليزية للعقائد المسيحية، ويهاجم الامريكان لتفسيرهم الحرفي للمبادىء المسيحية وتأسيسهم مذهباً جديداً. (انظر ٨٧، صفحة ٢٤٨ ـ ٢٤٩). واتبع بيجر السياسة ذاتها وبعلانية أكثر. وكتب في كتابه فيما بعد قائلاً: «لقد عملت من أجل تعريف البطريرك على الفرق الكبير بيننا وبين الامريكان في مجال المذهب ونظام القانون. إضافة إلى انني لم أخف عنه أنه من غير المقبول والمرضي لنا أبداً تواجد المدارس الامريكية بين شعبه إلى جانب مدارسنا. وأرشدته إلى البرنامج الذي عليه اتباعه في الظرف الراهن» (٩٠ جزء ١ صفحة ٢٤٨).

وبنفس الحدة ناقش بيجر مسألة رفض مار شمعون التام للاعتراف بأولوية سلطة أمير هكاري. ولقد سجّل موقفه في الرسالة التي وجهها إلى «جمعية نشر الكتاب المقدس»: «لقد سلب امير هكاري الآشوريين استقلالهم. وإذا لم نقدم المساعدة في الوقت المناسب للسكان المسيحيين، سراهم خاضعين كلياً للبرابرة الأكراد» (٩٠ جزء١، صفحة ٢٤٨).

جاء نشاط بيجر أثناء استعداد الأكراد السريع للانتفاضة ضد السيطرة العثمانية. وكان بدرخان بيك ينوي، بتوقيعه اتفاقيات مع كبار امراء الأكراد، أن يجذب إلى جانبه حلفاء جدد ومن ضمنهم مار شمعون...

بذل المبشرون جميع جهودهم لتعقيد العلاقات الكردية الآشورية ولعرقلة جميع المساعي التي كانت تدعو إلى حل الخلاف عن طريق المفاوضات... وساءت العلاقات إلى درجة كبيرة. ثم وقعت أحداث مؤسفة راح ضحيتها العديد من السكان الآشوريين الابرياء، الذين حملوا السلاح ودافعوا ببسالة، لكنهم، وفي الواقع لم يستطيعوا الصمود أمام قوات الخصم المتفوقة.

ويشير المراقبون، أثناء دراسة اسباب النزاع الأشوري الكردي، إلى دور المبشرين الامريكان والانكليز الخطير في اشعال النزاع وتسعيره.

نهاية حكم بدرخان بيك

كان الباب العالي ينتظر ريثما ينهك الشعبان بعضهما في الحرب الداخلية كي يتسنى له اخضاعهما دون أية صعوبة.

لقد أرغمت مطاليب الحكومات الأوروبية من السلطان، وطموحات بدرخان إلى الاستقلال، السلطات التركية على اتخاذ تدابير حاسمة ضد الزعيم الكردي. وتم تكليف المشير حافظ باشا بأن يقنع، عن طريق المفاوضات، بدرخان بيك بالاعتراف بحكم السلطان. فتوجه المشير، الذي كان مقره في ارزيروم، إلى العالم الكردي الشهير محمود بيازيدي ليقوم الأخير بدور الوساطة في اجراء المفاوضات بين بدرخان بيك وحافظ باشا. ويؤكد آل ـ جابا القنصل الروسي في ارزيروم بان محمود بيازيدي قد نفذ مهمته وأن المشير كان راضياً من ذلك (١٠٠ ص ٩).

بعد مضي فترة من الزمن أرسل حاكم ارزيروم كامل بيك محمود بيازيدي إلى هكاري لاجراء المفاوضات مع نور الله بيك، ويؤكد جابا ان كامل بك أيضاً كان راضياً عن مفاوضات محمود بيازيدي مع نور الله بيك..

وفي هذه الفترة تمكنت السلطات التركية من دعوة خان محمود، الذي لم يكن يعرف غير اللغة الكردية، إلى ارزيروم حيث استقبل بحفاوة. وانضم محمود بيازيدي إليه كمترجم ومرافق. ولكن عندما عاد خان محمود إلى هواس (تبعد ١٠ كم عن بحيرة وان)، قام بالانتفاضة وطرد الموظفين الاتراك (١٠٠ ص ٩).

وانتاب كامل بك الشك في أن محمود بيازيدي له يد في الانتفاضة، فاعتقله مدة ١٥ يوما. وعلى الرغم من «الخدمات» التي قدمها محمود بيازيدي[١] للأتراك، فإنه لم يحظ مع ذلك بثقتهم الكاملة

---

١ ـ ساعد محمود بيازيدي آل ـ جابا في جمع المخطوطات الكردية من القرون الوسطى وتدوينها. وكان يمارس عملاً ثقافياً تربوياً بين الشبيبة الكردية من خلال مؤلفاته العلمية والادبية باللغة الكردية. وقد توسط بين الأكراد والاتراك بدافع ابعاد النزاع المسلح...

قام الحكام الاتراك، بقرار من الباب العالي، بتقديم الهدايا إلى الزعماء الأكراد، واقناعهم بأي شكل كان بالخضوع لحكم السلطان، ولكن المحاولات جميعها باءت بالفشل...

يؤكد المؤرخ لطفي ان ممثلين رسميين قد توجهوا أكثر من مرة، من قبل السلطان إلى بدرخان بيك، في محاولة التأثير عليه. فقد سافر إليه مراراً عضو البلاط الشهير كمال باشا ولكن لم تثمر النتائج عن شيء..

تم تعيين عثمان باشا قائداً للقوات التركية في الأناضول. ومنذ شهر آذار ١٨٤٧ كتبت الجرائد التركية كافة عن الحملة المقبلة ضد الأكراد. فقد كتبت الجريدة الأرمنية «أرشاشا لويس أراراتيان» عن ذلك في نشرة موجزة دورية: «ان الحكومة العثمانية لم تتمكن بقواها البشرية المخيفة من اخضاع بيك البرابرة (تقصد بدرخان بيك)، وتستعد الآن لارسال جيش كبير ضده بقيادة عثمان باشا، وسيدعمه، عند الضرورة حاكم ديار بكر، خير الدين باشا. (١٦١، العدد ٢٨١).

أعلن عثمان باشا، فور وصوله إلى ارزيروم، التجنيد العام للجيش. ومنذ أواسط أيار ١٨٤٧ كان الجيش التركي مستعداً للهجوم. ثم بدأت قوات عثمان باشا في أوائل حزيران التقدم من الشمال. قامت أولاً بتصفية المقاومة من جانب حلفاء بدرخان في شمال الجزيرة، وكانت الضربة الأولى موجهة ضد عبد الله خان في منطقة «موكوس». وبعد أن أحتل الاتراك أراضي عبد الله خان اعتقلوه ونفوه، مع عائلته إلى جزيرة رودوس (١٣١ ص ٤٥٨) وبعد مدة من الزمن استسلم مصطفى بيك أيضاً.

تحركت قوات عثمان باشا، في هجومها على بدرخان في انساق ثلاثة: تولى قيادة الجناح الأيمن عمر باشا، وتسلم قيادة الايسر رئيس أركان حرب جيش الأناضول صبري باشا، أما الأوسط فكان بقيادة عثمان باشا ذاته، (١٤٤ ص ٤٥). كما وشاركت في الهجوم على بدرخان القوات المرسلة من خاربوت واورفه وديار بكر وأرزيروم وبغداد والموصل (١٦، ص ٤٤٩). كان عدد الجنود الأتراك يزيد عن ٢٥ ألف جندي، في الوقت الذي كان تعداد الجيش الكردي لا يتجاوز ١٥ ـ ١٧ ألف (١٦١، العدد ٢٩٠).

كانت القوات التركية تتقدم عملياً من الشمال إلى الجنوب. وفي الشمال تقدم قسم من الجيش التركي باتجاه وان وموكوس وهكاري، بهدف قطع الطريق امام قوات حلفاء بدرخان بيك ونور الله بيك وخان محمود وتحطيمها.

كان بدرخان بيك يستعد استعداداً جيداً للقاء الخصم. كانت المناطق الجبلية الوعرة والمحصنة تقريباً صعبة البلوغ. ففي الاشتباك الأول، وعلى الرغم من تفوق العدو العددي، حققت قوات بدرخان بيك الانتصار. غير ان الخيانة التي قام بها قائد الجناح الأيمن في قوات بدرخان، وهو يزدانشير ابن اخ بدرخان، قد سهلت للخصم أن يتسلل إلى مؤخرة قوات بدرخان وأرغمتها على ترك مواقعها. فتراجع بدرخان مع ٥ ـ ٦ آلاف من جنده ليتحصن في قلعة «آروخ».

وراح عثمان باشا يعمل جاهداً لمحاصرة القلعة. وقاومت القلعة ببطولة ثلاثة أيام، حتى ان المحاصرين استخدموا الحجارة اضافة إلى المدافع والبنادق (١٥١، ص ١٤٢).

ان عدم وصول مساعدة الحلفاء، وتفوق الجيش التركي قد أرغما بدرخان بيك على دخول المفاوضات. ففي ٢٠ تمز ١٨٤٧ قام بدرخان بيك، بعد أن تسلم وعداً بالحفاظ على حياته وحياة المحاصرين جميعاً، بفتح أبواب القلعة واستسلم لعثمان باشا (١٣٨، صفحة ٥٥٥).

بعد أن قضى الجنود الأتراك على مقاومة بدرخان بيك بدؤوا النهب، فحولوا العديد من القرى الكردية في بوطان إلى خرائب وأطلال. ثم باعوا جميع قرى بدرخان بيك. فقد باعوا مثلاً بعد اسر بدرخان مباشرة قريته «ديرغول» بمبلغ ١٥ ألف قرش (٢٩، ص ١١٦).

استقبل نبأ اسر بدرخان في استنبول بابتهاج. إذ كان، على حد زعم مؤرخ البلاط لطفي، «تمرد بدرخان بيك وخان محمود، في هذا الوقت حدثاً في أشد الخطورة» (١٥١، صفحة ١٤٢ ـ ١٤٣).

أرسل بدرخان بيك مع اسرته تحت حماية مشددة إلى استنبول. وقد رافقه قائم مقام ديار بكر سابقاً زشيد بك وعبد القادر بيك. وصلوا استنبول في ٢٩ أيلول. ومن هناك نفي بدرخان واسرته إلى جزيرة كريت حيث عاش سنين طويلة. كان بدرخان بيك يحظى في جزيرة كريت بشهرة كبيرة بين السكان، ولقد قدم خدمات كثيرة

لمسيحيي الجزيرة أثناء النزاعات. وانقذ حياة العديد من المسيحيين بأن أخذهم تحت حمايته.. وغالباً ما دعي إلى كانيا (منطقة في كريت) لتسوية النزاع بين المسلمين والمسيحيين (١٥١، صفحة ١٤٨).

وبسماح من السلطان أمضى بدرخان بيك بقية سنوات حياته في دمشق حيث توفي عام ١٨٦٨.

* * *

تقدمت جيوش عثمان باشا، بعد أسر بدرخان بيك، صوب الشمال لتقضي على الزعماء الأكراد الآخرين. ودخلت في ١٥ آب ١٨٤٧ إلى مدينة سيرت. ويكتب بارونالك بك فير وخان، الذي كان موجوداً في معسكر القوات التركية، حول دخول جيش عثمان باشا إلى المدينة ما يلي: «سكنتُ وضباط الجيش في بيوت خاصة، أما الجنود فقد سكنوا الخيام. قيّد عثمان باشا للتو بالسلاسل زعماء القرية السبعة المنتفضين، غير أبه بعويل زوجاتهم وتوسلاتهن، وقرر أخذهم معه. (١٤١، صفحة ١٤٠ - ١٤١). وتوجه الكثير من زعماء الأكراد المنتفضين الآخرين إلى السلطات الايرانية مستفسرين منها ما إذا كانت ستسمح لهم بحق اللجوء إليها في حال الخسارة.. أما الجواب فكان جلياً جداً: «إذا قاومتم الجيش العثماني، وبعدها حاولتم عبور الحدود، فلا تنتظروا الحماية، إذ اننا أيضاً سنحاربكم، ونرغمكم على الاستسلام للقوات التركية، اما اذا تركتم الجزيرة دون حرب، ودخلتم الأراضي الايرانية حينها سنستقبلكم، وستعيشون في أمان» (١٦٢، عدد ٣١). لقد تعقد الوضع اثر الجواب المذكور، إذ ظهر الخلاف بين المنتفضين، فوافق البعض على التراجع دون مقاومة، واعتبر البعض الآخر ذلك عاراً وقرر المقاومة. ويفسر جواب ايران على أنها لم تكن ترغب في ازعاج تركيا والدخول معها في نزاع عسكري مباشر من ناحية، وعلى أنها وفرّت للزعماء الأكراد امكانية اللجوء إلى ايران من ناحية اخرى.

كانت حرب الأنصار مستمرة في كردستان. وابدى السكان مقاومة قوية في وجه القوات العثمانية. وكان يتوجب على عثمان باشا أن يحارب حليفاً آخر من حلفاء بدرخان بيك الأقوياء وهو خان محمود، الذي التجأت فصيلة كبيرة من قواته إلى

الجبال، وتدخلت الشخصيات المتنفذة في وان كوساطة بين القيادة التركية وخان محمود، مقترحة على الأخير الاستسلام للأتراك، واعدة اياه بالأمن التام على حياته، وبعد أن حصل خان محمود على قسم من الوسطاء الرسميين استسلم في ١٩ أيلول ١٨٤٧، إلا أن هؤلاء لم يفوا بالقسم وسلّموه أسيراً إلى القيادة التركية (١١٩، ص ٥٩). عامل الأتراك خان محمود معاملة وحشية جداً، لقد ربطوه إلى شجرة، وضربوه طويلاً، ثم دهنوا وجهه بالعسل وتركوه عرضه للسع النحل. بعدها ساقوه إلى استنبول ثم نفوه بعد حين إلى سيليسترا في بلغاريا.

اجتاح وباء الكوليرا، بعد فترة، كردستان وراح ضحيته آلاف الفلاحين، وانتقل الوباء إلى جيش عثمان باشا أيضاً. وفي شتاء ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨ فقط مات أكثر من نصف قواته المتمركزة في بيتليس (١١٩ صفحة ٦٠).

اعتبر الباب العالي انتصاره على بدرخان بيك حدثاً هاماً جداً، إلى درجة أنه أصدر ميدالية بتلك المناسبة رُسم على وجهها الأول قلعة «آروخ» وعلى الثاني عبارة «ميدالية كردستان» (١٤٤ صفحة ٤٦). وتلقى العديد من الضباط والموظفين الاتراك الذين ساهموا في نجاح الحملة ثناء السلطان وامتنانه لهم وذلك بموجب فرمان خاص. ونال العديد منهم تلك الميدالية وجوائز اخرى.

وتلافياً لقيام الأكراد بانتفاضات ممكنة في المستقبل، فقد أدخلوا الفصائل التركية إلى جميع المراكز الكردية، واحدثوا تغييرات جذية في المؤسسات الادارية للمنطقة، فضموا سنجق الجزيرة وهكاري وبارواري في ولاية واحدة، وعين يزدانشير حاكماً مؤقتاً على الجزيرة.

وفي نهاية عام ١٨٤٧ نُظمت في المناطق الكردية ايالات جديدة في كردستان وأصبح حاكمها الوزير السابق اسعد مخلص باشا.

أما الادارة المستقلة لحليف بدرخان بيك نور الله بيك فاستمرت حتى عام ١٨٤٩. ولم يتمكن عثمان باشا من القضاء عليها لأنه مات بالكوليرا في استنبول. وفي عام ١٨٤٩ قام رشيد باشا الذي عين خلفاً لعثمان باشا، ضد نور الله بيك. ولم يتمكن نور الله بيك من تنظيم مقاومة قوية وأرغم على الفرار إلى ايران..

ويشير خالفين بحق إلى ان السلطات التركية، التي قامت «باخماد انتفاضات كردستان مؤقتاً ولم تستطع منع قيامها ثانية، قامت بادخال مؤسساتها الإدارية إلى

كردستان وحرمت الورثة من الحكام الاقطاعيين من حقوقهم وامتيازاتهم» (٨٠ صفحة ٥٧).

استمرت القوات التركية في السنوات اللاحقة أي بعد أن اخمدت انتفاضة بدر خان بيك تمارس بصورة دورية «تنظيف» المناطق من الأكراد غير الراضين عن السيطرة التركية، وكانت تتهم معظم المعتقلين بالمؤامرة ضد الدولة..

لعل اسباب فشل انتفاضة بدرخان بيك هي نفسها الأسباب السابقة التي لازمت جميع الانتفاضات الكردية: ١ ـ غياب الوحدة. ٢ ـ عدم الاخلاص التام من قبل الجميع للقضية. ٣ ـ انقسام السكان إلى قبائل. ٤ ـ الاصطدامات المستمرة بين الزعماء الأكراد ووصوليتهم التي شكلت، على الدوام، عاملاً معرقلاً في وجه نجاح الانتفاضة، بل وفي وجه تطور المنطقة الاجتماعي والاقتصادي..

لاشك ان بدرخان بيك استطاع أن يوحد العديد من الزعماء الأكراد، واسس «الاتحاد المقدس» حيث أقسم الجميع على النضال المشترك من أجل الاستقلال. إلا أن هذا الجانب الشكلي من الموضوع لم يستطيع أن يخفي طمع الكثير من زعماء الاكراد في السلطة وكذلك جشعهم، ولم يتمكن بدرخان بيك من القضاء على الاصطدامات الداخلية حتى بين اقربائه المقربين.

ان ص. دملوجي على صواب عندما يؤكد أن السبب الرئيسي في خسارة انتفاضة بدرخان بيك يكمن في غياب التنسيق لدى القوات الكردية، وفي خيانة بعض الزعماء الاكراد، وفي أفكار بعض الزعماء الآخرين المتعصبة.

محاولة التقسيم النهائي لكردستان
وعمل لجنة الدول الأربع في وضع الحدود بين تركيا وايران..

بعد هزيمة بدرخان بيك وحلفائه، أرغم الكثير من زعماء الأكراد المنضمين إلى الانتفاضة، وكذلك العشائر الكردية على عبور الحدود التركية إلى ايران وذلك تخلصاً من الجنود الأتراك وبحثاً عن الحماية لدى الشاه. وكان معظم هؤلاء الاكراد من سكان هكاري اي سكان المناطق الواقعة قرب الحدود.

كان ثمة خلاف بين تركيا وايران حول بعض المناطق على طول الحدود مثل كاتور والسليمانية وغيرها، ولذلك فلقد شجعت السلطات انتقال بعض العشائر الكردية إلى هذا الطرف أو ذاك من الحدود. وكان ذلك التشجيع يهدف إلى توسيع التأثير السياسي على تلك العشائر، أو على أولئك الزعماء الأقوياء الذين كان بوسعهم تقديم الخدمات العسكرية والاقتصادية لهذه الدولة أو تلك.

كانت حماية الحدود التركية الايرانية تقع على عاتق الاكراد اساساً، ونتيجة لاعتداءات العشائر على بعضها كان الوضع يزداد صعوبة على الحدود باستمرار. وكانت القوات النظامية تستغل نزاع العشائر الكردية وتساهم في احتلال هذه أو تلك من مناطق الدولة المجاورة.

كانت تركيا وايران تتنافسان حول المنطقة الحدودية. وكانت مصالح ايران تصطدم مع مصالح تركيا، خاصة في منطقة السليمانية، إذ ان كلاً منهما كانت ترغب في تعيين الحاكم من طرفها. وقدمت السلطات الايرانية القوات، أكثر من مرة لاحد الزعماء ليهاجم منطقة السليمانية ويفرض سلطته بالقوة. ونتيجة لهذه المنافسة فقد تدهورت، في عام ١٨٤٢، العلاقات بين تركيا وايران، إلى درجة استدعت تدخل كل من انكلترا وروسيا، هذا التدخل الذي منع نشوب حرب بينهما.

اقتحمت القوات الايرانية مرتين في عام ١٨٤٢ الحدود التركية، وكانت نتيجة الاقتحام الاول الحاق الدمار بمدينة السليمانية. وكما يؤكد المؤرخ الانكليزي واستون فإن ذلك كان جواباً على عدد من تجاوزات تركيا للحدود الايرانية. (٥٥، صفحة ٣). وكان ثمة بؤرة اخرى للنزاعات الحدودية، في الناحية الشمالية من الحدود التركية الايرانية. ففي باشليك بيازيد اقتحمت القوات الايرانية المناطق الواقعة ضمن مراقبة السلطة التركية، غير انها تراجعت أمام قوات حافظ باشا (٨٠ صفحة ٥٣).

لقد أقلق توتر العلاقات السياسية بين تركيا وايران كل من انكلترا وروسيا، وادراكاً منهما (انكلترا وروسيا) ان الحرب بين تركيا وايران ستلحق ضرراً كبيراً بمصالحهما التجارية فقد حصلتا على موافقة تركيا وايران على بدء المباحثات في ارزيروم بغية تسوية مسائل الخلاف. واستمر اللقاء الذي تم في ارزيروم منذ ١٨٤٣ مدة طويلة، وشارك فيه ممثلو الدول الأربعة: نوري باشا ممثلاً عن تركيا، ميرزا جعفر خان ممثلاً عن ايران، والعقيد فارانت عن انكلترا، والعقيد دانييزي عن

روسيا. (٨٠ صفحة ٥٣). وصاغ الاجتماع معاهدة جديدة وافق عليها السلطان عام ١٨٤٧. وتمت ممارسة الضغط على ممثلي تركيا وايران. وأما مسائل الخلاف التي لم يصل الاجتماع إلى حلها، فقد نصت المعاهدة على تجنبها أثناء عمل لجنة الحدود.

واستناداً إلى الفقرة الأولى من معاهدة ارزيروم، تخلى الطرفان عن مطالبهما المالية التي ظهرت نتيجة حملات النهب التي قامت بها العشائر الحدودية في البلدين. ونصت الاتفاقية كذلك ان على الدولتين القيام بتنازلات فيما يتعلق بالأراضي. ان عدداً من السناجق، مثل زاخو والسليمانية، ظلت مدةً طويلة سبباً في الخلاف بين تركيا وايران. ووافق الطرفان، بموجب الاتفاقية المذكورة، على تقسيم سنجق زاخو، وتخلت ايران عن كل مطالبها بشأن سنجق السليمانية وبقية المسائل المتعلقة بالأراضي. . واعترف الباب العالي بحق السفن الايرانية في عبور شط العرب، وتجنباً لامكانية النزاعات في المستقبل فقد نصت الاتفاقية على تأسيس لجنة مشتركة بين الدولتين مهمتها التحديد الدقيق للحدود الحكومية بينهما. .

لفتت الحكومة الايرانية، اثناء المباحثات، انتباه الحكومة العثمانية إلى السماح للتجار الايرانيين بالدخول الحر إلى الاسواق التركية وبضرائب جمركية اعتيادية. وتعهدت تركيا بأن لا تطالب التجار الايرانيين بضرائب اكثر من المتفق عليها سابقاً. كما اتفق الطرفان على أن يعرقلا بأي شكل كان تنقل العشائر الكردية من جانب إلى آخر. ولتنفيذ هذا القرار الأخير، تعهد الطرفان بوضع الجيوش في الاماكن الضرورية قرب الحدود. هذا ومنذ اتفاقية السلام في ارزيروم المبرمة في ٢٨ تموز ١٨٢٣ كان الطرفان قد اعارا اهتماماً كبيراً لترحيل العشائر الكردية. وفيما بعد وبموجب اتفاقية ١٨٤٧ تعهدت كل من ايران وتركيا على أن «ترغم العشائر المعروف أصلها على العودة إلى أراضي الحكومة التي تتبع لها» (٧٦ صفحة ٦٣٧).

استناداً إلى معاهدة ارزيروم عام ١٨٤٧، شكلت ايران وتركيا لجنة لتثبيت الحدود بين الدولتين. وشارك في عمل اللجنة، بصفة وسطاء، الجنرال درويش باشا من تركيا، والمهندس الجنرال مير زا جعفر خان من ايران، وقائد الاركان العقيد، تشير كوف من روسيا، والمقدم وليمس من انكلترا. وكان السفير الانكليزي في استنبول اللورد سترتفورد يرشد ممثل انكلترا في اللجنة.

ويكتب ن. أ. خالفين أنه: «بحجة تلبية مصالح سكان الحدود وتحسين وضعهم الاجتماعي، كانت الأوساط الانكليزية الحاكمة والقيصرية الروسية، ترغب في استغلال تثبيت الحدود، من أجل دراسة دقيقة لاعماق المناطق التركية والايرانية، والاستفادة منها لاهدافها التجارية والسياسية التوسعية» (٨٠ صفحة ٥٩).

وحصل المقدم و. وليمس على ارشادات شملت دراسة تفصيلية حول الثروات الطبيعية والطبيعة الجغرافية ومناطق الحدود، وكذلك حول عادات القبائل الكردية وتقاليدها. وكان في حوزة قائد الاركان الروسي تشير يكوف دراسات مشابهة أيضاً.

وقد أولت فرنسا اهتماماً كبيراً لعمل ممثلي الدول الغربية في ارزيروم ثم بنشاط اللجنة المختصة بدراسة المناطق... وعندما أعلن رسمياً في ارزيروم عن بدء عمل ممثلي الدول المذكورة في تسوية خلافات الحدود بين تركيا وايران فتحت فرنسا قنصليتها في ارزيروم وعينت غارنيه قنصلاً لها (٦٨، صفحة ١١).

بدأت اللجنة بأعمالها الأولية لتحديد الحدود التركية الايرانية في بغداد، في كانون الأول عام ١٨٤٨. وبذل و. وليمس جهوداً خاصة في جمع المعلومات حول المناطق المتاخمة. ومن أهم المعلومات التي استند إليها وليمس وساعدته كثيراً هي معلومات مندوب شركة «الهند الشرقية» ومنفذ السياسية الاستعمارية الانكليزية الرائد غ. راولسن. جابت اللجنة منطقة الحدود بدءاً من شط العرب وحتى جبل أرارات الكبير والصغير، واكملت رحلتها في ٢٩ آب، ١٨٥٢، كان خط الحدود كما يصوره تشير يكوف، وخورشيد أفندي وغامازوف، يمر عبر ايالات البصرة وبغداد وشهريزور والموصل ووان وبيازيد..

لقد انجزت اللجنة عملاً علمياً كبيراً.. وكان الممثل التركي، بأمر من حكومته، قد اهتم بجمع معلومات دقيقة، في أثناء الطريق، عن وضع المنطقة المتاخمة للحدود الجغرافي وظروفها الطبيعية. وقُيمت عالياً المواد التي جمعها خورشيد أفندي سكرتير دوريش باشا (١١٠، صفحة ١٤٦). وبالواقع فإن المواد المذكورة كانت جديدة وثمينة بالنسبة إلى تركيا ذاتها، إذ حصل الباب العالي، للمرة الأولى، على معلومات حول مناطقه الشرقية.

ولعب ممثل روسيا ي . تشير يكوف ، صاحب الامكانات الدبلوماسية الكبيرة ، دوراً هاماً في عمل اللجنة ، وحظي باحترام بقية أعضاء اللجنة وخاصة باحترام ممثل انكلترا و. ويليمس .

وعلى الرغم من جهود ممثلي دول الوساطة الكبيرة ، فإن لجنة تخطيط الحدود لم تستطع أن تتخذ القرار النهائي حول تحديد خط الحدود بين تركيا وايران . الأمر الذي صار سبباً لنزاعات جديدة بين الدولتين في المستقبل . .

الفصل السابع

حرب القرم
وانتفاضة يزدانشير

العلاقات الروسية الكردية
في بداية الحرب

أدت عمليات القوات التركية الحربية في المناطق الكردية في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر، إلى انهاء كل الادارات التي اسسها الامراء الأكراد، وعينت بدلاً عنها ادارات تركية..

غير أن الانتكاسات المؤقتة لم تقض على طموح الاكراد إلى الحرية، وهذا ما يؤكده نضالهم اللاحق ضد السلطات العثمانية. ان الباب العالي إذ رأى أنه من المنطقي له أن يحتاط لكل اعتداء متوقع، قرر التخلص من جميع الامراء الاكراد الساعين إلى الاستقلال والسيطرة.. ومنذ الاربعينات، أجبرت معظم عائلات الأمراء الأكراد في بيتليس وبوطان وراوندوز وغيرها، على الرحيل بالقوة من كردستان إلى أقاصي مناطق الامبراطورية العثمانية.. وماكادت الادارة التركية تستقر في مناطق الاكراد المهجرين حتى برزت أمام الباب العالي مسألة الاستعداد للحرب ضد روسيا..

لم تكن حكومة السلطان تتمتع بأية ثقة بين سكان المناطق الشرقية في الامبراطورية العثمانية. فالمذابح الأخيرة للسكان الأكراد كانت ما تزال حديثة في ذاكرة الشعب. على أن الباب العالي قد فقد، بابعاده للزعماء الأكراد الشهيرين، تلك القاعدة الاجتماعية، التي كان بوسعه الاعتماد عليها بعد استخدام مختلف الحيل..

وكانت الأوضاع الاقتصادية للمناطق الكردية الخاضعة للإدارة التركية تسوء يوماً بعد يوم بسبب الضرائب الباهظة. . . وكانت مداخيل الفلاحين أقل جداً من أن تمكنهم من تسديد الضرائب الحكومية. . . ويشير بيجر الذي زار القرى الكردية في منطقة ديار بكر، أن الفلاحين كانوا يشكون من عبء الضرائب التركية. ففي قرية «خانكا جوري» (الواقعة بين ديار بكر وماردين) كانت الاتاوات التركية، حسب قول بيجر، كبيرة جداً إلى درجة أن قسماً من الأهالي أرغم على هجرة القرية واللجوء إلى الجبال. . (٩٠، الجزء الأول، صفحة ٤٧). ولقد فسّر الاكراد رحيلهم العام إلى الجبال لبيجر على النحو التالي: «وماذا علينا أن نفعل؟ إذا ماسكنا السهول، وبنينا القرى، وغرسنا الكروم، وزرعنا القمح، وبدأنا باصلاح الأراضي القاحلة، حينها سيفرضون علينا ضرائب عالية بحيث لن نستفيد شيئاً من عملنا وجهدنا، وسنظل فقراء نتعرض لأبشع أنواع الاستبداد، ولأننا لا نملك القدرة على تلبية مطالب مستغلينا الجشعين، لذلك بالذات نُتهم بأننا مجرمون. ان الاتراك يهدمون قرانا، ويسلبوننا ادوات حراثتنا، يقتلوننا، يأسروننا. . فماذا بوسعك أن تفعل والحال هذه؟ نترك بيوتنا رغماً عنا، ونبحث عن الملجأ لدى اخوتنا في الجبال لانهم هناك لا يتعرضون لأي اضطهاد. . هذه هي قسمتنا!» (٤٧ صفحة ٦١).

كان طلب الادارة التركية قاسياً، وخاصة في تلك المناطق التي وقعت تحت سلطة حاكم الموصل محمد باشا، حيث أقر الكثير من نُظم القرون الوسطى البالية وعاداتها وضرائبها.

وتكررت غارات القوات التركية بفرض تدمير ونهب القرى الكردية العاجزة عن دفع الضرائب الباهظة. ففي سنة ١٨٥٠ أقامت القوات التركية، بقيادة محمد باشا، مذبحة مريعة في قرية أومريان (منطقة جبل طور). . . وأما سبب المذبحة فكان التالي: بعد أن جمع «الجابي» الضرائب من السكان، لم يسلمها للسلطة بل أختلسها، فقرر الموظف المسؤول عن الجابي تكليفه بجمع الضرائب مرة ثانية بدلاً من معاقبته، وبعد أن امتنع السكان عن دفع الضريبة نفسها مرتين، تمت دعوة القوات التأديبية، كانت النتيجة تدمير كل القرى التي رفض سكانها تلبية مطالب الترك، وأسر السكان ونهب جميع ممتلكاتهم. ويصور بيجر، الذي كان في ماردين أثناء عودة

قوات محمد باشا، تصويراً مخيفاً موكب الجنود في المدينة، وهم يسوقون الاسرى وقطعان الماشية بل ويحملون رؤوس الأبرياء المقطوعة (٩٠ صفحة ٤٨ - ٤٩).

كان تجنيد الأتراك للشباب الأكراد في الجيش التركي يتم بالقوة دائماً. ويشير غ. مولتكه، الذي راقب سير التجنيد، إلى سخط السكان الاكراد تجاه السلطات التركية، ويقول إن التجنيد كان يشبه «صيد الناس». كانوا يقبضون على الناس ويوثقون ايديهم ثم يسوقونهم إلى الجيش.. » كانت القرى تفقد رجالها وشبابها العاملين فتزداد فقراً على فقر. ويلاحظ مولتكه أثناء زيارته الثانية إلى مدينة سيرت بعد مغادرة حملة الاتراك التأديبية أن شوارع المدينة كانت خالية إلا من بعض الشيوخ والاطفال والنساء..

وكان الرجال غالباً ما يلجأون إلى الجبال تخلصاً من التجنيد. وكان الباب العالي يعلق آماله على العشائر الكردية في المناطق المتاخمة للحدود الروسية ففي الواقع كان في تلك المناطق بعض العشائر التي كانت ستساهم في العمليات العسكرية إلى جانب الأتراك، ليس وفاءاً للسلطان بل حب زعماء القبائل تلك للمخاطر الحربية والنهب..

ولا يجوز اتهام جميع القبائل الكردية على الحدود بهذه التهمة فقد حاول الكثير منهم اتخاذ موقف حذر، ودراسة الوضع دراسة دقيقة، ويعود سبب ذلك إلى عدم ثقتهم بانتصار القوات التركية في الحرب القادمة مع روسيا. وإلى التأثير المباشر لقادة الروس العسكريين الذين سعوا إلى استمالة زعماء العشائر الحدودية إلى جانبهم. ويفسر هذا التأثير بأن الكثير من تلك القبائل كانت، بحكم نمط حياتها، مرتبطة بالأراضي الروسية، لأنها كانت ترحل، في اشهر الصيف إلى سفوح جبال اليغاس وأخمخان وغيرها من الجبال الواقعة في حدود الامبراطورية الروسية..

لم يرغب القادة الروس العسكريون في قطع علاقاتهم مع تركيا، ولذلك لم يتخذوا تدابير فعالة في الموقف من زعماء القبائل الكردية على الحدود. وتفسر سلبية هؤلاء القادة بأنه لم يكن من مصلحة الحكومة القيصرية اشعال معارك جديدة في القفقاز، لأنها كانت منصرفة حينها إلى قمع حركة الجبليين القفقازيين.

ونتيجة سياسة نيقولاي الأول الخارجية الفظة، باتت الحرب مع تركيا وحليفتاها انكلترا وفرنسا امراً لا مفر منه، ولذلك رأت وزارة الخارجية الروسية ضرورة

التأكد من موقف ايران تجاه تركيا. وتوجه مندوب القفقاز الكونت فارونتسوف إلى الامير مينشيكوف يطلب منه ارشادات جديدة على ضوء التطورات الأخيرة..

نصح مينشيكوف في جوابه الايرانيين، أن يعيروا انتباهاً إلى منطقة كاتور، التي احتلتها القوات التركية من نحو سنتين، وذلك للثأر من الاتراك على اساءاتهم القديمة، وارجاع الأراضي في المنطقة المذكورة. كان مينشيكوف يرى ضرورياً القيام بمثل هذه الخطوة بهدف اساءة العلاقات بين تركيا وايران. حرك الشاه تجمعاً كبيراً للقوات الايرانية في مدينة السليمانية. وكان القائم بالأعمال الانكليزي، خوفاً من تعقيد العلاقات بين ايران وتركيا على اثر هذه التحركات العسكرية، يحاول بمختلف الاساليب أن لا يدع الأمور تتطور نحو الاسوأ، وأعلن للشاه بأنه وساطة خير بينه وبين تركيا، وهذا يدل على حسن نيته تجاه الشاه وحبه له.

وانتهت مراسلات السفير الروسي وجهوده القوية بتوقيع اتفاقية مع ايران في ٢٩ أيلول ١٨٥٤ وذلك بعد بداية حرب القرم، تعهدت ايران بموجبها أن تقف على الحياد خلال الحرب كلها، وأن تمنع نقل البضائع والمعدات الحربية لقوات الحكومات التي تحارب ضد روسيا، وأن لا تسمح كذلك للعشائر الكردية الخاضعة للشاه بالقيام بغزوات النهب ضد الأراضي الروسية.

أما تركيا، التي أقلقها تحسين العلاقة بين ايران وروسيا، فقد رأت من الضروري الانتباه إلى تعزيز حدودها الشرقية. وقرر الباب العالي الذي لم يكن يملك حينها قوات عسكرية كبيرة في كردستان، الاستفادة من اكراد راوندوز وهكاري الذين تعرضوا منذ وقت قصير لحملات الباب العالي التأديبية.

وفي عشية حرب القرم، قررت القيادة العامة للقوات التركية أن ترسل قواتها المحتشدة والمهيأة للعمليات الحربية ضد روسيا، لمحاربة اكراد درسيم وذلك بغية حماية مؤخرة جيوشها.. وكان قائد القوات التركية سميح باشا، وهو نفسه الذي فشل منذ الثلاثينات في معركته ضد اكراد درسيم. ولذلك قرر هذه المرة أن يعاقبهم عقاباً عسيراً... كانت القوات التركية متفوقة في عددها والظروف ملائمة لها: إذ توفي في هذه الفترة رئيس اكراد كوزيجان حسين بيك الأول، الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة بين السكان. أما وريث حسين بيك فكان ابنه الشاب قليل الخبرة علي بيك، فلم يستطع الصمود أمام قوات سميح باشا، وأمر قواته بالتراجع من المناطق السهلية

والصعود إلى الجبال صعبة البلوغ. فدمّرت القوات التركية كل المراكز الكردية الآهلة في طريقها. ودمرت قصر علي بيك ومقبرتهم العائلية. ومع ذلك لم يستطع سميح باشا القضاء على الأكراد في الجبال، فترك درسيم تاركاً هناك الموظفين الأتراك وفصيلة صغيرة من الجندرمة... إلا ان الاكراد طردوا بعد رحيل القوات التركية، الموظفين والجنود الاتراك وعاشوا وفق نظامهم السابق.

صرفت حرب القرم، مؤقتاً انتباه القوات التركية عن درسيم، وعاد، بعد مرور بضعة اشهر على بداية العمليات الحربية في جبهة القفقاز، عدد من زعماء الأكراد وعائلاتهم إلى مواطنهم من المنفى.. وعين رسول بيك وهو أخو الأمير المرحوم، حاكماً على راوندوز.

لقد اثارت نوايا الشاه في استعراض القوات الحربية في السليمانية رد فعل سلبي في استنبول. وبهدف إعاقة ذلك، ارسل الباب العالي إلى السليمانية وريث حاكم المدينة السابق عبد الله بيك الذي كان محجوزاً في استنبول «لعدم موافقته» على التنظيم إلا أن ثقة الاتراك كانت ضعيفة في اخلاص أولئك الزعماء الأكراد خلال سير المعارك. وحسب تأكيدات القنصل الروسي العام في تبريز أتينشيكوف، فإن الأوساط الايرانية كانت تدرك منذ زمن علاقة رسول بيك وعبد الله بيك غير الطيبة مع الامبراطورية العثمانية، ولذلك لم ترخطراً في عملياتها ضد الشاه (١٧، جزء ١٧ صفحة ٥٠٠). وعندما بدأت العمليات الحربية لم يكن الباب العالي قد تمكن بعد من انشاء حاجز من الأكراد على الحدود التركية الايرانية..

ابتدأت العمليات الحربية على جبهة القفقاز باعتداءات على المراكز الآهلة ضمن الامبراطورية الروسية، وكانت اعتداءات غير متوقعة بالنسبة لروسيا. إذ انها لم تكن مستعدة للعمليات الحربية في القفقاز. كانت مدينة الكسندروبول هي المدينة المحصنة الوحيدة بالقرب من الحدود التركية، وكان ذلك مفهوماً لقادة الروس العسكريين، ولذلك اعتمدوا على دعم سكان المنطقة من الأرمن والجورجيين وغيرهم ممن كانت تظلمهم الأوساط الحاكمة في الامبراطورية العثمانية.

وفي عام ١٨٥٣ تزايد تنظيم الفصائل المسلحة من سكان المنطقة وظهرت للتو مثل هذه الفصائل في يريفان في قاغرشامات والكسندروبول وشاماخ واليزابيت وناخيجوان وغيرها من المناطق على طول الحدود التركية.

وتم تشكيل فوجين من الأكراد المتطوعين، الأول بقيادة جعفر آغا والثاني بقيادة أحمد آغا. كان تعداد الفوج الأول ٥٠٠ فارس يدخل في عداد فرقة الكسندروبول وضم الفوج الثاني ١٠٠ خيال، وكان الفوجان الكرديان تحت مراقبة العقيد لوريس ميليكوف.

جرت في بداية الحرب اتصالات بين السلطات العسكرية الروسية واكراد الحدود. وتطورت هذه الصلات في نهاية عام ١٨٥٣ وبداية ١٨٥٤. لقد وقع الصدام الأول بين القوات الروسية والتركية في تشرين ثاني ١٨٥٣ في قرية بياندور حيث ارغمت القوات الروسية بقيادة الفريق بيتوف الجيش التركي المؤلف من ٤٠ ألف جندي على التراجع في معركة باشكاديكلار (والتي كانت المناوشات في بياندور، حسب قول المؤرخين العسكريين، فاتحة لها). ولقد ساعد هذا الانتصار على زيادة شهرة الروس بين سكان المنطقة.

ساهم الخيالة الأكراد في معارك باشكاديكلار إلى جانب الجيش التركي. ويصور بيتوف هذه المعركة قائلاً أن الاكراد حاربوا ضد الروس دون رغبة شديدة في ذلك و«عندما انهزم الاتراك راح الأكراد يلاحقون القوات التركية النظامية وينهبونها، ثم هربوا مع غنائمهم إلى مراعيهم الشتوية». ويؤكد المشاهدون بأن الجيش التركي د فقد الكثير من قواته ولم يصل إلى قارص أكثر من ٥ ـ ٦ آلاف جندي. بعد خسارة الاتراك الأولى ترك معظم الجنود الأكراد الجيش التركي ويذكر فارونتسوف في خطابه إلى الوزير الحربي انه ظل في الجيش التركي افراد قبيلتي زيلان وجانوكي فقط. وبعد هذه المعركة لم تستطع السلطات التركية الاعتماد على دعم الاكراد بل وأخذت حذرها من اعتداءاتهم.

ولقد غير انتصار الروس في باشكاديكلار موقف الكثير من القبائل الكردية تجاههما، خاصة تلك القبائل التي لم تساهم في العمليات الحربية، وتشير بيانات قادة الروس العسكريين منذ ١٨٥٤ إلى ان زعماء القبائل الكردية المجاورة عبر وا عن تعاطفهم مع الروس، وعرضوا عليهم خدماتهم، وطلبوا منهم السماح لهم باستخدام مراعي القفقاز.

ورأى القادة الروس أن من الضروري تلبية الطلب المذكور، إذ بوسع الاكراد ان يصبحوا في المستقبل مورداً لتموينات الجيش الروسي الضرورية. ولقد وصل في

كانون أول ١٨٥٣ إلى الكسندروبول عدد من الزعماء الأكراد ليعبروا عن تأييدهم للسلطات الروسية.

جاء في الرسالة، التي بعثت بها القبيلة الكبيرة زيلان إلى القادة الروس، ان هؤلاء الاكراد لن يرفعوا السلاح بوجه الروس، وسيكونون مستعدين دائماً للتفاهم معهم.

أوعز إلى قادة القوات الروسية في القفقاز أن يأخذوا بالاعتبار تعاطف الأكراد مع الروس، وعلى ان تبدأ المفاوضات مع زعماء الأكراد الاقوياء. وفي اكتوبر ١٨٥٤ تمكن لوريس ميليكوف ان يحصل على موافقة قاسم خان للاجتماع به بهدف ايضاح موقف الطرفين، كتب بيبتوف موضحاً اهمية هذه المفاوضات، في بيانه بتاريخ ١٣ تشرين الثاني ١٨٥٤ إلى قائد فيلق القوات القفقازية، ان قاسم خان «بحكم قوة العشيرة التي يقودها وبحكم عراقة اصله يحظى بتأثير كبير ليس على جميع القبائل الكردية المجاورة فحسب بل وعلى كل سكان المناطق المتاخمة».

وبهدف اللقاء مع قاسم خان وصل في ٢ تشرين الثاني ١٩٥٤ وفد روسي بقيادة العقيد لوريس ميليكوف يرافقه ١٠٠ من القوزاق والمجندين إلى قرية كيزيل ـ كليسا في منطقة شوراغيل، وكان يرافق قاسم خان قريبه باسوا غا زعيم اكراد جمال دنيلي وعدد آخر من الزعماء. وجرت المباحثات في جوودي عبر خلالها العقيد لوريس باسم القيادة العامة للقوات الروسية عن امتنانه للأكراد. على اهدوء على الحدود الروسية ـ التركية ولرفضهم وضع فرسانهم تحت تصرف الاتراك، كما واجتمع لوريس ميليكوف بقاسم خان على انفراد وعرض عليه بعض الشروط والاقتراحات تحلت اهمها في: ١ ـ ان يتحرر قاسم خان مع جماعته من سيطرة الحكومة التركية. ٢ ـ ان يلبي عند الضرورة، طلب القيادة العامة للقوات الروسية بتقديم ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ خيّال كردي ضد الاتراك. ٣ ـ الحفاظ على الامن في المناطق التابعة له والامتناع الكلي عن الغزو والنهب وتأمين سلامة الطريق من كولب إلى الكسندروبول.

وتبعاً للتعليمات فقد وعد لوريس ميليكوف قاسم خان بدوره ان يعترف بجميع حقوقه في المناطق التابعة له ويبدي له المساعدة في حال هجوم الاتراك عليه وأن يمنحه رتبة عقيد وراتباً تقاعدياً مدى الحياة. ثم أخبر لوريس ميليكوف بيبتوف بأن مباحثاته مع قاسم خان قد تكللت بنجاح تام، كما وابلغه عن الانطباعات الطيبة التي

تركها قاسم خان في نفسه، وعن ثقته بأنه سينفذ الوعود كافة. لقد لاقت الاتفاقية صدى ايجابياً بين سكان مناطق الحدود إذ أن الهام فيها كان، بالنسبة إلى الآمنين منهم، الضمان الذي قدمه قاسم خان بعدم السماح بالنهب والغزوات التي كانت تقوم بها عادة بعض القبائل الرحل اثناء الصيف. وارسل سكان قرى زرجي، تيغور، ماوراك، بيفيك ممثليهم إلى الكسندروبول للتعبير عن ارتياحهم لهذه المباحثات. (١٥، ص ٩٣).

وعلمت الحكومة التركية بمباحثات ميليكوف وقاسم خان فاتخذت جميع التدابير الممكنة للتقليل من خطر نتائجها.

وتعرضت قلعة قارص للخطر بسبب تعاطف الأكراد مع الروس ولرفض الأكراد تقديم الخيالة للجيش التركي. وهدد المشير ظريف باشا بارسال قوات تركية نظامية ضد الأكراد. ولكنه لم يؤثر بهذا التهديد على ولاية قارص. ان قاسم خان الذي لم يكن يرغب في الدخول في نزاع مباشر مع الاتراك، سافر إلى المشير برفقة ٢٠٠٠ خيال فقط. لم يكن بوسع تلك القوى أن تبدي مساعدة حقيقية للأتراك، بل كانت لا تكاد تكفي كحاشية لقاسم خان وأدرك الاتراك ذلك ووافقوا على الاستفادة من شهرة قاسم خان على الأقل.

علقت السلطات التركية آمالاً كبيرة على المعركة القادمة في قرية كوروك دارا لإعادة تأثيرها على أكراد قارص. إلا أن جيش بيبتوف (تعداده ١٨ ألف) حقق النصر في ٢٤ تموز ١٨٥٤، على الجيش التركي (تعداده ٦٠ ألف) في المعركة المذكورة آنفاً. وأرغم الاتراك على ترك ولاية قارص. كان عدد الجنود الأكراد يتناقص إثر كل معركة في الجيش التركي. فإذا كان عدد الخيالة الأكراد في الجيش التركي، أثناء معركة باشكا ديكلار يقدر بـ ٤ ـ ٥ آلاف، ففي معركة كوروك دارا لم يتجاوز عددهم الـ ٥٠٠ خيال، هرب معظمهم بعد المعركة إلى بيوتهم. ويكتب أفير يانوف قائلاً: «بعد هزيمة كوروك دارا لم يعد يضم الجيش التركي المحارب في قارص عام ١٨٥٤ فارساً كردياً واحداً».

ومما زاد في سوء وضع السلطات التركية هزيمتهم، قبيل معركة كوروك دارا أمام الفصائل اليريفانية في الجيش الروسي بقيادة فرانفيل، في ١٧ تموز على مرتفعات تشينفيلسك بالقرب من بيازيد. بعد انتصار الروس في مرتفعات تشينفيلسك، ترك

الاتراك مواقعهم في بيازيد وتشتتوا في اتجاهات مختلفة، ثم دخلت القوات الروسية إلى بيازيد (٧٣ صفحة ٥٢١).

بعد احتلال بيازيد عين فرانفيل مجلساً من وجهاء سكان المدينة عهد مسؤوليته إلى قائد فصيل الأكراد جعفر اغا. وكتب فرانفيل في بيانه إلى بيتوف موضحاً أسباب تعيين جعفر آغا قائلاً أن «جعفر بتأثيره على القبائل الكردية يستطيع أن يساعد على استتباب هدوء المنطقة، وعلى بناء علاقات طيبة لنا مع كردستان» (١٧، جزء × ص ٨٠٦).

وبهدف كسب تأييد اكراد بيازيد، توجه فرانفيل اكثر من مرة بنداء رسمي إلى زعماء اكراد حيدرانلي، شيخ بكر، وحيدر آغا، وشيخ عبيد، وجانغير آغا، وزعيم قبيلة الجلاليين موسى اغا وغيرهم..

كان النداء يدعو السكان إلى مساعدة القوات الروسية، ويعدهم بالأمن والهدوء في المناطق المحررة. لقد ساهم جعفر آغا مساهمة فعالة في تشجيع الاتصالات بين القادة العسكريين الروس والزعماء الأكراد.. لقد كان لنجاحات القوات الروسية في كوروك دارا، وفوق مرتفعات تشينفيلسك، ودخولها إلى بيازيد تأثير قويٌ على سير الأحداث في كردستان..

اندلعت في كردستان في هذه الأثناء، احدى اكبر الانتفاضات بقيادة سابق الذكر يزدانشير (ابن اخ بدرخان بيك)..

قبل حرب القرم، قام الباب العالي، تخوفاً من تأثير يزدانشير غير المرغوب فيه مع السكان، بتنحيته عن الادارة التي استلمها لقاء مساعدته الاتراك في حربهم ضد بدرخان بيك عام ١٨٤٧. وكان يزدانشير المخدوع ينتظر اللحظة التي سيهاجم فيها السلطات العثمانية..

وسرعان ما تطورت انتفاضة يزدانشير إلى انتفاضة شعبية، وساعد على ذلك سخط سكان المناطق الشرقية حيث كانت شعوب الأناضول كافة مستعدة للانضمام إلى الانتفاضة. لقد نوه القائد العسكري الروسي م. لوخوتين أن: «رياء الباشا وظلمه واستبداده قد أثار السخط العام ليس لدى الأكراد فحسب، بل لدى جميع من رأى بأن حكم القائد الكردي لابد من أن يكون أفضل من حكم الباشا» (٤٩ صفحة ٢٥٦).

امتدت الانتفاضة من الموصل وحتى وان، أما العامل الحاسم الذي أدى إلى قيام الانتفاضة فكان يعود إلى ظروف سياسية، إذ خسر الجيش التركي على جبهة القفقاز معركة اثر اخرى وتقدمت القوات الروسية بنجاح صوب قارص وارزيروم. . إضافة إلى اسباب اخرى منها مثلاً: ادارة الحكام الاتراك التعسفية واستبدادهم بالناس والضرائب الباهظة التي فرضتها عليهم.

وكانت نتائج العمليات الحربية الطويلة للإمبراطورية العثمانية هي: التدهور الاقتصادي العام وتفشي الرشوة والسرقات والنهب والسلب بين الموظفين، وزيادة الفقر والحرمان بين أوساط الناس. . ولم تكن تلك الاعباء الثقيلة لتقع على كاهل الأكراد وبقية الاقليات القومية في تركيا فحسب، بل وعلى كاهل الشعب التركي ذاته، وكانت تثير سخطه العميق تجاه السلاطين واستبدادهم الذي لا حد له.

في كانون الأول ١٨٥٤، عندما غادر فيلق الجيش التركي قرية بيركري إلى وادي الفرات وإلى كنسسية سورب ـ أوهانيس، استغل يزدانشير الظروف الملائمة وأعلن الانتفاضة. . . وحدد مركزها بوطان وهكاري. ووجه الضربة الأولى لقواته (المؤلفة من ٢٠٠٠ جندي) إلى مدينة بيتليس، واستطاع، بفضل دعم سكان المنطقة الواسع، ان يحتلها بكل سهولة (١٧ جزء ١١ صفحة ٣٢٦).

وامتدت الانتفاضة إلى مناطق جديدة، وانضم إليها سكان المناطق الجنوبية في وان وموكوس بقيادة زعيم تيلي بيك، وكذلك أولاد بدرخان بيك، الذين كانوا قد أرسلوا من قبل الباب العالي إلى كردستان بصلاحيات مطلقة وبكميات مالية هائلة بهدف جمع القوات لصالح الباب العالي. واستغل أولاد بدرخان بيك تلك الصلاحيات والأموال واستطاعوا تشكيل جيش كبير من الأكراد ثم انضموا إلى الانتفاضة (١٥ صفحة ١٤٨).

كان السكان يقدمون مساعدة كبيرة للمنتفضين. وسرعان ما حذا آشوريو منطقة جولاميرك حذو يزدانشير. . ولذا أثار توسع الانتفاضة الكبير قلق السلطات التركية وخوفها.

يعلن مراسل جريدة «كورييه دي ليون» من استنبول قائلاً إن «الحكومة العثمانية تخشى من أن تأخذ الانتفاضة، التي تزداد قوة يوماً بعد يوم، والتي يصعب قمعها

حالياً، أبعاداً خطيرة لتشمل السكان المسيحيين في أرمينيا بل والاناضول» (١٥٨ العدد ٢٣).

قام ضد يزدانشير الفريق عظمي باشا، فتقدم بقواته نحو ديار بكر والموصل ومن هناك إلى بوطان. إلا أنها كانت في حال يرثى لها، حتى ان المراقبين حكموا على فشلها سلفاً.

اما يزدانشير، الذي لم يواجه صعوبات جدية، فقد احتل في بداية ١٨٥٥ المناطق الجنوبية في بحيرة وان. وازداد عدد المنتفضين ليصل إلى ٣٠ ألف. واحتلوا معملاً للمدافع في الموصل، وطردوا ممثلي السلطات المحلية واستولو على الخزينة (٤٩، ص ٢٥٦).

وكما كان متوقعاً، فقد اتخذت حكومة السلطان تدابير مستعجلة من أجل القضاء على بؤرة الخطر. غير ان الباب العالي لم يكن يملك حينذاك جيشاً قوياً في كردستان، كما أن الحاميات القليلة في المدن لم تكن في وضع يؤهلها من ابداء المقاومة في وجه المنتفضين. واعلن مراسلو الصحف الغربية عن ضعف السلطات العثمانية.. وعن وضع السكان القلق وازدرائهم للسلطات التركية وقوانينها البالية.

واتسعت حدود الانتفاضة، وأخذت طابعاً شعبياً. ولم تتمكن السلطات التركية أن تدفع، في الوقت اللازم، الزعماء الأكراد المعادين ليزدانشير للقيام ضده.

في كانون الثاني من عام ١٨٥٥ تم تجهيز جيش من إيالة بغداد ضم حاميات المدينة سلمت قيادته لكنعان باشا. غير أنه تحطم في أثناء أول صدام له مع المنتفضين بالقرب من مدينة سيرت، ثم انضم إلى الانتفاضة اكثر من ٢٠٠٠ عربي من جنوب شرقي الآناضول وعدد كبير من اليونانيين، وابدى الارمن تعاطفهم العلني مع الانتفاضة.

وبلغ عدد المنتفضين في شباط العام ذاته ٦٠ ألف مقاتل. وثمة معلومات تقول أن العدد قد بلغ ١٠٠ ألف مقاتل... وكما يؤكد ليخوتين فإن الشعب المستاء من سرقات الموظفين الاتراك، كان يطردهم من كل مكان.

وسعى يزدانشير إلى التنسيق مع القوات الروسية، فأرسل خمس رسائل إلى قائد القوات الروسية بعد أن احتلت بيازيد يطلب منه أن يكثف عمليات قواته في الاتجاه الجنوبي، كان يزدانشير ينوي الانضمام بقواته إلى القوات الروسية في مدينة

بيتليس، ومن ثم التوجه سوية صوب مدينة ارزيروم (٤٩، صفحة ٢٥٧). إلا أن رسائل يزدانشير لم تصل، لأن القوات الروسية كانت قد تحركت من تلك المنطقة. ويؤكد ليخونين، الذي كان حينذاك رئيسا لأركان حرب القوات البريفانية، على أن قادة القوات الروسية لو استلموا الرسائل تلك، لما كان بوسعهم اتخاذ تدابير هامة، لأن القوات كانت قد أوقفت عملياتها في الشتاء.

في شباط وآذار اتسع مجال الانتفاضة جداً باتجاه ارزيروم وبيازيد. وكان اكراد بيازيد يتعاطفون مع اكراد المناطق الأخرى ويهتمون بنجاحات يزدانشير. ويكتب ليخوتين: «كان السكان يهتمون بكل شيء له علاقة بالانتفاضة لأنها تمس حياتهم مباشرة ولأن شعوراً واحداً كان يجمعهم ضد السلطات العثمانية» (٤٩ صفحة ٢٥٩).

بادرت القيادة التركية إلى اخماد الانتفاضة بقوات مختلفة وعديدة. وارغمت على سحب قسم من قواتها من الجبهة الروسية لتزجها ضد الانتفاضة.

لقد تدخل القنصل الأنكليزي في الموصل في المسألة، وتمكن، بالوعود والرشاوي أن يساوم مع عدد من زعماء القبائل الكردية لقبول الصلح مع الاتراك... فتوقفت عمليات الانتفاضة مؤقتاً. كان يزدانشير يعيش جنوب مدينة وان في قلعة (مقرا علي) المحصنة والامينة. وارسل من هناك في بداية نيسان ١٨٥٥ رسولاً اسمه (اصلو) إلى قائد قوات بريفان يقترح عليه ثانية أن يتقدم نحوموش، ومنها إلى بيتليس، حيث يستطيع هناك الانضام إلى القوات الروسية. (٤٩، ص ٢٥٨).

لم يتلق يزدانشير، المساعدة المنتظرة من أحد، لذا فقد الأمل في الانتصار، ووافق، تحت تأثير القنصل الانكليزي، على دخول المفاوضات مع السلطات التركية. خرج يزدانشير، بعد أن وثق بوعود القنصل الانكليزي وكلمة «الشرف»، من قصره لاجراء المباحثات. لكن ألقي القبض عليه غدراً، وأرسل إلى استنبول.

ثم أجرى القنصل الانكليزي مفاوضات مع بطريرك الأشوريين ابراهام المعارض للسلطات التركية، راغباً في اقامة علاقات طيبة بينه وبين الباب العالي، ويكتب البطريرك في رسالته المؤرخة في ايلول ١٨٥٥ إلى نائب القفقاز مرافيوف بهذا الصدد ما يلي: «لقد دعاني القنصل الانكليزي إلى الصلح معه (وهذا يعني الصلح مع الاتراك في نهاية المطاف) «المؤلف». ولكني لم أوافق على اقتراحاته...».

وتدهورت امور زعماء الانتفاضة شيئا فشيئاً. ولم يستطيعوا الاستفادة من النجاحات التي أحرزوها. فتمكنت القوات التركية من قمع الانتفاضة في كردستان... وأصدرت بالمناسبة ميدالية خاصة. ثم أرسلت على الفور القوات التي ساهمت في قمع الانتفاضة إلى جبهة القفقاز.

ويشير ليوختين، بأسف أثناء تقويمه الانتفاضة، إلى ان عملياتها لم تتوافق مع عمليات القوت الروسية. إذ أنها اندلعت في تشرين ١٨٥٤ وذلك بعد أن وقفت القوات الروسية عملياتها الحربية. وفي ربيع عام ١٨٥٥، عندما استأنفت القوات الروسية عملياتها، كانت الانتفاضة قد أخمدت... ويحاول ليخونين أن يتهم يزدانشير بأنه بدأ الانتفاضة في وقت مبكر جداً، وبأنه «تسرّع». ولكن لا بد من الاشارة إلى أن القيادة الروسية العسكرية لم تتخذ أية اجراءات عملية في سبيل دعم يزدانشير. ويذكر ليخوتين قائلاً: «هناك على الأغلب.. أسباب أخرى هي التي منعت القائد الروسي العام أن يعير الانتباه إلى يزدانشير» (٤٩، صفحة ٢٦٠).

لكن ماهي تلك الأسباب؟ فإن ليخونين لايفصح عنها. كان بوسع مساعدات القوات الروسية ليزدانشير أن تؤثر جداً على سير حرب القرم. وليس مصادفة أن يكتب نيقولا الأول في رسالته إلى فارونتسوف في كانون الثاني عام ١٨٥٤ ما يلي: «أكرر، ان النجاح في آسيا، يقودنا، على الأغلب، إلى السلم المرغوب فيه». كان القيصر دولغاروكوف ينصح في رسائله. نائب القفقاز الجنرال مورافيوف بأن يحافظ، بكل الأساليب على علاقة الصداقة مع الأكراد، ودون التوقف أمام أي شيء. (انظر: ١٧ الجزء ١١، صفحة ٨١ ـ ٨٢). إلا أن مورافيوف، الذي كان قد تعين في نهاية عام ١٨٥٤ نائباً للقفقاز وقائداً عاماً لفيالق من القفقاز، لم ير من الضرورة الاستفادة من انتفاضة يزدانشير لصالح روسيا. كان ينظر إلى الأكراد نظرة ريبة وشك، وشرح في رسالته إلى دولغاروكوف في ١٠ حزيران ١٨٥٥، بأن الاكراد سيحاربون عند ديارهم فقط: «ولايجوز الاعتماد عليهم بشيء» هذا ماجزم به السيد مورافيوف!..

حصار قارص، ونهاية

حرب القرم

كانت القيادة التركية قد قامت، قبل بداية حرب القرم، وبنصيحة من المهندسين العسكريين الانكليز، باعادة بناء قلعة قارص وتحصينها. وبعد اندحار القوات التركية في كوروك دارا وباشكاديكلار، تجمعت كل الفصائل المهزومة في قلعة قارص..

بدأت القوات الروسية حملة ١٨٥٥ بالهجوم على قارص.. وكان يقود الدفاع عن القلعة عقيد المدفعية الانكليزي ف. وليمس، الذي نال لقاء خدماته للأتراك لقب الباشا.. واهتمت القيادة الروسية باحتلال القلعة اهتماماً كبيراً، لأن العمليات الناجحة في محاورقارص كانت ستعوضها عن خسارتها في القرم عامة.. غير أن التحصينات السابقة في قارص، وتجميع المعدات الحربية والمواد التموينية وتأمينها كانت تشجع الأتراك على عدم التخلي عن القلعة.. كانت الفصائل التركية تأخذ المواد التموينية من سكان المناطق المجاورة دون مقابل وتنقلها في عربات الفلاحين. وكان السكان يشتكون للروس: «ان الاتراك يأخذون القمح والشعير وكل ما يصادفونه مجانا، ثم يستولون على الخيول والثيران والعربات لنقل هذه المواد إلى قارص، من حيث لا يعود أي شيء..» (٤٩، ص ١٥٧).

لم تقتصر القوات التركية على جمع المواد التموينية اللازمة لها، بل حاولت أن تسلب الناس آخر ما لديهم، كي لا يتركوا شيئاً للقوات الروسية..

في نهاية تموز ١٨٥٥ حاصرت القوات الروسية، قارص حصاراً محكماً. كانت القوات الروسية قد قررت عدم السماح بتموين المحاصرين بالمواد الضرورية. فنظم لوريس ميليكنوف - بعد أن حصل على موافقة مورافيوف - فصائل الانصار من المتطوعين (الجورجيين والاكراد والارمن وغيرهم) للانقضاض على العربات التي تنقل المواد للمحاصرين. وبعد حصار طويل وشديد استطاعت القوات الروسية احتلال القلعة في تشرين الثاني ١٨٥٥. كان احتلال قارص نصراً كبيراً لقوات روسيا. وبهذا الاحتلال انتهت العمليات الحربية على جبهة القفقاز.

كانت مساهمة الأكراد إلى جانب الاتراك مساهمة ضعيفة في حرب القرم . ولم يكن الباب العالي قد علق عليهم آمالاً كبيرة . . . كان يتبع معهم سياسة مسالمة . . وأظهرت الحرب الكثير من التناقضات بين الأكراد والسلطات التركية ، واستاء الناس منها ، فاندلعت بعد فترة ، انتفاضة كردية في ١٨٥٦ . ابتدأت مرة اخرى من المناطق الجنوبية لبحيرة وان بين قبائل رشكوتانلي واليزيد . وانتفض جبل درسيم مرة ثانية . . وجرت اشتباكات عنيفة بين الأكراد والقوات التركية في ولاية موش ووان وارزيروم . .

ان موقف الأكراد المعادي للسلطات العثمانية ونضالهم في سبيل الحفاظ على استقلالهم تجلى بوضوح أكثر في منطقة درسيم بعد حرب القرم . .

الخاتمة

استطاعت السلطات العثمانية، بعد حملتين تأديبيتين كبيرتين، قمع حركة الاكراد التحررية، هؤلاء الذين التفوا حول مير محمد وبدرخان بيك في النضال من أجل حرية كردستان. لقد أظهرت الأحداث ان احتلال الاتراك لكردستان قوبل بمقاومة قوية تجلت في حمل السلاح والانتفاضة ضد الامبراطورية العثمانية..

قام الباب العالي بحملاته الحربية ضد الأكراد، تحت شعار مركزية المؤسسات الادارية في البلاد، غير ان التجربة أثبتت أن عيوب النظام الاقطاعي التركي قد تعرت أكثر فأكثر بالذات في تلك المناطق التي عينت فيها الادارات المركزية التركية..

وعلى الرغم من تعيين حاكم للسلطان في كردستان، فإن موقف الأكراد المعادي للسلطات التركية كان قوياً وكافياً لاندلاع انتفاضة جديدة في أول فرصة مؤاتية. ومع بداية حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦). نشبت انتفاضة يزدانشير العارمة التي هددت باحتلال مناطق واسعة من الامبراطورية..

ولا بد من التأكيد على أهم الامور التي الحقت بالأكراد ضرراً فادحاً في هذه المرحلة وهي: ١ ـ النزعات الداخلية، والخلافات العشائرية بين الاقطاعيين الأكراد، التي استغلها الاتراك دائماً.. ويصف دينيل سياسة تركيا بدقة عندما يكتب قائلاً: «كانت حكومة تركيا نادراً ما تتدخل في هذه المناوشات الدائمة، وفي سفك الدماء، لأنها لا تجد في التدخل اية مصلحة لها، بل انها، إذا شئتم، على العكس، تفرح لها، لأن هذه العشائر تبيد بعضها من أجل هدوء تركيا وسلامتها» (٣٥ صفحة ٢٠٠). ٢ ـ كما أن دسائس القادة العسكريين الاتراك والموظفين غالباً ما كانت تتكلل بالنجاح. ٣ ـ لقد دفع الشعب الكردي دمه في المعارك ثمناً لخيانة مسؤوليه وتناقضاتهم.. ٤ ـ كانت المقاومة في وجه القوات التركية قد نظمت تنظيماً ضعيفاً. وعلى الرغم من محاولات مير محمد وبدرخان بيك في تأسيس جيش نظامي، غير أنهما لم ينجحا في تشكيل نواة قوية لقيادة ملمة بكل الخبرات التكتيكية والاستراتيجية والفنون الحربية. ٥ ـ كان زعماء العشائر غالباً ما يستغلون العشيرة لتحقيق اهدافهم الشخصية. وهذا ما كان يساعد على تشتت قوات الأكراد. ٦ ـ موقف روسيا وانكلترا السلبي من الانتفاضات لأن نضال الأكراد التحرري كان يلحق الضرر بمصالحهما.

الفهرس

الصفحة		
٥	المقدمة.	
١٧	الفصل الاول	التوزيع السكاني للقبائل الكردية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.
٣٣	الفصل الثاني	علاقات الاكراد الاجتماعية والاقتصادية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.
٤٩	الفصل الثالث	الوضع السياسي في كردستان في بداية القرن التاسع عشر.
٥١		امارة بابان.
٦١		امارة بهدينان.
٦٧		امارة صوران.
٧٠		امارة هيكاري.
٧٣		امارة بوطان.
٧٧	الفصل الرابع	نضال مير محمد من أجل توحيد كردستان.
٩٥	الفصل الخامس	بدء الحملة التأديبية الكردية الى كردستان ونهاية حكم مير محمد.
١١٥	الفصل السادس	وضع كردستان في اربعينات القرن التاسع عشر وانتفاضة بدرخان بيك.
١١٨		الانتفاضة من أجل استقلال بوطان.
١٢٥		العلاقات الكردية الاشورية ودور المبشرين في تعقيدها.
١٣٢		نهاية حكم بدرخان بيك.
١٣٧		محاولة التقسيم النهائي لكردستان، وعمل لجنة الدول الاربع في وضع الحدود بين تركيا وايران.
١٤٣	الفصل السابع	حرب القرم وانتفاضة يزدانشير. العلاقات الروسية الكردية في بداية الحرب.
١٥٦		حصار قارص ونهاية حرب القرم.
١٥٩	الخاتمة.	
١٦٠		

هذا الكتاب

إن الهدف الاساسي لهذا الكتاب، هو بحث العلاقات بين الإمارات الكردية والحكومة المركزية التركية، وتاريخ إجهاضها من قبل القوات التركية، الذي أدى الى ظهور النضال التحرري لأكراد صوران وهاكاري وبهدينان ومناطق أخرى.

لقد أعطى المؤلف اهتماماً خاصاً للنظام القانوني الداخلي للإمارات الكردية، وللنشاط الاجتماعي والسياسي للحكام الأكراد المشهورين أمثال: مير محمد في راوندوز، وبدرخان بيك في جزيرة بوطان. إن لهذه المسألة أهمية بالغة، من حيث تقييم الأحداث السياسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كذلك الانتفاضة الشعبية التي قادها يزدانشير في مرحلة حرب القرم ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦ إضافة الى أعوام النزاعات العاصفة بين القوات التركية والإمارات المستقلة.